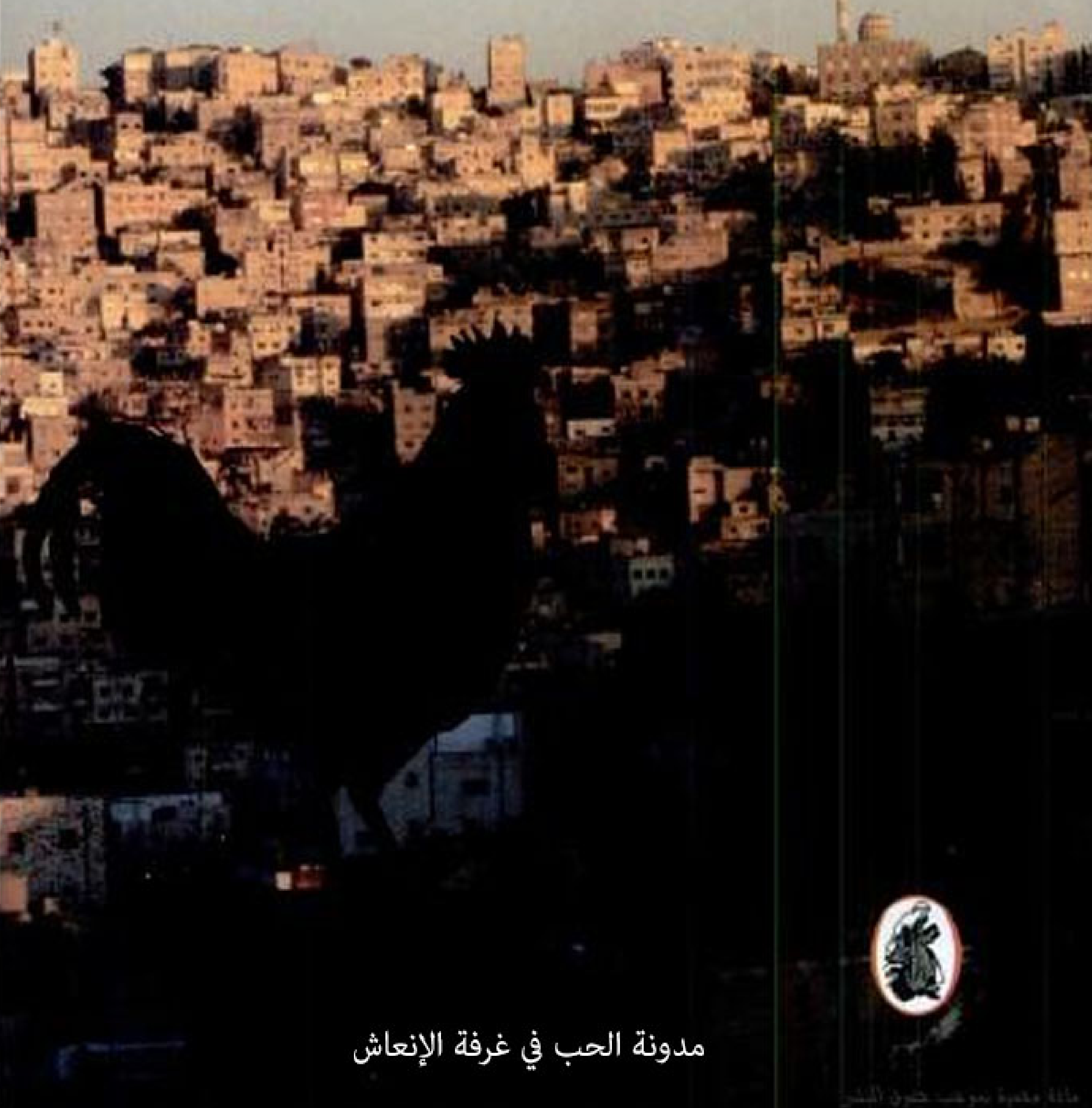
IBRAHIM NASRALLAH

إبراهيم نصرالله

حارس المدينة الضائعة

رواية



لمزيد من الكتب والروايات تفضلوا بزيارة
مدونة الحب في غرفة الإنعاش
تابعونا عبر تويتر mjanen23@
فيس بوك 3abeth

حارس المدينة الضائعة

حارس المدينة الضائعة / رواية عربية
إبراهيم نصر الله / مؤلّف من الأردن
الطبعة العربية الأولى، ١٩٩٨
حقوق الطبع محفوظة

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي
بيروت ، ساقية الجنزير ، بناية برج الكارلتون ،
ص.ب ، العنوان البرقي موكيالي ،
تلفاكس ٠٧٩٠ ٨٠٧٩
التوزيع في الأردن
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب ٩١٥٧ ، هاتف ٠٥٤٣٢ ، تلفاكس ١
خطوط الغلاف والإشراف الفني
®
صورة الغلاف فوتوغراف
المؤلـف من معرضه " مشاهد من سيرة عين
الصف الضوئي
مطبعة الجامعة الأردنية

وديارٌ كـانت قديماً ديارا
ستراناكمـا نراها ، قــفـــارا

من أغنية أم كلثوم
(هذه ليلتي)
شعـــر جورج جرداق

فَزِعَاً هبَّ من فراشه
تناثرت الأغطية ، تعثرت الأشياء المتناثرة على الأرض به ، تعثر بها
يا للهول ، لقد تأخرت
راح يبحث عن حذائه ، انتعل الفردة الأولى داخل الغرفة ، الثانية في الحوش ، وراحت يداه تحاولان في غمرة ارتجافهما ، وضع قميصه تحت البنطال
عشر دقائق كاملة يا للهول
أغلق الباب وراءه ، انحدر باتجاه الشارع العام مرتجفاً ، رفع بصره نحو السماء ، فوجئ بغيمة كبيرة لا تنتمي للصيف لو كان الوضع طبيعياً لعاد فلطالما أوصته أمه
إحذر البرد
ترامى الشارع هادئاً ، بلا بشر ولا عربات ، وفاجأه العدد الهائل من الأعلام التي ترفرف فوق أعمدة الكهرباء وشرفات الدور وعلى أبواب

المحلات التجارية كانت كثيرة

بحيث لو أن الغيمة هبطت بأكملها ، فإن قطرة واحدة من مائها لن تصل إلي

حاول أن يتذكر إن كانت هناك مناسبة وطنية

لا ، لا يمكن أن أنسى شيئاً كبيراً كهذا

وتساءل ، فيما إذا كانت المناسبة قد عبرت أمس ، دون أن ينتبه ، وان ما يراه فوق رأسه من مخلفات علامات زينتها

أيكون الإحتفال قد فاتني ؟ لا ثمة أحتفال يصادف غدا:

إذن ،وكل ما في الأمر أنني قد صحوت قبل الجميع

نظر إلى ساعته

إنها تسير

قَرَّبها إلى أذنه

إنها تشتغل

وحين إنتبه إلى أنه أمضى أكثر من نصف ساعة في إنتظار حافلة النقل العام ، دون أن تمر ، همس لنفسه

هذا شيء غريب ،لم يحدث من قبل

لكنه قرر ألاّ يفقد الصبر ، وأن يمنحها فرصة أخرى كي تُطل من إنحناءة الشارع الحادة ، وتتهادى بحملها الثقيل ، كالعادة ، إلى أن تصل إليه

فلا يعقل أن عشر دقائق تأخير تقلب العالم ، هكذا ، رأساً على عقب

يده في جيب سترته ، يتحسس القروش التي يعرف أنها موجودة هناك ، يصعد درجات الحافلة ، ما أن تأتي ، يُسقطها في فم تلك الآلة المثبتة أمام الباب ، على يمين السائق ، ويبحث بعد ذلك عن موطيء قدم

مرة واحدة تساءل ، ولأسباب كثيرة لم يُعد السؤال
لماذا أدفع قبل أن أتأكد من وجود مكان لي
لكن ما طمأنه ، أن الحافلة لم تتوقف أمامه إلاّ لتقله ، ولم يحدث أن صعد ـ مرة ـ وأنزلوه

***

في البداية ، كان يضع قطعة القروش العشرة ، وهو يعرف انه يمنح مؤسسة النقل العام قرشين إضافيين ، إعتبرهما نوعاً من (الحلوان) بمناسبة حصوله على وظيفة (مدقق) في إحدى الصحف اليومية . لكنه بعد أسبوعين ، قرر الكفُّ عن عادته تلك ، بعد أن أصبح العمل بالنسبة إليه أمراً يومياً ، لأن القرشين من حقه هو ، ولأنه لم يكن من أولئك الذين يطمئنون للمستقبل وما يخفيه من مفاجآت وفي محاولة منه لأن يأخذ الأمر بالجدية التي يستحقها ، راح يفكر بعدد الكلمات التي يصححها أو يدققها مقابل هذين القرشين

صحيح انه لم يصل إلى رقم دقيق ، لكنه ، كان رقماً لا يستهان به في كل الأحوال

لذا ، قرر بحزم أن يحسم الأمر ، على الرغم من قلّة عدد قراراته الحاسمة التي يضطر لاتخاذها

لم أعتقد في أي يوم من الأيام ، أن هناك مسألة مصيرية توجب اتخاذ قرار حاسم

لكنه وجد نفسه يأخذ قرار القرشين ، حتى ، قبل أن ينتبه إلى أنه اتخذ قراراً

***

كان ذلك منذ سنـــوات
بعيدة
وحينما أدرك أيامها حجم قراره ، سعى بدأب لكي يثبت صحة ما قام

بــه

احتـفظتُ بالقـروش المتبقـية من أربع رحـلات ذهاب وإياب ، وحين توجـهتُ إلى مـوقف الحافلة ذلك الصباح ، كنت فرحـاً لأنني سـأستـغل تلك التحويشة المتواضعة حقيقة ،لكن ، التي بدونها لا أستطيع الوصول إلى عملي ،لوكان جيبـي خاوياً

في حـالة عـادية ، كـان يمكن أن يكون قـراره هذا فـاتحـة تغـييـر لمجرى حياته .وهو يحب كلمة (مجرى) ،لكن الأمور تطورت فـيما بعـد بصورة مربكة ،لم تخطر له ببال

أعاده الرنين المتصاعـد من جيبه ، ترامت أمامه مسافة طويلة تفصله عن ذلك الزمان كـانت أصـابعه تعبث بالنقـود المعـدنيـة ، دون أن تعـود إليه

حركة لا إرادية !!

ولم يكن حتى تلك اللحظة قد حدد موقفاً واضحاً من تلك الحركات ؛

الموضوع كـله جـديد عليـه ،لم يقـرأه ، ولم يسمـع عنه إلاّ منذ أيام أثناء تدقيقه للصفحة العلمية الأسبوعية

وفكّر

لو سألته أصابعه قبل أن تقوم بما قامت به ، هل كان سيسمح لها ، أم لا

أسمح لا أسمح ،أسمح ، لا أسمح

قرار جديد !!

هذا أسوأ ما في الأمر

بعد دقـائق إنتبـه أصابعـه لم تزل تعبث بالقروش ، القـروش تواصل الرنين تناسى

كما يتناسى إزعاجاً يسببه تلفزيون جار له يتابع مباراة رياضية ، رغم طلبه منه تخفيض درجة الصوت أكثر من مرة

ساعة كاملة مرت ، ولم تطل الحافلة أمام عينيه راحت الدقائق تومض وتتلاشى ، بطيئة ، ثقيلة ، عندها أدرك أن ما يدور حوله ، لا ينتمي لفئة الأحداث اليومية التي يعيشها ، أو تعيشه

لا عربات ، ولا سيارات سرفيس ، ولا سيارات تكسي ، لا جرافات ولا ناقلات دبابات

وقد شاهد أكثر من مرة هذه الناقلات تمرُّ من هنا ، من هذا الشارع بالتحديد ، شارع (المحطة)

ثمة شيء يحدث ، شيء غريب ، لا ينتمي لعالم المصادفات

ولأنه لا يحب المزاح الثقيل ، أبعد فكرة أن يكون الأمر عائداً لقراره القديم المتعلق بالكف عن وضع قطعة القروش العشرة في آلة نقود حافلة النقل العام ، كاملة

الدقائق الخمس التالية ، قطعت الشك باليقين ، لكنه فكَّر بإعطاء الحافلة فرصة أخرى

لأسباب يمكن اعتبارها شخصية ، بشكل أو بآخر ، حيث لم يسبق لها أن تأخرت عليّ إلى هذا الحد ، وإذا ما حدث أن تأخرت فلأسباب أقوى منها بالتأكيد

فيما بعد ، لاحظ أن الموقف خال من الركاب تماما ، صحيح أنه لم يلحظ في أي يوم أعداداً كبيرة فيه ، إلاّ أنه اكتشف غرابة أن يكون الموقف له وحده

ولم أكن ذلك الشخص الذي يمكن أن تكرِّمه مؤسسة النقل العام بموقف خاص ، وفوقه علم يرف

بعد مرور خمس دقائق أخرى ، لم يكن باستطاعته التخلي عن إيمانه بمجيء الحافلة لكنه عندما لاحظ أن الشارع ، أيضاً ، خال تماماً من البشر ، وأن المحلات التي تعج دائما بالحركة

يخيم عليها صمت القبور
قرر أن يمشي تلك المائة خطوة التي يعرفها باتجـــاه الشارع العام ، حيث باستطاعته هناك ، أن يستقل حافلة أخـرى ، تمضي به إلى مجمع سيارات رغدان والساحة الهاشمية
وهي كثيرة في الحقيقة
مشـــــى
لكن هواجس ما راحت تنتابه ، لا يستطيع تحديدها تماما
غير مريحة بالتأكيد
خاصة ، وأن أحداً لم يظهر أمامه ، كما أن صوت العربات الهادر في ساعة كهذه ، لم يكن له وجود وحين أصبح باستطاعته أن يرى الشارة الضوئية عند التقاطع بوضوح تام ، أدرك أن في الأمر (إنَّ) ؛ فالأضواء الثلاثة الأحمر ، البرتقالي ، والأخضر ، تنطفيء وتضيء مجتمعة بتسارع منتظم ، في إشارة تحذير لا تخفى
ولم يصدف أن اجتمعت هكذا من قبل
وقف تحت الشارة الضوئية ، ألقى نظرة أمامه
لا أحد !
على يمينه
لا أحـد !
على يساره
لا أحــد !
وفكر أن تكون الحافلة قد تبعته ، فالتفت خلفه
لا أحـــد !!

قَطْعُ عشرة كيلو مترات للوصول إلى مبنى الصحيفة ، سيراً على الأقدام ، مسألة ليست سهلة

رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه

قدماه لن تساعداه على ذلك

أسوأ ما في الأمر أن تخذل نفسك بنفسك ، وأن تُحْكمَ أعضاء جسمك قبضتها عليك ، كما لو انها عائدة لسواك وفي أي عمر؟!! في التاسعة والأربعين لا غير إخص !!

طبعاً ، مثل هذه الأفكار تجاه ذاته ، تشير بوضوح ، إلى أنه قادر على مواجهة هذه الذات ، حين يتطلب الأمر موقفاً حازماً ؛ لذلك ، فهو يدرك أن كلمة (إخص) ، شيء لا يستهان به

***

نظر إلى السماء

هاله أن الغيمة الكبيرة التي رآها حينما غادر البيت ، لم تزل هناك ، كما لو انها موثقة في الأعالي بخيوط غير مرئية ، وتحتها ، وعلى طول إمتداد الشارع ، كانت الأعلام ترفرف ، كأسراب من طيور بجع على وشك التحليق

أعجبه الوصف !!

احتمالات كثيرة راحت تعبر خاطره ، أحسَّ بفوضاها ، حاول فصل أحدها عن الآخر ، كانت متشابكة

متشابكة تماما ، مثل كتلة شَعْر في قدمي دجاجة هذا يربك ، يربك حقيقة

صحيح أن الساعة لم تتجاوز التاسعة والربع ، وان ساعة وربع الساعة أمامه ، للوصول إلى عمله

إلا أنني حتماً سأتأخر إذا ما سرت إلى هناك على قدمي

وتلاشى قليلاً ، ذلك الإحساس العميق بالفخر الذي طالما سكنه ،لأنه لم يترك الأحداث تفاجئه في أي يوم من الأيام ، منذ أن بدأ يعي العالم حوله .

هكذا ، وما أن تسلَّم مهامه الوظيفية ، قرر أن يغادر البيت قبل ساعتين على الأقل من بدء الدوام

تكتشف قراراتك الصائبة حين تطل المشاكل برؤوسها

كان يدرك أن فرصة العمل في الصحيفة ، هي الأخيرة ، وإذا ما ضاعت ، فإنه لن يجدها ، حتى لو أمضى بقية حياته باحثاً عنها

ما يريحني حقاً ، فرحة المرحومة الوالدة ، التي عاشت إلى أن رأتني أحصل عليها ثم أن العمل في صحيفة ، شيء ساحر ، خاص عميق ، مؤثر ، ومرهوب ، ويكفي أن يجرب المرء دخول عتبة إحدى الصحف ، ليكتشف بنفسه هذه الأحاسيس هنا مستودع الأسرار ، هنا ما وراء الكواليس ، هنا

وحين يقول الكواليس ، فهو يعرف ما الذي تعنيه كلمة كهذه ؛ فقد عمِلَ ممثلاً في ثلاث مسرحيات على الأقل صحيح أن أدواره شبه صامتة كانت ، لكنها مهمة

وإلا ، فلماذا يكون شخص ما على الخشبة ، إن لم يكن دوره مهماً؟

في أحد الأدوار كان عليه أن يخرج عن الصمت ، وأن يصرخ صرخة مدوية تفزع البطل

كان معه ثلاثة أو أربعة ممثلين يساعدونه

فطوال فترة التمرين ، كان المخرج يقول له أريد صرخة حقيقية ، صرخة مجلجلة ، تهز المسرح ، وتبعث القشعريرة في جسد الجمهور إلا أنه فقد الأمل في أن يستطيع إطلاقها وحده ، ورأى أن صرخات الآخرين ستعوض النقص

وفرحت لأن المُخرج قد وجد مَخْرَجاً

هو يعرف ، أن مشكلته قائمة في حدة صوته التي لا تتناسب أبداً مع ضخامة جسمه

وحتى لو لم يكن الأمر هكذا ، فأي بطل ذاك الذي تزلزله صرخة :

واحــدة ؟!!

مُطْلِقاً صرخته المكتومة ، راح يجوب الخشبة

والبطل يفاجأُ كل ليلة .!!

***

في مدينة ضيقة ، يمكن أن يحدث أي شيء

أزمات مرور ، أو كما تدعوها الصحافة (إختناقات مرورية) ، فيضانات تغلق الشوارع وتغرقها ، بعد زخات مفاجئة من المطر أما أيام الثلج ، فإن المسألة أكثر تعقيداً ، بالنسبة لي على الأقل

وفكّر ، ألا يعدو الأمر أكثر من تحويل مفاجيء للسير ؛ وحاول أن يتذكّر إن كان قد دقق خبرا في اليوم السابق بهذا الخصوص

ربما دققه زميلي

فَتْحُ أنفاق ، بناء جسور ، إلغاء ميادين وتحويلها إلى تقاطعات توسيع شوارع بصعوبة ، تضييق أرصفة

كما لو ان عدد السكان يقل يوما بعد يوم !!

ووضع حواجز حديدية تفصل المشاة عن الشوارع ، كلها باتت مألوفة تماما ، ويومية لسكان العاصمة

طبعاً ، بين ذهابه وإيابه ، كانت تنتابه بعض الأفكار الخاصة ، أي أفكاره هو ، لا أفكار أولئك الذين يدقق لهم أفكارهم

بما أنهم سمحوا أخيراً ببناء طابق رابع ، فلا حل إلا ببناء أربعة طوابق من الشوارع ، بحيث يوقف المرء سيارته الخاصة ، أو تنزله الحافلة أمام الطابق الذي يسكن فيه صحيح ، أن خطوة كهذه لا يمكن أن تتم بين يوم وليلة ، لكن المدينة نفسها لم تصل إلى ما وصلت إليه بين يوم وليلة أيضا

حين يتأمل الفكرة ، يجدها جديرة بتأمله لها

: وجديدة ، بدليل أن أحداً لم يكتب عنها . لكنني لا أستطيع أن

أُحمِّل المسؤولين أكثر من طاقاتهم

أفكار أخرى خطرت بباله ، لكنها أكبر من طاقات البلد

رحم الله بلدا عرف قدر نفسه ؛ لأن الدنيا في النهاية ـ كما قالت المرحومة الوالدة ـ أرزاق ، وما ينطبق على الناس ينطبق على الدول أيضا

وباستطاعته هنا ، أن يورد أمثلة كثيرة

أجل ، من ثراء أمريكا إلى فقر الصومال ، ومن خُضْرة كشمير

كما رآها في أفلام هندية كبرى

إلى قُحُوْلَة الصحاري في في كثير من بلدان هذا العالم!!

المهم

حينما كان يقرأ تلك الأخبار المتعلقة بحوادث السير في البداية ، أي بداية عمله ، كان يحس بانقباض شديد

شديد للغاية

لقد لُدغَ من جُحْرِ السير هذا مرةً ، ولم يكن يعرف أنه سيلدغ منه ثانيةً ، ولذا ، كان كلما استقل واحدة من وسائل المواصلات ، أحس بأنه في طائرة بلا طيار . لذلك ، فكر طويلا إلى أن اهتدى لحل أطلّ من بين خزائن المعلومات القديمة المتعلقة بتنافر قطبي المغناطيس المتشابهين فرأى أن تفاحة نيوتن قد سقطت هذه المرة بين يديه

تُستبدل واقياتُ الصدمات في الأمام والخلف على النحو التالي

مقدمة السيارة موجب ، ومؤخرتها موجب أو العكس وبذا فإن السيارات لا تستطيع أن ترتطم ببعضها ، لأنها تتنافر دائماً

أن تجد الفكرة اللامعة الذكية ، ليس مشكلة بالنسبة إليه ، المشكلة في وجود المؤسسات الكبرى القادرة على تطبيقها

وبعد زمن اكتشف ، أن طَرْحَ فكرته على شركة عملاقة هو الحل

الأمثل

وفي محاولته لتحديد أي الشركات المؤهلة ، حصر المسألة أخيراً في شركة (هونداي) وشركة (دايو) ، لأنه على يقين من أنهما ستركضان إليه من كوريا إلى عتبة بيته ، للحصول على حق استغلال هذا الإختراع ؛ خاصة ، وكما لاحظ منذ زمن طويل أن الصراع بين هاتين الشركتين والشركات اليابانية والأمريكية على أشده للظفر بالسوق الأردنية

وغيرها ربما

كما أن له أسبابه الخاصة أيضاً

فهذه الدولة الصغيرة التي بدت في لحظة زمنية ، بلا وزن استطاعت أن تفاجيء الجميع ، وتثبت أنها قادرة على تحقيق المعجزات

إمعان التفكير في الإختراع ، أوجد مشاكل تقنية ، كان لا بدَّ من التغلب عليها ، لكي يصل إلى الهدف المطلوب ، من مثل

الكيفية التي يمكن من خلالها حل مشاكل الإصطدامات الجانبية

ثم أن وقوف سيارتين خلف بعضهما ، في حال ضعف فرامل اليد مثلا ، قد يؤدي إلى وقوع حوادث ، إن لم يكن أمامهما سيارات وخلفهما سيارات ، لأن السيارتين ستتنافران ، وتدفع كل واحدة منهما أختها في اتجاه معاكس ، كما أن وجود حقل مغناطيسي كبير في الإختناقات المرورية ، وخاصة داخل (الدواوير) ، سيؤدي إلى فقدان السيطرة على السيارات ، بحيث تدور الواحدة منها حول نفسها كالمروحة

ولم يجد حلا لحوادث الإنقلاب

ولكن ، لا بأس من إعطاء الفكرة فرصة أخرى لتنجح

وما دام الحديث قد وصل إلى هنا ، فإن أكثر ما كان يقلقه عدم تناسب عدد قتلى الحوادث مع شهداء الحروب ، رغم موقفه الواضح من مسألتي النصر والهزيمة

فالحروب حروب ، أولا وأخيراً ، يعني دبابات ، مدافع ، طائرات :

رشاشات ، الغام أرضية وبحرية ، صواريخ . وما إلى ذلك

لا يستطيع أن يدّعي أن تلك الفكرة من بنات أفكاره مثل تلك المتعلقة بالإختراع السابق ، الذي لم يزل يُطبخ على نار هادئة

ولكن ، إسمحوا لي أن أكون صريحا ما دمت أتحدث مع نفسي ، الحروب لا تعني سوى شيء واحد لا غير أكبر عدد من القتلى في أقل فترة زمنية ممكنة

لن نطيل
الأفكار مُتعبة دائما

كان ذلك فصل
العودة إلى البداية التي سبقتها النهاية
ويليه فصل
النظر إلى الأعلى برقبة مقصوفة

تلفت حوله ، أحس بغربة قاسية وفَزَع ، كان المشهد يواصل فراغه ووحشته

كما لو انَّ يداً عملاقة حملتني أثناء نومي وألقت بي في صحراء جليدية أو كوكب مهجور

ألغى احتمال تحويل حركة السير تماماً ، بعد أن أمعن النظر فيها ، ولم ير في الشارع الرئيس أحداً

تحويل السير يتعلق دائماً بالسيارات ، لا بالمشاة

فهو لم يزل حتى الآن ، يذكر تلك الحركة الصاخبة للمشاة على جانبي (دوَّار الداخلية) ، حين جرى تحويله إلى نفق وجسر طائر ؛ بعضهم يحاول الوصول إلى مجمع بنك الإسكان ، بعضهم الوصول إلى شارع الإستقلال ، بعضهم إلى دوّار مكسيم غوركي (سابقا)

لقد إنهار الإتحاد السوفييتي في عمان ، قبل أن ينهار في موسكو!!

وبعضهم يحاول أن يشق طريقه بين كُتَل الإسمنت الضخمة والجرافات

لبلوغ بوابة وزارة الداخلية

أشياء كثيرة تحدث في عمان دفعة واحدة

لم أكن أتوقعها

وأكثر من فكرة مستقبليّة

أي تنتمي لعالم المستقبل

مرّت بخاطره ، وهو يحاول أن يرى عمّان العاصمة عام ٢٠٢٠

طبعا لن أستطيع رؤيتها بوضوح حينها ، لأنني - والأعمار بيد الله - سأكون قد تجاوزت السبعين

لكنه في ضوء المقالات التي قرأها ، أي دققها أخيراً ، وتلك التي سمع بها ، واعتبرت العاصمة قلعة ساقطة إستراتيجياً ، تأكد أن الأمور إذا ما واصلت تدفقها هكذا ، فإن يوماً سيجيء ، يكون فيه مضطراً للحصول على تأشيرة سفر إذا ما أراد التنقل بين جبل النزهة وجبل الحسين ، بين جبل التاج وجبل الجوفة ، بين مخيم الوحدات والأشرفية ، بين العبدلي والشميساني ، وبين الشميساني والمدينة الرياضية ، وبين المدينة الرياضية والجبيهة وقد حمد الله أنه لن يكون على رأس عمله في ذلك الزمان وإلاّ فإن وصوله اليه سيحتاج منه الحصول على أربع تأشيرات يومياً

لكنه لم يحرم موظفي أقسام التدقيق في الصحف من إمتيازات ستفرضها طبيعة العصر في ذلك الزمان ، كأن يدققوا كل شيء وهم في بيوتهم ، من خلال أجهزة الكومبيوتر المتصلة بالصحف التي يعملون فيها

وبذلك يكون العلم وسيلة حقيقية لتجاوز الحدود ونقاطها المصطنعة

حاول استرجاع ما مرَّ به في الليلة السابقة ، ولم يكن صعباً عليه أن يعرف أسباب المشكلة

: قليل من التواضع ، كان يمكن أن يعفيني مما أنا فيه .

هو نفسه لا يفهم الآن كيف حدث ما حدث ، رغم القرار القاطع الذي اتخذه منذ سنوات طويلة ، متكئاً على القول المأثور الذي ما انفكت أمه تردده على مسمعه

ـ اللي بتطَّلع لفوق إكثير رقبته بتنقصف

كانت محقة ، وها أنا أقولها بعظمة لساني

لقد وجد نفسه متورطاً في مشاهدة ذلك الفيلم ، حتى قبل أن ينتبه لما يقوم به

نعم ، كنت أبحث عن أي برنامج تلفزيوني ، أستطيع أن أقطع به المسافة الزمنية بين التاسعة وخمس وأربعين دقيقة ، والعاشرة موعد نومي

حين وجد نفسه وجهاً لوجه مع أجمل ممثلات العصر

دومينيك ساندا

لقد سبق وأن شاهدها في فيلم آخر قبل سنوات ، لكنه قرر ألا يراها بعد ذلك أبداً

كانت جميلة إلى درجة لا تحتمل

وقد كانت ثلاثة أيام بعد مشاهدته لفيلمها ذاك ، كفيلة بأن تجعله يدرك حجم المشكلة التي أوقع نفسه فيها

إصفَرَّ ونَحُلَ ووهن جسمُهُ ، غارتْ عيناه وضعفت ساقاه ، بعد ثلاث ليال لم يتوقف عن الحلم بها

تلك الأحلام التي لا يجوز التحدث بها ، حتى مع النفس نفسها

ولولا ذلك القرار الصارم الذي اتخذه بعدم مشاهدة أي فيلم جديد لها أو قديم

أو أي فيلم لممثلة بمستواها ، لكان قد فارق الحياة من زمن ، ولوّع قلب أمه عليه هو الذي لم يزل يبكي كلما شاهد غوار وأبوعنتر وحسني البورزان يقدمون نشيد الإبن الذي طعن أُمه ، وعندما اكتشف فداحة ما

قام به ، أراد أن يطعن نفسه
فناداه قلب الأم كُفَّ يداً ولا تقتل فؤادي مرتين على الأثر

كما لو انه لم يتخذ ذلك القرار ، وجد نفسه دون أن يدري غارقاً في مشاهدة فيلمها الجديد

هل أقول بطريقة غير إرادية أيضاً

طويلا كان الفيلم ، وحين انتهى بعد منتصف الليل

كنت أشبه ما أكون بشخص خضع لعملية تنويم مغناطيسي

فز من أمام التلفزيون ملدوغاً بضعف إرادة ما كان يتصور أنه صاحبها ، لكن وفاءه التاريخي لفتاته الجميلة جداً جداً !!! لم يسمح له بأن يعود للحلم بساندا مرة ثانية

ولولا ذلك لكانت الكارثة

تدريجياً تصاعدت مخاوفه ،ما أن وصل تقاطع (النَّشا) ، حيث الإشارات الضوئية هناك تقوم بما تقوم به شقيقاتها خلفه الحمراء والبرتقالية والخضراء ، التي راحت تضيء وتنطفيء في آن بتسارع منتظم

ألقى نظرة متأنية على نهاية شارع الإستقلال ، حاول أن يلتقط إشارة ولو صغيرة ، تدل على أن هنالك ما يتحرك ؛ لم تسعفه عيناه ، ولا أذناه اللتان تجولتا طائرتين في الفضاء الممتد من سفوح (ماركا) إلى وادي (المحطة) ، إلى قمتي العاليين (الهاشمي الشمالي) و (الهاشمي الجنوبي) وسفوحهما المتآكلة كأسنان المرحومة أمه في عامها المرِّ الأخير

لا حركة ، ولا صوت سوى صوت الأعلام الخفاقة القادم من كل الجهات

وبين أن يذهب ، صعوداً ، عبر شارع الإستقلال ، أو يتجه إلى قلب

البلد ، وجد نفسه يختار الإتجاه الثاني
قلبُ البلد أحنُّ دائماً ، مثل قلب الأم
ولأن باستطاعته أن يعرف هنالك بوضوح ، ما إذا كانت عجلة الحياة تدور أم لا ؛ خاصة أنه سيمرُّ في (الساحة الهاشمية) ، أي في المحطة الرئيسة التي تربط ثلاثة أرباع أطراف العاصمة ، كعادته يومياً
فوقوع حادث محيِّر ، لا يبرر تغيير المرء لخط سيره المعتاد
أحس بضرورة أن ينتقل إلى الرصيف الأيمن
قطعَ الشارع
قطعه بعد أن تأكد من خلوه تماماً من السيارات
لا أحد يستطيع أن يفهم ، كيف تنشق الأرض ، فتخرج منها سيارة وتحصد روحه
الفتاة الجميلة جداً جداً ، (زميلته) في العمل ، كان يراها تقطع الشارع في الخامسة من بعد ظهر كل يوم ، يراقبها حتى تصل (الجزيرة) وتشق لنفسها طريقاً بين كثافة النباتات العجيبة المزروعة في التراب الأحمر السميك ، وتتوقف هناكِ في المنتصف
حين يكون الفصل شتاءً ، تنهمك في تنظيف حذائها بحافة الجزيرة ، كما لو انها تخشى تلويث (السايد) الثاني وتظل تحكُّه بالحجر الجزيريِّ - نسبة إلى الجزيرة
حتى يظن أن نعليه قد سقطا ، وإذا لم يسقطا ، فإن عمر الحذاء لن يطول
ربما كان من الأفضل لها ، ولزوج مستقبلها ، أن تسكن ، أو يسكنا شرقي مبنى الصحيفة ، كي لا تقوم بما تقوم به كل يوم ، ناهيك عن الرياح الغربية وشدتها
وقد فكر في شخص مناسب لها في البداية ، كما لو انها أخته وحين لم يجد أحداً ، إحتار ، إلى أن تبين له أن كل المواصفات والشروط

تنطبق عليه هو بالذات
المشكلة الوحيدة ، كانت ، في إنتماء الفتاة إلى طبقة عليا جداً جمالياً
بحيث يشملها القول المأثور لأمه
- اللي بتطلّع لفوق إكثير رقبته بتنقصف
لكنه رأى أن زواجه منها على سُنّة الله ورسوله ، سيريحها من وحل الجزيرة شتاءً ، وجنون السيارات وسائقيها طوال العام
وما كان يمكن أن أنسى ميتة صديق عمري الوحيد وزوج أختي (أمريكي)
هكذا ، راح يعدُّ العدة ، ويجمّع خيوط المستقبل ، خيطاً خيطاً على مهل ولم تكن المسألة سهلة ، لذا قرر أن يستعير من الحكومة خطة خمسية
إن اقتضت الضرورة ، من أجل تحقيق هدفه
لكن سببين لا يستهان بهما قطعا حبل أفكاره ؛ كان بإمكانه أن يتغلب على الأول منهما بصعوبة
وهو أن البيت الذي أسكنه مع أمي لم يكن معداً أصلاً لاستقبال هذا المستوى العالي من الجمال
والثاني
أن الفتاة الجميلة جداً جداً ماتت
حين يستعيد المشهد ، يوشك على السقوط من أعالي قامته
أُقسم ، لم تكن هناك أي سيارة في الشارع حين رأيتها تتجه إلى الرصيف الأيمن
لكن السيارة أطلت كانفجار ، ورآها تطير ، رأى الفتاة فتاته ، تطير في الهواء ، رأى ذراعاً ينفصل ويتجه نحوه ، وخلف الذراع كانت تحلق فردة من حذائها الأسود ذي الكعب القصير

لقد كانت طويلة دائماً ، منذ رأيتها
وللحظة أحس بأنه يغفر لها ما فعلته به ذلك اليوم
الآن أستطيع القول ذلك اليوم البعيد في شارع (الجاردنز)
أشبه ما تكون بتلويحة وداع دامية كانت يدها ، وفردة حذائها
التي لم أدرك لـهول الصدمة يومها ، ما الذي تعنيه
كل ذلك الشيء الكثير ، حدث في أقل من رمشة عين

***

يميناً ويساراً ، وجد نفسه ينظر ، قبل أن يعبر الشارع ، ويقف في الجزيرة الضيقة المسودة بالدخان والغبار الكثيف
ولحسن الحظ ، لا طين هنا ولا شجر
يميناً ويساراً ، راح ينظر ، قبل أن يعبر الجانب الآخر للشارع باتجاه الرصيف المقابل
الرصيف الأيمن
وحين وصله سالماً معافى ، تنفس ملء رئتيه ، وتمنى لو كان هذا العبور متاحاً لفتاته
وللحظة ، أحسَّ بأن عليه أن يقطع الشارع مئات المرات ، انتقاماً من الشوارع كلها ، لكنه لم يفعل ، واكتفى بأن يعبره مرة أخرى لا غير
تكريماً لها ، وإحياء لذكراها

مسألة الموت ، مسألة كبيرة بالطبع ، أرقته على الدوام ، وأَحسَّها بنفسه وأمه معه ، يوم مقتله المشهود في ذلك المسلسل
كان الله قد منَّ عليه بمُخْرِجٍ انتشله من بئر المسرح العميقة هكذا فكّر في البداية
بمُخرج معروف
حضر واحدة من المسرحيات التي شارك فيها ، ولحسن الحظ . .

لرضا الله والأم
كان أبوه قد مات منذ زمن ، ولم يكن متأكداً إن كان قد مات وهو راضٍ عنه أم لا
ثم أن رضى الأم شيء آخر
لحسن الحظ ، لم يحضر المخرج تلك المسرحية التي كان يُطْلقُ فيها صرخته المخيفة حضر مسرحية أخرى ، أدى فيها دور شحاد بين مجموعة من الشحادين ، تصطف قبل طلوع الشمس ، وكل منهم يسعى للوصول إلى المكان الأنسب الذي يستطيع أي محسنٍ
حتى لو كان أعمى
أن يراه فيه
تبدأ المسرحية بوصول شحاد نشط ، قبل الجميع ، فيختار مكانه بدقة ، بخبرة شحاد نضجت على مختلف أنواع النيران الهادئة وغير الهادئة إلا أن وصول الشحادين الآخرين يربكه ، إذ يأخذون مواقعهم على الرصيف كما لا يشتهي
واحد على يميني ، واحد على يساري ، ولا أبالغ إن قلت وواحد أمامي وواحد خلفي
ليكتشف في النهاية أنه أصبح في المنتصف وقد كان يظن حين بكَّرَ ، أنه سيكون الأول
ستفرغ جيوب أي محسن كريم قبل الوصول إلي
كان هو ذلك الشحاد
بل الممثل الذي يقوم بدور الشحاد الدقة مطلوبة دائماً ، حتى خارج أوقات الدوام الرسمية
و يبدأ بتغيير مكانه مرة تلو أخرى ، لكنه يجد نفسه في النهاية أقصى يمين المسرح ، وبعد وصول شحادين جدد ، يشاهد وهو يجلس على يسار المسرح ، ثم على يمينه

بعد أربع أو خمس دورات
لا أذكرُ الآن بدقة
يظهر ثانية على يمين المسرح ، خارجاً من خلف الكواليس ، وقد بلغ اليوم أوجَ ظهيرته
كل هذا وأعداد الشحادين تزداد
يبدأ بخلع قميصه ، ويمنحه للشحاد الأول ، بنطاله ، للشحاد الثاني ، قميصه الداخلي الممزق
وتكون يداه قد بدأتا بإنزال ما يستر عورته أقصى يسار المسرح ، في الوقت الذي تستره الكواليس
عندها يدوي التصفيق
الذي كنت أرى أن الجمهور يبالغ فيه إلى حد بعيد
لم يكن إختياره للدّور مصادفة ، فقد كان الأضخم حجماً ، وإذا ما امتدت يد خبيز المكياج إليه ، حتى وإن افتقدت الخبرة ، فإن قليلاً من العبث به ، يحيله إلى شخصية بالغة الإنسحاق ، تتناسب مراراتها مع ارتفاعها وعرضها
طبعا ، لو كنت أعرف ما يمكن أن تحمله المسرحية من غمز ولمز ، لما شاركت فيها أبداً ، لكن ما غرر بي أنها صامتة ، فقلت ما الذي يمكن أن يقوله الصمت ، وهو ليس أكثر من علامة من علامات الرضى المهم ، مرّت بخير
هل يستطيع القول إن هذا هو دور البطولة الوحيد الذي أداه ؟!
الأسد أسد ، حتى لو كان ميتاً ، والبطل أيضاً ، أليس كذلك؟

على هذه السعادة الغامرة نام قليلاً ، قبل أن ينتقل للعمل في المسلسلات
: المسلسلات التي لا يمكن أن تنتهي . لماذا ؟ لأنها مسلسلات .

كان يضحك أحياناً لبعض نكاته التي يطلقها ، لكن بعضها لم يكن يُضحكه أبداً ، فيصيبه اكتئاب حاد ، لا يقل عن المغص الكلوي ، إلى أن يهتدي لنكتة جديدة من ابتكاره

يمكن أن يمرَّ أحياناً أكثر من شهر

إلا أنه لاحظ أن أطول مدة تهجره فيها النكتة الأصيلة الجديدة ، ثلاثة أشهر

سيغدو الأمر كارثة ، كارثة حقيقية ، إن لم تجد شيئاً يجعلك تضحك كل ثلاثة أشهر

لكنه في إحدى المرات ضحك بعد شهر ونصف الشهر تقريباً ، حين اكتشف أن نكتته فصليّة ، مثل كثير من المجلات التي يهاجمها بعض كتاب الزوايا ، فيقتنع بهجومهم ، ويدافع عنها بعضهم فيقتنع بدفاعهم

المريح في مسألة المجـــلات أكثر ، تدقيق خبر صدورها ، بحيث لا تكون مضطراً لتحديد موقف واضح ـ بينك وبين نفسك ـ أي الفريقين على صواب

أيامها لم يكن يجرؤ على تحديد ما يعنيه بكلمة (المجلات) ، فلم يكن وصول الديمقراطية قد حان ، كما أن خبرته الطويلة كانت تشير بوضوح ولأكثر من سبب بالطبع ، إلى أن ذلك يعني

تدخلاً في السياسة

لن نطيل

فالمجلات المقصودة

أولاً وأخيراً

هي مجلات وزارة الثقافة

كان ذلك فصل

النظر إلى الأعلى برقبة مقصوفة

ويليه فصل

العودة إلى الماضي الجميل الزاخر بذكريات أجمل

يعترف الآن ، أن ماضيه العلمي راسخ ، منذ ذلك التفوق الكبير والمبكر الذي حققه في اللغة العربية ، وخاصة دروس القواعد ، لكن ما كان يؤرقه فعلا ، حتى بعد أن اطمأن لوضعه الثابت كأساسات صحيفته ، تلك الأمور المتعلقة بماضيه الفني ، بعد سلسلة من الإعلانات المتتالية التي بثها التلفزيون ، وأعلن فيها عن نيته في إعادة بث مسلسلات قديمة لم يُسمِّها وفي كل مرة كان ينتظر

على أحر من الجمر

فيفاجئه التلفزيون بعرض مسلسل آخر

في البداية كان خوفه أكبر ، فقد كان يخشى أن تراه الفتاة الجميلة جداً جدا ، صريعاً على الشاشة الصغيرة ، فينتهي كل شيء يمكن أن يكون بينهما وحينما رحلت ، لم يعد مهتماً ، بعد أن داهمته موجة يأس

لكنني مدفوعاً بقوة الأمل ، عدت ثانية إلى نفسى ، ورأيت في خوفي الدائم من عرضِ المسلسل الذي شاركت فيه ، نوعا من الوفاء للفتاة الجميلة جداً جداً ، خاصة ، بعد أن أدركت أن الناس لا يتذكرون

القتلى

لكن خوفه من قيام ادارة الصحيفة بطرده ، ظل قائما

حتى بعد أن أثبتُّ كفاءة والتزاماً لا يضاهيني فيهما أحد

كما أنه كان على يقين من أنهم لم ينسوا تماما تفاصيل المقابلة الحاسمة التي تقرر فيها مصيره ، وكل تلك الأسئلة عن ماضيه العملي ، وبهذا ، فإن صفحة تعيينه إن (دُقِّقَتْ) ثانية ، فلن يبقى مدققاً ؛ لذا راح يدققها بنفسه بين فترة وأخرى ومعها صفحات ماضيه أيضاً

إنه ماض زاخر ، مليء بالذكريات القابعة وحيدة في الصدر ههنا

فليس ثمة فتاة واحدة يمكن أن يبوح لها بها

هل يستطيع أحد أن يتصور ما يعنيه ذلك ؟!!

وفي موجة يأس حادة ، أحس أنه عكس هذا أنه خاو تماما وأجرد

ما الذي يمكن أن تقوله لفتاة جميلة جداً جداً يمكن أن تتعرف عليها ، كيف يمكنك أن تؤنس جمالها

أعجبته عبارته الأخيرة

صحيح أن فرصة عظيمة كهذه لم تتحقق ، لأكثر من سبب

لا حاجة لذكرها الآن

إلا أن إحساسه الطارئ بأنه مفرغ من الداخل ككرة قدم

أنا أعني ذلك بدقة

جعله يفرمل في أكثر من موقف ، هو الذي طالما امتلك قدرة عجيبة على التقدم ، بل والطيران باتجاه هدفه ، لكنه ما أن يصل إلى مبتغاه حتى ينعطف انعطافة حادة

ورشيقة بالتأكيد ، مثل عقبان الطيران الإستعراضي

خبرة كهذه لم ينلها بين يوم وليلة

الآن ، قطعت شوطاً بعيداً في البحر الهادىء لسن الرشد ، بحيث يمكنني استعادة كل شيء بهدوء

***

بعد القرار الخطير الذي اتخذه بهجر المسرح والإنتقال للعمل في المسلسلات

تغير كل شيء

لكنه كان على يقين من أن باب المسرح سيظل مفتوحاً له باستمرار

بعد النجاح الكبير الذي حققته المسرحية الأخيرة ، من خلال تواصل عروضها أسبوعاً كاملاً ، باستثناء الجمعة

وقَّعَ عقد العمل الأول مع المخرج التلفزيوني ، وكان فَرِحَاً

أن تكون نجما تلفزيونيا ، فإن الأبواب كلها ستُفتح لك

لكن قرار الإنتقال للتلفزيون لم يكن سهلا

على ما فيه من اغراءات

حيث كان على يقين من أنه وضع قدمه في المكان الصحيح ، ما أن لامست هذه القدم خشبة المسرح ، بعد أن لفت انتباه أحد المخرجين المسرحيين ، حين جاء لإلقاء محاضرة بدعوة من اللجنة الثقافية لطلبة الكلية

صحيح أنني لم أكن قد أعددت النفس ، لكي أكون ممثلا مسرحياً لكنني أثبتُّ قدرة فائقة ، دفعت مخرجاً تلفزيونيا للقيام باختطافي

المسلسل هو الأضخم في تاريخ التلفزيون أفهمه المخرج ونجاحه سيكون مدوياً

وسأله إن كان يذكر نجاح (هاواي 5) ، (كوجاك) (بيتون بليس)

فأجبت ، أذكرُ أذكر

وسأله ، إن كان يذكر النجاحَ الكاسحَ لمسلسل (دالاس)

فأجبته ، أذكرُ أذكر

ولكي يكون مطمئناً أكثر ، سألَ المخرجَ

: كالنجاح الذي حققه فيلم (أبي فوق الشجرة) يعني ؟

عندها قفز المخرج وقال له لقد وجدتَها ، مثل الفيلم وأكثر
وافق
لكنه قبل أن ينام تلك الليلة فكَّرَ
لا يمكن أن يكون هناك نجاح ، أكبر من نجاح (أبي فوق الشجرة) ، الأغاني أغاني ! ، نادية لطفي نادية لطفي ! ، وميرفت أمين ميرفت أمين !
أما القبلات
لا ، هذه مسألة أخرى !
بالنسبة إليه ، ينقسم تاريخ السينما إلى قسمين ما قبل أبي فوق الشجرة ، وما بعد أبي فوق الشجرة وقد ظل هذا الإعتقاد راسخاً ، إلى أن أطل على الدنيا العربية فيلم (خلي بالك من زوزو)
حيثما توجهت ، حيثما التفتٍّ ، وفي الهواء أيضاً ، خلي بالك من زوزو
إلا أنه لم يكن من ذلك الصنف الذي يغير رأيه بين يوم وليْلة
أو بين فيلم وفيلم فحين أقول (أبي فوق الشجرة) ، يعني (أبي فوق الشجرة)
فقد كان حبه لنادية لطفي وميرفت أمين ، مجتمعتين ، يفوق كثيراً حبه لسعاد حسني منفردة ، قبل أن يتخلى عنهما لأسباب لا يمكن وصفها بأقل من قاهرة . لكنه أيامها ، حاول أن يضع نفسه مكان عبد الحليم ، وأن يختار واحدة منهما في النهاية ، فلم يستطع . وهكذا ، ظلت نهاية الفيلم مفتوحة بالنسبة إليه شخصياً
الثنتين بنحبوا
في عتمة الصالة تنطلق الحناجر
واحد
إثنين

ثلاثة

أربعة

خمسين

بدقة كان الجمهور يحصي عدد القبل بين نادية لطفي وعبد الحليم

أحياناً كان يحدث اختلاف على قبلة ما فيتخربط العَد

عندها ، يعود الجمهور إلى الصالة ثانية ، ليبدأ من جديد

أيـــــام !!!

هو شخصياً مع عماد حمدي ،كان ، ويدعم موقفه بصورة من الصور

ليس من حق الأبناء أن يحرموا آباءهم من أن يتمتعوا بالأشياء التي تمتعوا هم بها هذا عقوق !!!

هو شخصياً ، اكتفى بالرقم الممتلىء إيحاء

تسع وتسعين قبلة

هذا الكرم ، لا تستطيع أن تراه اليوم في ثلاثين فيلماً إنه يدرك ذلك ، ويشعر به ـ رغم تغير الزمان الذي مرَّ عليه وغيَّرَه ـ

قليلاً !!

يشعر ، أن معه كامل الحق في أن يواصل إصراره على أن ذلك الفيلم هو الأساس الذي وضعته السينما العربية لذاتها ، إلاّ أنها ، وبدل أن تبني فوقه كأساس متين ، بَنَتْ بعيداً عنه

وهكذا ظلت تتراجع ، إلى أن أقبلت على الدنيا بقوة نادية الجندي ، فأصبح بإمكان المرء أن يذهب إلى السينما ، ويرى شيئاً ما على الأقل!

بعد إلحاح ، لا يمكن أن يوصف ، إلا بأنه كبير ، مارسه صديق عمره الوحيد (أمريكي)

مدعوم بقوة من محلات بيع الأشرطة ، التي لم تكن تتوقف أبداً عن نشر أغنياتّ الفيلم

ذهب لمشاهدة (خلي بالك من زوزو)

لم يشهد شارع سينما (بسمان) في تاريخه ازدحاماً مثل ذلك الإزدحام الذي شهده أثناء عرض الفيلم في سينما (رغدان) ، إلاّ يوم غنى المرحوم فريد الأطرش في السينما الأولى أغنيته (آدي الربيع عاد من تاني)

ويمكنكم هنا بالطبع ، أن تلاحظوا ، ان ازدهار هذا الشارع محكوم بانتشار الربيع ، حيث لم تدب الحياة فية بشكل لائق ، إلا بعد سنوات وسنوات ، حين غنت سعاد حسني أغنيتها ـ التي لا يمكن أن يقال فيها ، إلا أنها جميلة ـ وأعني هنا (الدنيا ربيع)

الشيء الوحيد الذي كان يحيره لماذا أطلقوا على الشارع إسم (شارع بسمان) ، مع أن سينما بسمان في منتصفه ، وسينما (رغدان) في أوله وليس ثمة ضرورة كي يقول ، إن الإسمين على نفس المستوى

أيـــام !!!

تعجب ثانية

بل خامسة

من تلك السرعة التي يستعيد فيها الإنسان الماضي

لم يكن قد قطع أكثر من ثلاثمائة خطوة

كانت (طلعة جبل التاج) تواصل صعودها دون كلل نحو قمة الجبل

طلعة حقيقية ، تعرف ما تريد تماما ، وتصر عليه

ذات يوم تمنى أن يكون مثلها ، ولزمن ، أصبحت مثاله الأعلى

لكن الأمر تغير ، حين أبصرها خالية من العربات والمارة ، وتراءت له نَزْلةً فقط .

لا طلعة

نزلة

طلعة نزلة

ألا يمكن أن تكون نزلة وطلعة في الوقت نفسه ؟!

يمكن ، لكنها الآن

وبخ ذاته حين اكتشف أنها مشغولة بأمر هامشي كهذا ، متناسية المشكلة الكبرى التي لا يعرف كيفية الخروج منها . وهي ذات شقين

عام وخاص

في المحن ، تظهر وتتضح معادن الرجال وبين أن يقرر فيما إذا كان عليه أن يواصل الطريق إلى عمله ، رغم كل العوائق ، وبين أن يتأكد مما حدث لسكان العاصمة ـ عمّان ـ

قررت أن أقوم بالأمرين معاً

الخاص والعام لا ينفصلان ، هذه القاعدة يعرفها تماماً ، فقد قام بتدقيق عشرات المقالات النقدية ، التي تؤكد هذا التلاحم مقالات عن الشّعر ، مقالات عن القصة ، مقالات عن الرواية وأبطالها ، وعن السينما طبعاً صحيح أن اهتمامه بدأ يتلاشى بالسينما العربية تدريجياً ، بعد فيلمه الأثير ، وأن الأمل تبرعم في قلبه ، حينما اعتبر ـ مجاملةً ـ (خلي بالك من زوزو)

محاولة لا بأس بها

لكن الأمر كله لم يسفر عن وردة من تلك التي أشارت إليها سعاد حسني

وهي تعدد مناقب الربيع

لوهلة ، أحس ، أن الوصول إلى مبنى الصحيفة ، أسهل مئة مرة من العثور على سكان مدينة ، لكنه فكّر

إذا ما وجدتهم سيغدو وصولي إلى عملي سهلا بالتأكيد
بدأ البحث عنهم
أين يمكن أن يختفي مليون ونصف مليون مواطن ووافد ؟
راحت عيناه تبحثان عن حركة ما ، ظل ما ، إشارة ما ؛ ووبخ نفسه لأنه لم يلحظ أن أبواب المحلات كلها مشرعة ، وشبابيك البيوت كلها مشرعة ، ومنها تطل الأعلام أيضا
كما لو ان سكان العاصمة كانوا يستقبلون أحدا ما ، مهما ، وفي رمشة عين إختفوا وظلت راياتهم تخفق
اقترب من بوابة أحد محلات بيع قطع السيارات ، حدق عبر الباب
لا أحد
توقف أمام بعض الكراجات ، مضى باتجاه وكالات سيارات (سوزوكي ، رينو ، بيجو) ، كانت مشرعة ، وملصقات الدعاية تدعوه بوضوح لإختيار السيارة التي تناسبه
لا أثر لكسر في الأقفال أو خلع للأبواب ، ولا تطاير في الزجاج
ثمة شيء كبير قد حدث ، ولم أسمع به كيف ؟!
تدقيق الأخبار ، قبل نشرها بالطبع ، كان يشعره دائماً أنه قبل الحدث
مثل إذاعة مونتي كارلو !
وحاول أن يضحك
الخبر لا يصبح خبراً قبل أن ينشر
وبطريقة أو بأخرى ، كان يحس بأنه يعرف الغيب
أستغفر الله ، ليس تماماً
المذياع ماض ، التلفزيون ماضٍ ـ هو يقول ذلك ـ إلاّ في حالات البث المباشر ، فهما حاضر
لكن زميله أكد له ، ان البث المباشر ليس مباشراً كما يبدو للناس ،

لأنهم يسجلون عشر دقائق أو أكثر ، يراقبونها ، ثم يذيعونها وقال لـه لا يستطيع أحد أن يأمن جانب المواطن

جملة كهذه ، جعلتني لا آمن جانبه

فاقتصر الحديث بينهما فيما بعد على المسائل المهنية البحتة خبر ليس ، إسم كـان ، الحـال ، وفي أفـضل الحـالات ، الضـمـائر المنفـصلة والمتصلة وشـبه الجملة أما في أوقات الفراغ فكانت تاء التأنيث فاكهة علومهما اللغوية

طبعاً ، من المستحيل المقارنة بيننا !

استجمع شجاعته وقـرر أن يعبر عتـبة أول مـحل يصادفه بعد وكالة (بيجو) ، لكنه لم يفعل ، فقد كانت الإشارة المثبتة على زجاج الواجهة واضحة (ممنوع الدخول لمن ليس له عمل)

وفكر طويلا بالدخول أمام محل آخر ، لم يجرؤ ، تراجع ، كما لـو ان العاصمة نائمة ولا يريد إيقاظها

ثم من يعرف ، فقد يحملونني مسؤولية اختفاء شيء ، أي شيء بعد ذلك

فكر أن يبتعد إلى (الرصيف الأيسر) ، لكن فردة حذاء الفتاة الجميلة جدا جداً ، حلقت ثانية في الهواء

ثم أنه لا يحق للإنسان التخلي عن الطريق الذي اختاره ، حتى لو كان رصيفاً

كان ذلك فصل

العودة إلى الماضي الجميل الزاخر بذكريات أجمل

ويليه فصل

العودة إلى اكتشاف حكمته الخاصة

ومحاولة إنقاذ الفتاة الجميلة جدا جدا بالزواج منها .

ما دمت قد ابتدأت ، عليك أن تستمر

هكذا كان الأمر واضحاً

ولم يكن يتجاهل تلك الحوادث ، الشبيهة بالقدر ، التي تحوّل مسيرة الإنسان أحياناً إلا أنه كان يرى فيها جزءاً من خياراته ، حتى لو كانت اخفاقاته

لماذا ؟! لأنها اخفاقاته ببساطة ، والإخفاق خيار ، ما دمتَ تُقْدِمُ على أمر ما دون أن تكون واثقاً من النجاح

لا يذكر الآن إسم صاحب هذا الكلام ؛ لكنه شبه متأكد من أنه لفيلسوف محلي

الشعراء ، نادراً ما يتوغلون إلى هذا العمق في القضايا الكبرى ـ على المستوى النظري بالطبع ـ وكذلك كتاب القصة القصيرة من الجنسين ،

وحين يقول من الجنسين ، يعني ذلك

الدقة والعدالة والنزاهة لا بدٌ منها :

عندما (يدقق) يدقق فعلا
لا فرق بين ذكر وانثى
ولكي يبقى مطمئناً لنزاهته ، ومحافظاً عليها ، فإنه منذ البداية امتنع عن قراءة جرائد (الجمعة) ـ اليوم المخصص للملاحق الثقافية ـ بعد أن علم أنها تقوم بنشر صور الأديبات بين حين وآخر
هكذا ، راح يرسم صورة لكل أديب وأديبة ، من خلال الإبداع الذي بين يديه ، منشغلاً عن رسم الصورة التي يمكن أن يكون عليها أبطال هذه القصص
حدث هذا بعد أن تمكّنتُ من المهنة ، وأصبح بإمكاني أن أرى إلى فضاءاتها ـ كما قال أحد الشعراء في حوار معه ـ

***

لن أقطع الشارع
فوجيء بالصرامة القاطعة التي اتخذ فيها قراره ، والسرعة القياسية التي لم يسجلها في أي يوم من الأيام
كانت أقرب ما تكون إلى رقم أولمبي جديد
لكن فرحته طارت بذلك التغيُّر الجوهري
لأن هذا القرار قديم ، قديم جداً
وقد اتخذه على مراحل ، ولم يتنازل عنه ، حتى في أكثر الظروف حساسية ، ومصيرية
يوم (الجاردنز) ، خير مثال
قبل أن يحاول اقتناص موعد ، بعيداً عن مبنى الجريدة
مع الفتاة الجميلة جداً جداً
وقبل أن يفكر في ردود الفعل التي يمكن أن تصدر عن رئيس التحرير أو مدير التحرير ، أو سكرتير التحرير ، نزولاً إلى زميله الذي قال له : لا يستطيع أحد أن يأمن جانب المواطن

إذا ما علموا بما أخطط له

وقبل أن يفكر في ردٍّ فعلها قرر أن يحدد المكان المناسب ، لهذا اللقاء الذي لا يمكن أن يقال فيه سوى

انه لقاء تاريخي

شبه متأكد كان ، من أنها تدرك حجم خوفه عليها حيث لم يكن يصعد حافلته المتجهة شرقاً ، قبل أن يراها تعبر الشارع بأمان ، وتستوي منتصبة بكامل سحرها على الرصيف المقابل ، لتأخذ بعد ذلك مقعدها بهدوء في الحافلة

واثقة من أنها قادرة على أن تملأه ، كما تملأ ثيابها

كان يمكن أن تمر ثلاث أو أربع حافلات أمامه ، دون أن يستقل واحدة منها

لماذا ؟! أي فتاة جميلة أو غير جميلة ، كانت ستفهم الأمر

لكنه لم يعبر الشارع خلفها أبداً ، ولذلك أكثر من سبب

كل شيء له أكثر من سبب

لقد كان يغيظه أن يُسألَ دائماً ما السبب ؟!! أو شو السبب؟ أو إيش السبب ؟

هذا أسذج سؤال يوجَّه إلى شخص نريد منه إجابة صحيحة

وهو على يقين من أن هذه الحكمة من بنات أفكاره

ولن يثبت العكس

فهي خبرة العمر كله

بعد تسع وأربعين سنة يقضيها المرء في هذا العالم ، من المحزن حقاً ألا يكون قد توصل إلى حكمة خاصة به

ومنذ زمن طويل بدأ ينظر بارتياب لا يخفى ، لكل أولئك الذين يجيبون على الأسئلة المتعلقة بحكمة حياتهم

: أحدهم يقول (إتق شر من أحسنت إليه) وآخر يقول (إعمل خير

وارم في البحر) ، وثالث يقول (وما نيل المطالب بالتمني) ، ورابع يقول (الباب اللي بجيك منه الريح ، سدَّه واستريح) ، وخامس يقول (من طلب أخاً بلا عيب بقي بلا أخ)

ولم يكن يعجبه هذا ، خاصة ، وان بعض هؤلاء تجاوز الستين

ولا أبالغ إذا قلت وبعضهم تجاوز السبعين

مرة قرأ لشاعر جملة بهذا الخصوص ، يقول فيها حكمتي ان هذا الفتى دون حكمة

تفهمتُ الأمر ربما كان ذلك نوعا من التواضع ، إلا انه غير مُستحب ، مثل أبغض الحلال عند الله

كل تلك الأسباب مجتمعة ، دفعته للبحث عن حكمته الخاصة

(دائماً هنالك أكثر من سبب)

ولذلك ، كان يرى أننا حين نطلب من شخص ما أن يحدد سبباً لفعلته أو فعله ، فإننا نطلب منه في الحقيقة أن يكذب

***

حين يقول ، إنه لم يعبر الشارع خلفها لأكثر من سبب ، يعني تماماً ما يقول

أولاً ، هي تعرف أنه يسكن في الجهة المقابلة من المدينة

ثانياً ، هو يخشى عليها من السيارات ، وربما يربكها عبوره الشارع خلْفها ، فتكون النتائج قاتلة

لا سمح اللـه !!

ثالثاً ، نصف نوافذ الصحيفة مطلة على الشارع ، وذلك يعني القيل والقال

رابعاً ، إذا ما اضطر شخصياً لأن يعبر شارعاً في يوم ما ، فإنه يتعثر بنفسه ، ويعلن الشهادتين قبل العبور وبعده ؛ فما بالك إذا كانت تسير أمامه ؟!

سأنتبه للسيارات أم أنتبه إليها ، ما دمت أحبها كل هذا الحب!!!
ـ ها قد اعترف ـ
خامساً ، إن عادة مطاردة البنات ، انتهت بالنسبة إليه ، ولن يعود إليها أبداً
ولذلك بالطبع أكثر من سبب
سيحددها في الوقت المناسب
سادساً ، وهذا هو الأصعب ، ان عمره يلزمه بوقار من نوع ما
طبعاً ، يمكن ذكْر أسباب أخرى ، لكن ما سبق يكفي
لن نطيل
تردد في الإقدام على طلب موعد ، إلا أن أسبابا كثيرة كانت تفتح شهية الجرأة لديه ؛ منها ، ما يتعلق بها شخصياً ، ومنها ، ما يتعلق بالوضع العام حولها
جميلة جداً جداً ، في الثالثة والثلاثين ، عزباء بعينين حزينتين
زملاء متزوجون في الأغلب الأعم ، وغير المتزوجين مجرد شباب يلزمهم الكثير من الوقت كي يصل الواحد منهم إلى حكمته ، لطيفة معه ، رغم أنه لم يكلمها مباشرة ، حتى وهو يفتعل صعوبة قراءة كلمة ما ، كتبها زميل في الطابق الثاني من المبنى ، ليصعد إليه مارًّاً بها
ثم أنها آلف من حمام مكة
باختصار ، الطريق إليها سالكة بعكس الأوتستراد

***

رسم خط السير الذي عليه أن يسلكه بدقة ، قبل تحديد الموعد
زار المكان
تمشى فيه إلى درجة تمكنه من الوصول إليها ـ حين تأتي ـ مغمض العينين
: منتصف شارع الجاردنز هو الموقع الأنسب ، قرب خيمة السيرك

بعض الحسابات التي أجراها بعد عودته مطمئناً إلى البيت ، القت بظلال الشك على قراره فهو لا يعرف مواعيد حفلات السيرك ، وغير متأكد ، ما إذا كان بعض الزملاء من زبائن الفيلة والنمور المسكينة أم لا ثم ان الأرض مكشوفة هناك ، ويمكن أن يراهما أحد المعارف بسهولة

عاد مساء اليوم التالي ، بعد انتهاء دوامه وتأمل المكان من جديد وهكذا ، دفع موقع اللقاء نحو الغرب قليلا ولحسن الحظ ، فإن الشمس لم تكن قد غربت تماماً ، فأثبتت عيناه أنهما موضع فخر حقيقي

مثل عيني زرقاء اليمامة

حين أبصرتا ، ومن زاوية ثمانين درجة إسم (غاليري الفينيق) فقد كان يعرف ـ بحكم عمله ـ أن (الفينيق) في (الجاردنز) ، لكنه لم يكن يعرف موقعه تماماً

وهكذا

دفع موقع اللقاء نحو الغرب مرة أخرى

لا أحد يخيف كالمثقفين

وهو يرتعد أحياناً أمام هيبة لغات بعضهم حين يدققها

صحيح أنني وصلت إلى حكمتي الخاصة ، لكنني ، أرتبك أحياناً عند محاولتي معرفة المقصود من كلامهم

بالطبع ، لا يُحب أن يورد أمثلة في هذا المجال ؛ نعم ، المقالات تُنشر ، أي أنها ليست من الأسرار التي يمكن أن يبوح بها الإنسان ، ويتعرض للعقاب ، إلا أن تحديده لبعض الجُمَل كأمثلة ، قد يفهم على انه تفريط بسرية المهنة ، وتعريض بأصحاب تلك المقالات

مثلاً ، لا أستطيع أن أذكر أسماء أولئك الذين تتعبني أخطاؤهم اللغوية والإملائية ، حتى لوكانوا من كُتَّاب بريد القراء

وهو يعرف ، حتى قبل أن يدقق ان لغة الإنسان هي الإنسان نفسه ، لأنها أسلوبه ، وأسلوبه يعني شكله ، وشكله يعني أنه يدرك الأشكال

المحيطة به ، وإدراكه للأشكال المحيطة به محاولة لإدراك جوهر هذه الأشياء ، ومن خلال الشكل يمكن أن نحدد ما إذا كان الجوهر مزيفاً أم حقيقياً

هذه المعادلة الطويلة ، شغلته ، وفهمها بعد زمن بصورة أفضل ، حين قرأها ، لكنه مستعد أن يفندها أيضاً ، أو يفند بعض جوانبها على الأقل

الشكل يمكن أن يكون مجرد وهم لشكل أصيل السراب مثال مقنع

لن نطيل

كان من الصعب أن يكون الموعد قرب الجامع ، فدفعه باتجاه (مطاعم جبري) ، لكنه حين وصل به إلى هناك ، لم يتوقف - لأكثر من سبب

أولها ذلك الإزدحام أمامه

وأظن نتائج أمر كهذا مفهومة

في نهاية شارع الجاردنز وجد نفسه

لم يعد لدي قوة لأبتعد أكثر من ذلك ؛ ولا أريد أن أقول (لأكثر من سبب) فأظن أن حكمتي باتت واضحة وحين أصل فيما بعد إلى نتيجة ما ، فإن خلْفها دائماً أكثر من سبب ، وكمثال أخير أقول أولاً ، نهاية الجاردنز مكان معقول إذا ما ذكرتُه لها ، فهي لن تفهم من دعوتي أمراً مشيناً ، فهذا أكبر شارع ، وفي اختياري له نوع من التكريم لشخصها بحيث يمكن أن تدرك مقدار معزّتي لها . وثانياً ثمة شارع يتجه للشمال ، وينتهي بحديقة أطفال يمكن استغلالها ، وإن كنت غير واثق من أنني سأستطيع استغلال براءتهم ، والظهور بمظهر الزوج أو الخطيب - ولي في ذلك تجربة تُروى ! - وثالثاً

يكفي !!
اختار يوما مشمساً
متسللاً من بين غيمتين
لا توحيان بالمطر

كان ذلك فصل
العودة إلى اكتشاف حكمته الخاصة
ومحاولة إنقاذ الفتاة الجميلة جدًا جدًا بالزواج منها
ويليه فصل
العودة إلى الموعد الغرامي

أدرك أخيراً أن القدر حَـمَّلَهُ ما لا يستطيع تحمُّله بسهولة ، ووضع في عنقه مسؤولية العثور على مليون ونصف المليون من المواطنين الذين اختفوا فجأة ، وتركوه هائماً في برية غيابهم

أعرف أن الله لا يُكَلِّفُ نَفْسَاً إلاّ وسْعها ؛ لكن مهمةً على هذا المستوى لا يستطيع أن يقوم بها إنسان بمفرده

هل ما يحدث يحدث فعلاً ؟ أم حدث وانتهى ؟ هل لهذا اللغز حلٌّ؟ انقضَّتْ عليه الأسئلةُ قاضمةً أطرافَ روحه قوافلَ نمل أسود وحشي

ثم ، ماذا لو كان الأمر كلّه فقرةً من برنامج الكاميرا الخفية ؟ مثلا!!

هو أيضاً ، يدرك بشكل أو بآخر أن المواطن لا يؤمن جانبه ؛ صحيح انه لا يلتقي مع زميله المدقق تماماً ـ فكل يغني على ليلاه ـ

إلا أن الناس تضحك كثيراً ، حين ترى أحد المعثرين في ورطة حاكها له أحد هذه البرامج

وهو يذكر الآن تماماً ، تلك الكارثة ـ غير الطبيعية ـ التي ألمت به في

شارع الجاردنز ، حين قرر أن يكون هذا الشارع ـ بما يحمله اسمه من معنى ـ المكان الذي ستتفتَّح فيه زهرةُ حبه الخالدة

ما الذي فعلته ليحدث معي ما حدث آه ما الذي فعلته؟

طويلاً فَكَّرَ في المدخل الذي يمكن أن يمر عبره ليحدد الموعد الغرامي موعد حياته الكبير ، لكنه لم يصل إلى نتيجة تناسبه ، ولا نقول ترضيه المطمئن في الأمر ، أنه توصل إلى نصف الحل ، حين نجح في اختيار الموقع المناسب ، ولم يبق عليه سوى الإقدام على اتخاذ الخطوة التالية

في خضم أرقه ، وفي لحظة كان فيها غائباً عن كل ما حوله ، محدقاً في شاشة التلفزيون بعينين فارغتين ، لكزته أمه

ـ لإمتى راح تظل على هالحال ، مش عارف تتفرج على التلفزيون قوم نام

وبلكزتها تلك ، قدمت له خدمة ما كان يظن أُماً تقدمها لابنها

أرجو ألا يفهم هذا ، على أنه تشكيك في دور الأم وقلبها ـ الزهرة التي لا تذبل

لقد أعادته تلك الحركة البسيطة الحريصة ، إلى ما يدور حوله ، فرأى ما كان يجري أمامه ولا يراه

السينما هي الحل

لقد قرر الإستغناء عن لسانه الذي ينعقد ما أن يراها مُقبلة أو مُدْبِرَةً !

فتاته ، فتاته الجميلة جداً جداً

اقترب البطل الوسيم من البطلة الجميلة

لا أستطيع القول الجميلة جداً لا

وناولها مجموعة من أوراق ، وبدل أن يستدير عائداً من حيث أتى ،

ظلَّ واقفاً

هذا لا يحدث معي

وكان باسماً إلى درجة الإطمئنان

أمامها لا أستطيع إلا أن أرتجف وأفقد لوني

رفعتْ الفتاةُ الجميلة رأسها ، ونظرت إليه بعينين لامعتين وابتسامة متفلتة مشاغبة

أُوكي ، أين سنتعشى

عندها ، صرخ صرخته التي طالما تمنى أن يصرخها ، وهب زاحفاً نحو يدي أمه ، يقبلهما

وجدتها

طبعاً ، بالنسبة لأُمه ، لم يكن الأمر يعني سوى شيء واحد

ان حالتي تسوء

وحين رأت تدفق الدم إلى خديه صبيحة اليوم التالي ، إنقبض قلبها أكثر ، فهي التي خبرت ميتات وميتات ، ليس أولها ميتة والده ، تدرك سرَّ التفتح في لحظات ما قبل الرحيل

لكنني في ذلك اليوم كنت عصياً على الموت

كممثل شبه مخضرم ، عايش زمن المسرح ، وشهد بزوغ زمن التلفزيون ، لم يكن صعباً عليه أن يؤدي الدور ، أو يعيد تمثيله وللمصادفة الرائعة

كان دوراً صامتاً

هو الذي لا يكره شيئا مثلما يكره الكلام ، بعد أن سمع عن كثيرين جرتهم ألسنتهم إلى (بيوت خالاتهم)

صحيح أنه لم يكن يملك بدلة أنيقة مثل بدلة البطل في الفيلم ، إلا أن لديه من الملابس ما يليق به حين يلعب دوراً مهماً في الحياة .

المشكلة التي واجهته ذلك الصباح أمام المرآة ، هي تلك المتعلقة بلون الملابس الملائمة لربطة العنق الوحيدة التي يملكها

ثمة مشاكل كبيرة تصادفنا أحياناً ، ولكن ، ليس من الصعب تجاوزها

الألوان الكثيرة المتناثرة على سطح ربطة العنق ، اختصرتْ ثلاثةَ أرباع المشكلة ، بعد قليل من التفكير

إختار الجاكيت الكحلي ، البنطال الرمادي ، القميص الأخضر

وهكذا كان يمكن لربطة العنق أن تثبت حضورها الذي لا يقاوم وسط ذلك كلِّه ، بألوانها الزرقاء والحمراء والسوداء والرمادية

وذلك العمق الخفي الذي يفترشُ أرضيتها ، والمتمثل في

اللون البرتقالي ، أو البني الخفيف ، والله أعلم

حين دخل عليها المكتب ، كانت منشغلة تماماً فاجأها حضوره منتصباً أمامها ، إلى درجة أفزعتها ، رغم تنحنحه مرتين متتاليتين كي يلفت انتباهها

إعتذرتْ فوراً

- لم أعرفكَ !

وفي محاولة منها لتجاوز خيبة الأمل التي ارتسمت على وجهه ابتسمتْ

ـ بَشِّرْنا ، شايفتك لابس إللي على الْحَبِل ؟

فلم يجد ما يرد به ، سوى هزة خفيفة من رأسه ، دون أن تفارق عيناه (الموكيت) العسلي تحت قدميه

والممتد بعذوبة ساحرة تحت قدميها !

ولأكثر من سبب ، مدَّ يده المستغيثة إليها

: كنتُ أغـرق

فامتدت يدها النحيلة البيضاء بأصابعها الطويلة الرشيقة ، وتناولت الورقات التي في يده ، لكنها ، وبدل أن تنظر إليها ، وضعتها جانباً ، وعادت إلى انهماكها فيما أمامها من أوراق ، مما مكّنه من أن يعيد قراءة ما كتبه لها بشكل معكوس ، ويطمئن للمرة الأخيرة انه اختار الكلمات المناسبة

ورفعت عينيها ثانية !!

تسأله ، إن كان يريد شيئاً آخر ، فأشار إلى الأوراق

قالت إطمئن

لكنه ظلّ يشير إلى الأوراق ، أبكم ، كما لو ان الممثل الذي أمامه قد خرج عن النص

عندها انتبهت

تناولت الأوراق ، راحت تقرأ جملته المفيدة المختصرة ، أرجعت كرسيها ذا العجلات إلى الوراء ، بدفعة رقيقة من قدميها ، كما فعلت بطلة الفيلم تماماً

فأستبشرتُ خيراً

ثم رفعتْ عينيها اللامعتين ، فرأى بوضوح ابتسامتها المتفلتة بشغب على طرفي شفتيها ، تماماً كالبطلة ، فهمس

الدنيا سينما

وقالت أُوكي ، السبت مليح ؟

هزَّ رأسه راسماً علامة (لا) في فضاء الغرفة

الأحد ؟

أعاد الحركة نفسها

الإثنين إذن

هزَّ رأسه موافقاً ، فهو يوم إجازته وبهذا لا يكون مضطراً للتغيب عن العمل

أُوكي ، الإثنين ، راح آخذ إجازة

أشرق وجهه ، وفَرِحَ بفطنته التي أهلته لأن يصل إلى تحديد كل شيء في الورقة ، دون أنْ يكون مضطراً لأن ينطق حرفاً واحداً

الزمان والمكان ، أو الزمكان ، كما يطيب لبعض الأدباء أن يخلطوهما

متخففاً من ربطة العنق ، ومحرجاً إلى حد ما بباقة الورد التي ابتاعها من أقرب محل لبيع الورود ، توجَّهَ إلى مكان موعده ، وانتظر

العاشرة صباحا ، وهدوء (الإثنين) النسبي ، يتيح له فرصة رسم الكثير من الخطط لبدء الكلام

كان يجب أن أبتعد عن السبت ، وكذلك الخميس ،لأكثر من سبب

فهو يدرك أن حركة المرور يوم السبت تكون في أوجها ، مما يجعل الوصول إلى المكان قبل الموعد بنصف ساعة على الأقل مشكلة

لا يُعْقَل أن تسمح بأن تسبقك فتاة إلى موعد أنت حددته ، أو حتى لم تحدده

ثم أن المشكلة التي وضعتْها أمامه وزارةُ التربية والتعليم

دون قصد بالطبع

والمتمثلة في قرارها بتعطيل المدارس أيام الخميس ، ليس باستطاعته تجاوزها ، لو انه اختار ذلك اليوم موعداً

فالطلاب ينتشرون كالجراد في أروقة ذلك اليوم

أعجبه الوصف

وبذلك ، يحتلون الحديقة الجانبية التي يمكن اللجوء إلى ظلال أشجارها غير الوارفة تماماً وسيعملون ـ دون ريب ـ على إفساد موعد لا يحتمل المرء أن يُفسد لأية أسباب لكن المشكلة التي لم يفكِّر فيها ،

هي اختياره لموقع لا يعرف الجهة التي ستُقْبِلُ منها إليه ورغم إدراكه أن الإنسان

لا يمكن أن يكون كاملاً

إلا أن نقطة الضعف هذه أربكته

فإذا جاءت من جهة (دوَّار الواحة) ، فإن عليها أن تقطع الشارع ، ولا حاجة لأن نتحدث عما يعنيه هذا من مخاطر . لذلك أمضى نصف الساعة التالي (لتمام العاشرة) في مراقبة الرصيف الآخر ، ورفع الدعوات إلى الله كي يهديها فتأتي من جهة ال (سيف وي) ، أو من أي دخلة جانبية من تلك الدخلات التي تصبُّ في (الجاردنز) من الجهة الشمالية

حين لم تظهر على الرصيف الآخر بعد انقضاء نصف الساعة الأول تنفس ملء رئتيه ، كما لو ان الوقت الذي مرَّ هو الوقت الحرج الذي بعده سيهون كل شيء

وهذا ما حدث فعلاً

حيث لم تظهر على الرصيف المقابل ، خلال النصف التالي لنصف الساعة الأول ، وبداية زحف نصف ساعة آخر ، وبدء هبوب رائحة السمك المشوي من محل بيع السمك الذي يواجهه مكتظاً

للحظة أحسست أن الناس في عمّان لا تأكل غير السمك ؛ وأرجو ألا يفهم ذلك على أنه نوع من الحسد لا سمح الله ، أُبديه تجاه صاحب المحل أو زبائنه

لكنه فكَّر فيما بعد ، كيف تستطيع الرائحة التسلل من بين هذه الجموع ، وعبور الشارع واثقة ، غير عابئة ، أبداً ، بجنون العربات

في لحظة ما ، يغدو الورد ثقيلاً إلى حد لا يوصف ؛ حتى وهو يذبل

فقد فعل انتصاف النهار فعله فيه ، وفي زهرهِ الملقى على ساعده .

ولم أكن أحسست بعد ، بأنني أحمل على يدي وليداً ميتاً
راح يبحث عن عُذْرٍ مقنع لها

إن بعض الظن إثـم
بتسام نادر ، أبعد فكرة أن يكون ثمة قصد ، تبديه تلك العيون التي تنظر إليه بين فترة وأخرى ، ثم تعاود انشغالها كما لو انه ليس هناك
ولم يدم ذلك طويلاً ، أعني من الصعب أن تكون مطمئناً إلى ما لا نهاية
فقد راحت أكثر من عين متلصصة تُطلُّ عليه من خلف الزجاج المعتم أعين رجال ونساء ؛ بعضها من نوافذ الطوابق الأولى ، وبعضها من نوافذ الطوابق العليا ، وما بينهما وحمد الله أن موظفي البنك خلف ظهره قد غادروا ، وإن كان القلق قد عاوده من أن تكون هناك كاميرات تلفزيونية ـ وضِعَتْ لأغراض الحماية ، ليس إلاّ ـ تصوِّر فيما تصوِّر ، ما يحدث له على أشرطة فيديو
هكذا ، وجدت نفسي أتخلى عن البنك الذي أحسست بأنه من الممكن أن يسند ظهري
ولم تنعش نسمةُ الهواء الرقيقة التي داعبت وجهه ، وأحس بها الأملَ الذي راح يخبو في صدره ، ويخبو

الثالثة والنصف وسبع دقائق ، ولا شيء
قرر أن يتحرك ، ألا يبقى مثبتاً في الأرض كمسمار
فجأة ، أُشرعت النوافذ ، أَطلت الأعناق ، وظهرت على أبواب المحلات بوضوح أجسادُ أصحابها
من بائعي الملابس والأدوات المنزلية وتذاكر السفر والأجهزة الكهربائية وأجهزة الكمبيوتر والأحذية الرفيعة المستوى وبائعي الفلافل

والسندويتشات بأنواعها ، وجمهور السمك والبقالة الصغيرة والصيادلة والصيدلانيات ، وشرطي المرور الذي ظهر على حين غِرَّةٍ ، وتجار الأراضي والمحاسبين القانونيين ، وأحسست بحركة المرور تتوقف ، كما لم تتوقف يوماً إستجابة لنداء إحتجاج فقلت لعلهم أدركوا بعقلهم الجماعي الذي قرأت عنه ، ان لحظة وصولها قد أزِفَتْ ولم يبق شيء سوى أن تعبر الشارع من الجهة المقابلة ، أو أي جهة شاءت ، لتتقدم نحوي ، بعد أن توقَّفتْ حركة الزمان والمكان لتشهد ميلاد أجمل لقاء من نوعه في تاريخ الأردن ، تتقدم بعينيها اللامعتين وربيع فستانها وابتسامتها المتفلتة بشغب ، نحوي ، نحوي أنا ، ليدوِّي التصفيقُ خمس دقائق متصلة ـ على الأقل ـ قبل أن تتحرك السيارات من جديد وتُغلَقُ النوافذُ وتواصل الحياة جريانها في أي فيلم شاهدتُ ذلك المشهد؟

لكن ذلك لم يحدث ، حتى ، مع هبوب النسمات الباردة للساعة الخامسة ، وانطلاق صوت غليظ من إحدى النوافذ خلفه

أُراهن بخمسة دنانير أنها لن تأتي

أراهن بعشرين

مئة

مئة ودينار

مئة وخمسين

وفوقها ، أراهن بخمسين

مئتين

أراهن انه سيبيتُ هنا

أراهن انه لن يفقد الأمل

ومن بين دموعه ، وهو يبتعد ، محاولاً إخفاء باقة الورد ما استطاع ، قال : لقد ربح الأخير

كان ذلك فصل
العودة إلى الموعد الغرامي
ويليه فصل
العودة لأيام العزاء الثلاثة

نعم ، إنها المرة الأولى التي أُحسُّ فيها بتعاطف كبير من هذا النوع ؛ لم يحدث معي ذلك حين مات أبي وقبله جدي وقبله ، أو حين متُّ ميتتيَ المشهودة أمام أكثر من ثلاثة ملايين مواطن ، في الدقائق العشر الأولى من ذلك المسلسل ولم أتصور أن موت أي إنسان عزيز علي سيدفع البشر لتقديم تعازيهم لي بمثل تلك الحرارة التي باغتتني ذلك الصباح

لم أكن قد ابتعدتُ عن عتبة المنزل الذي أسكنه وأمي ، أكثر من عشر خطوات ، حين فوجئتُ بأحد الجيران العائد من المسجد - وأعرف أن من عاداته البقاء فيه حتى الثامنة والنصف - يقترب مني ماداً يده ومحْنياً رأسه ، إلى تلك الدرجة التي خلتُ معها أنه ينوي تقبيل يدي ، فعملتُ على سحبها بسرعة ، إلا أن تشبثه بها ازداد أكثر ؛ وقال بصوت متهدج البقيَّة في حياتك

وجدتُ نفسي أردُّ

حياتك الباقية !

الحرارة التي قال بها جملته ، وذلك الحزن البادي عليه كرجل جاوز الستين ، لم تترك لي مجالاً لأن أفكر لحظةً وأنا أرد عليه

وابتعد بالسرعة نفسها التي أقبل بها

هذا الأمر أربكني فعلاً ، إذ لا يعقل أبداً ، أن يكون قد مات أحد الأعزاء دون أن أعرف ولكي لا أواصل الطريق ببال مشغول ، عدت إلى المنزل ، على ما في ذلك من خطر التأخر عن العمل فتحتُ باب الحوش بهدوء ، وهناك لمحتُ أمي منحنية كعادتها فوق حوض البقدونس تسقيه كانت هادئة ومطمئنة ، كما لو انها في مكان آخر ، وقد أعطاها انتشار طيور الفِرّي حولها هيئة ملائكية ، فلم أزعجها ، وقلت

الحمد لله ، ما دامت على قيد الحياة ، فإن كل شيء على ما يرام

تجاوزتُ الشارع الفرعي ، إلى الشارع الواسع ، وعند وصولي إلى الزاوية ، حيث بقالة (الأمل) ذات البابين ، فوجئت بصاحبها ينادي ، ثم يستدير من خلف الطاولة وأكوام الشيبس ، ويأتي مهرولاً نحوي

- البقية في حياتك ، المصابُ مصابنا كلّنا

عند ذلك أيقنت أن الأمر ليس مصادفة ، فقد يكون جارنا التقي أخطأ ، وحسبني رجلاً آخر - وهذا مستحيل - إلاّ أن صاحب البقالة قد قطع الشك باليقين ، وهو يُقدِّمُ العزاء بكل هذا الصدق البادي على ملامحه بل زادَ وقال إذا احتجتَ أي شيء - أُستاذ - فأنا تحتَ تصرفك

طبعاً في حالة كهذه لا يمكن للمرء أن يكون صفيقاً إلى درجة أن يسأل مُعَزِّيهِ من الذي مات ؟ فذلك سيبدو نكتة في غير مكانها وزمانها

بالتأكيد ، أنتم معي في هذه

لن أُطيـل

لكنني ما أن وصلتُ إلى موقف الباص ، الذي يغص بالبشر على غير

عادته ، حتى أدركتُ أنني تأخرتُ فعلاً ، وانني لن أصل إلى العمل في موعدي ، ولن يضبط الزملاء والزميلات ساعاتهم على لحظة قدومي

لم يكن السبب في ذلك بالطبع ، عودتي للإطمئنان على أمي ؛ أبداً

كان السبب ، هو ذلك العدد الهائل من الناس الذي اصطفَّ على طول الشارع ، كل أمام بيته ، أو بقالته أو محل حلاقته أو أمام محلات بيع الأواني المنزلية خاصته ، وهم يقدمون لي العزاء ، بحيث وجدتُ نفسي أتصبب عَرقاً ، على الرغم من البرودة التي أحسستُ بها لحظةَ مغادرتي البيت

وقبل أن أصل إلى موقف الباص ، لفحتني رائحة غريبة ، وقفت ، التفتُّ حولي لأعرف مصدرها ، إلاّ أنني لم أستطع تحديد الجهة التي تهب منها ، رائحة كريهة ، وحين سرتُ سارت معي ، كما لو انها تتبعني ، إلى أن استطعتُ أن أُميِّزَ رائحة الدجاج من بينها ، فعرفتُ أنها رائحتي

رفعتُ يدي باتجاه أنفي ، تأكدتُ من ذلك تماماً ؛ فأن يصافحك ويقبلك - صباحاً - هذا العدد من الناس الذين حلقوا ذقونهم للتوِّ ، وغادروا بروائحهم المنازل منتعشين ، شيءٌ كاف لأن يحدث ما حدث

وشغلتني الرائحة ، حتى أوشكتُ أن أنسى الأسباب التي جعلتني أعاني منها

ثمة أحد عزيز علي قد مات   هذا مؤكد ، ولكن مَنْ ؟!

ولكي أقترب من الإجابة قلت   لا بدَّ أن الناس تعرف مقدار مَعَزَّته عندي   والأغلب أن يكونوا عرفوه أو شاهدوه معي مراراً وتكراراً

حاولتُ استعادة شريط حياتي

قلت   ليس صديقاً بالتأكيد ، فليس لدي أصدقاء سوى (أمريكي) صديق عمري - زوجِ أختي ، الذي مات ميتته المشهودة تلك ، وبعده ،

كما لو انني أعلنتُ الحدادَ الأبديَّ لم أُصاحب أحداً وفاء لذكراه

ولأن النفس أمّارة بالسوء ، خطر لي أن ما يحدث مجرد مؤامرة صغيرة لتأخيري عن الوصول إلى عملي في الوقت المحدد ، وأصبحتُ شبه متيقن من ذلك ، حين لمحتُ الحشدَ المتراص في موقف الباص

مع هذا العدد ، لن أستطيع أن أستقل أيَّ حافلة ، وإذا ما قُدِّرَ لي أن أصل ، فلن أصل إلا متأخراً ، هذا إن وصلت ، لأن أي سائق سيفكر طويلاً قبل أن يتوقف أمام موقف تحوَّلَ إلى محطة ركاب

وعادت الرائحة قويةً من جديد ، فعقدتُ العزم على غسْلِ يدي ووجهي ما أن أصل ، في حمامات الصحيفة ، الكائنة في الطابق الأرضي ، قبل النزول إلى ما تحته ، حيثُ طاولتي

لا شيء يغيظني كقلة النظافة

لن أطيل

إن بعض الظنِّ إثم

إنشقَّ حشد البشر في موقف الباص ما أن اقتربتُ ، واحتضنني وجوه خيِّلَ إلي أنني أعرفها ، ووجوه لا أعرفها ؛ وفجأة وجدتُ نفسي في القلب منه ، وحين لاحت الحافلة من بعيد ، كان كل واحد منهم تقريباً قد صافحني مُعَزِّياً وقبلني وحين وصلتْ ، وجدتهم يفسحون لي الطريق لأكون أول من يصعد درجاتها

كانت مكتظة تماماً ، وفوجئتُ بأكثر من واحد يتخلّى عن مكانه ويدعوني للجلوس باصرار غريب

ـ البقية في حياتك

جاءتني الجملة من المقاعد القصيَّة ، كما أتتني من المقاعد القريبة ؛ وحمدتُ الله ان كثيرين لم يستطيعوا الوصول إلي لمصافحتي وتقبيلي بسبب الإزدحام واستدارت جموعٌ أخرى ، لم أشاهدها من قبل بعيونٍ دامعةٍ وهي تردد

ـ البقية في حياتك

نوع من المشاركة الأدبية

وللحق ، فقد أثر ذلك بي كثيراً

فقلت الدنيا بخير

وانقلبتْ أجواء الحافلة إلى عزاء كامل ، حين أدرك السائقُ ما يدور من كلام خلْفَه ، فاختفت (وردة الجزائرية) من الجو ، حين اختفت أُغنيتها (ح حيَّرَكْ واشْغِلْ بالك) ، وسمعتُ قرقعةَ الأشرطة ، حيث راحت يده تبحث عن شريط ، أدركتُ ما سيكون مسجلاً عليه ؛ وتعالى صوتُ الشيخ محمد عبد الباسط عبد الصَّمد

﴿ وإذا الموؤدةُ سُئلَتْ بأيٍّ ذَنبٍ قُتلَتْ ﴾

الله الله

كانت عبارات الإستحسان تتصاعد كمظاهرة

لن أُطيــل

أنزلت الحافلةُ أناساً ، وصعد آخرون ، وكلهم كانوا يحسّون بما يحدث ، فيتهامسون فيما بينهم ، وبعضهم يعتقد للحظة أنه استقل الحافلة الغلط وبين آية وآية ، كان يجيء صوتهم مواسياً مكسورا

ـ هاي حال الدنيا يا أخ لا يبقى إلاّ وجه الله والعمل الصالح البقية في حياتك

فأرد العزاء بمثله

كان الوصول إلى مجمع الحافلات في (الساحة الهاشمية) ، أقصد مجمع (رغدان) ، أشبه ما يكون بطوق نجاة لكنني كنت حزيناً ، حزيناً جداً ، فقد شكّلتْ عباراتُ العزاء وجهي بما أملته عليٌّ من ضرورة إبداء حالة الحزن الشديد ، كما يقتضي الموقف في حالاتٍ كهذه

وحين صعدتُ درجات أول حافلة صادفتني ، من تلك الحافلات الكثيرة التي تمر من أمام مبنى الصحيفة ، فوجئتُ بأكثر من واحد كان

معي في الحافلة الأولى يصعد ورائي لكن حالة الحزن تراجعتْ إلى درجة لم يقم السائق معها بخفض صوت المذياع ، فظلَّ صوت المرحوم (فارس عوض) يلعلع في أغنيته الشهيرة ، والأكثر جرأة في تاريخ أغنيتنا الأردنية (حبحبني عا الخدين شو ها الشطارة ؟ ، لروح أشتكي ها الزِّين لـ قاضي العذارى) ، وتبع الأغنية كلمات ـ إسمحوا لي أن أقول ـ بأنها مائعة ، تبدو مقتطعة من دفتر إنشاء من مُخلفات المرحلة الإعدادية على الأكثر ، تطلقها المذيعة بثقة ، وهي تتلوى خلف الميكروفون ـ هكذا تصورت ـ رغم أنني أعرف أن مذيعاتنا لا يمكن أن يفعلن ذلك حقيقة فهن جادات ورزينات

وفي محاولة للهروب من حالة الحزن التي عصفت بي ، وجدتُ نفسي أحاول تتبعَ وصف المذيعة لطقس عمّان ، على الطبيعة ، كما لو انني أُتَبِّعُ في دفتر القراءة أيام كنت في الصف الأول الإبتدائي

تحدثتْ عن الشمس المشرقة والزهور ، وكانت السماء غائمة فوق العاصمة ، وليس ثمة ربيع ؛ أعشاب مريضة ليس إلا ، خدعتها الطبيعة ، حين انقطع المطر لأكثر من ثلاثة أسابيع وسطعت الشمس ربيعيةً أو أحرّ قليلا

لن أطيـــل

لم يمهلني أحد كي أصل إلى الحمامات لأغسل يدي ووجهي ، إلا بعد أن انهالوا علي تبويساً ، وهم يتمتمون بكلمات العزاء إياها

وحين أجهزَ علي الطابق الأرضي قُبلا ، أدركتُ أن من العيب أن أتوجه إلى الحمامات سيقولون الناس في إيش وهوٍّ في إيش !!

يعني ، كأن المفجوع بموت عزيز عليه ، لا يصح ولا يحق له الذهاب إلى الحمامات

هكذا ، وجدتُ نفسي أنحدر باتجاه مكتبي

هبّ زميلي الذي قال قولته المشهورة (لا يستطيع أحد أن يأمن جانب

المواطن) ، وعانقني بشدة ،وقال لي مُخلصاً
لماذا أتيت ؟! يلعن أبو الشغل ، كان يمكن أن أقوم بعملك كلِّه ، وقد أعددتُ نفسي لذلك ، ثم انه لا يُعْقَلُ أن تأتي في أول يوم من أيام العزاء ، كلُّنا خططنا لأن نزورك هذا المساء ، وها أنت تأتي ، كيف يمكن أن نعزيك في البيت إذن ؟!!!
واكتشفتُ أنني أوقعتهم في ورطة فعلاً ، فما داموا قد قدَّموا العزاء لي هنا ، فكيف سيقدمونه في البيت ؟!
لن أطيل
ما دام الأمر معروفاً إلى هذا الحد ، فمعنى ذلك أن إعلان النعي قد نُشر في الصُّحف قررتُ أن أتصفح عدد يوم أمس بعد أن تصفحتُ عدد (اليوم) ولم أجد فيه شيئاً ، وكنت محرجاً من تصفحه أمام زميلي
سيقولون الناس في إيش وهوّ في إيش !! كيف يستطيع قراءة الجريدة في صباح كهذا ، هل هنالك كارثة أكبر من تلك التي أصابته؟!
صعدتُ الدرجات ثانية ، بصمت
وفهم الجميع أسباب ذهولي
في الطريق إلى الأرشيف ، كان لا بدَّ لي من أن أمرَّ أمام مكتب الفتاة الجميلة جداً جداً ، فَهَبَّتْ واقفةً ، وأدهشني أنها ترتدي السَّواد ، هي الزاهية كربيع دائم
ولم تتمالك نفسها
إندفعتْ دمعتها قبل أن تصل إلي
البنات أَحَن
وقالت البقية في حياتك كنّا راح نجيك ، ليش جيت اليوم ؟
سألتها كنت ستأتين فعلاً ؟ !!
فقالت بالطبع
وقلت في نفسي هذه فرصة ضاعت ، لا ، أضعتُها ؛ فرصة ، ومن

الصعب أن تتكرر إخص
سألتني ، وهي تحاوِل كبح جماح دمعتها المعلقة بطرف عينها اليسرى
بتحب أساعدك ف إشي ؟
فقلت لها شكراً
وكان يجب أن أهزّ رأسي موافقاً في حالة كهذه ، حيث لا شيء سوى الحزن ، إلاّ أن ضميري لم يسمح لي بأن أكذب عليها
لن أطيـل
تكرر المشهد مع فتاة الأرشيف المُعجَبة بي ، والتي داعبت شعري ذات يوم ، الفتاة التي لا أحبها ، وتجرأت ، مُستغلّة الفرصة ، وطبعت قبلتين على خدي ؛ وحمدتُ الله أنها لم تكن تضع ـ ربما بسبب الحزن ـ أحمر شفاه
طلبتُ عددَ يوم أمس ، فناولتني إياه ، دون أن تدير وجهها
تعرفُ موقع كل شيء بدقة
انحنيتُ على الطاولة أتصفحه ، بادئاً من الصفحة الأخيرة لفتَ انتباهي الكاريكاتير ، لكنني تجاوزته بسرعة قبل أن تنتبه وبحثتُ في صفحات الوفيات ، فلم أعثر على شيء قالت
لا تؤاخذنا ، قصّرنا معك في هذه ، كان يجب أن ننشر إعلان نعي
لعلّ غيرهم نَشَرَ
لم أجد
حين عدتُ أدراجي ، وقبل الوصول إلى الدرج ، هبّت الفتاة الجميلة جداً جداً واقتربت ثانية مني
ـ لازم تروح ع البيت فوراً ، وترتاح
هَمَسَتْها همسا
ـ ما بيصح إنك تيجي في يوم زي ها اليوم أضافتْ
ولمحتُ ورائي فتاة الأرشيف غير مسرورة بالمحادثة الهامسة .

لو يصدقُ ظنُّها الآثمُ ، قلت
لن أطيــل
هكذا ، وجدتُ نفسي مدفوعاً خارج الصحيفة بالإحراج ، وإحساسي بأنني ارتكبت خطأً فادحاً حين أتيت
عدتُ للبيت
وجدتُ أمي كما تركتها ، مشغولة بحوض البقدونس وهيئ لي أن أعداد طيور الفرِّي قد تضاعفت
جمعتُ شجاعتي وسألتها ـ وهذا أمر نادر ـ أعني أن أجمع شجاعتي وأسألها
هل مات لنا شخص عزيز ؟!!!
وتمنيتُ لو انني لم أسأل
ـ مش عارف لسَّه إذا كان مات إلنا (شخص) عزيز ، ولاّ لأ
وعادت لغيمة ذهولها المنحنية على حوض البقدونس ، تماماً كما فعلتْ يوم مات أبي
وانتظرتُ ثلاثة أيام كاملة
لن أطيــل
وتذكرتُ أن الفتاة الجميلة جداً جداً ماتت من زمن طويل
لن أطيــل
ولم يأتِ أحدٌ
إنتهيت

كان ذلك فصل
العودة إلى أيام العزاء الثلاثة
ويليه فصل
العودة إلى رحلة البحر الميت

إذا قلنا أنه لم ير السـيارات الكثيرة المتوقفة على جانبي الرصيف بمختلف أنواعها وألوانها وأعمارها أيضاً ، فمعنى ذلك أننا نصفه بأنه أعمى

ها هو قد قالها بنفسه . لكنه في الحقيقة لاحظ أكثر من ذلك وخبرة الملاحظة ، لم تتكون بين يوم وليلة ، تكونت بفعل تجربة عميقة ، وحرص شديد على ألا يقع في خطأ

فليس هناك سبب واحد يقنعه أن من الطبيعي الوقوع في خطأ ، حتى حين يقال إن من يعمل لا بدَّ أن يخطيء

من يعمل ، يعمل لكي لا يخطيء ، لا لكي يعطي الخطأ حصة من عمله!!

لذا أصبح يدرك المعنى العميق لمهنته كمدقق ـ مبكرا ـ باعتبارها مهنة نَزْعِ فتيل الأخطاء التي قد تكون مدمِّرَةً

: لا على مستوى اللغة فحسب

وفي محاولة منه ـ بعد عبوره الأربعين ـ تفهُّم الطبيعة الإنسانية أصبح يتغاضى عن بعض أخطاء البشر ، وبقيت القاعدة الوحيدة الثابتة هي تلك المتعلقة بعمله هو

إذا أخطأ المدقق فمن يصوِّب أخطاءه

بأم عينه المدربة ، رأى أن أبواب السيارات المتوقفة كلها مفتوحة ، وساعدته قوة نظره على اختراق لمعان الزجاج والخيالات الرمادية التي تتموج أثناء سيره ، ليصل فيما بعد ، إلى أن مفاتيحها فيها أيضاً

وفي محاولة للبحث عن أسباب ذلك

تبين لي أن الناس لا يمكن أن يكونوا قد وصلوا إلى درجة من الإحساس بالأمن والطمأنينة تؤهلهم لترك المدينة مُشرعةً هكذا ، ثم يذهبون للنوم ـ رغم أن لا شيء متوافر عندنا كالأمن ـ إلا إذا قررت الحكومة فجأة ـ وهذا ليس من شيمها ـ تخصيص يوم وطني للكسل ثم أين الشرطة ، أين رجال المرور ، والوزراء ، ورئيس الوزراء ، وقوات البادية

لكنه لم يسأل أين المخابرات ، لأنه على درجة عالية من الفطنة تؤهله أن يعرف أنهم دائماً موجودون

حتى في حالة نادرة كهذه

وصعَّدَ نظره باتجاه (جبل القصور) ، فلم ير أي حركة ، أو يسمع أي صوت

خالية من الطائرات ، كانت السماء أيضاً فبعد مرور كل هذا الزمن المشبوه ، تذكَّرَ أن أي طائرة لم تحلق ـ كما يحدث يومياً ـ أو تهبط ، من / إلى مطار عمان المدني

أي مطار (ماركا)

لكن ما شغله في الدقائق التالية ، تلك المعارض التي كانت تلوح من

نوافـذها الزجـاجيـة العـريضـة ، خطفـاً ، أحـدث وأجـمل وأرقى أنواع السيارات وأكثرها لمعاناً ، أثناء مروره مستقلاً الحافلة

فجأة أحسست نفسي قريباً من نار التجربة

فـتنـــة الجـديد اللامع القـابع في هـدوء جـمـاله واثقـاً ، كـانت تسحـره ،خـاصة وان لـديه نقـطة ضعـف وحيـدة ، يملك الـجرأة للإعتراف بها

إنـها الجمال

لكنه استطاع ـ مع مرور الأيام ـ أن يكبح جمـاح هذا الطيش العذب ، وأن يخفي إحساسه تماماً بالأشياء التي يهيم بها ، كما لو ان الأمر لا يعنيه

لقـد حلمَ بشـراء سيـارة ذات يوم ، لكن ذاكـرته لـم تحـفظ من تاريخ السيارات فيما بعد ، سوى صفحات سوداء

اليوم ، مسألة أخرى بالتأكيد ، فليس ثمة مبرر لأن يخفي أي شيء قد فكّر به في الماضي ، بإمكانه ـ حتى ـ أن يبول في الشارع أو أكثر

لا ، لا ، هذه لن أفعلها

بإمكانه أن يتجاوز عتبة أي باب من أبواب هذه المعارض ، يلقي نظرة من أعلى أعاليه إلى السيارات ، ويشير إلى واحدة منها واثقاً

أريد هذه

بإمكانه أن يصعد إليها ، دون أن يتفقدها من الداخل ، كما لو انها سيارته المفضلة التي يعرفها من زمن ، وأن يدير المفتاح ، أن يسمع صوت المحرك الناعم الشبيه بأزيز نحلة تشعر بالإثم لإقدامها على سرقة رحيق وردة في رحلتها الأولى بين الخليّة والبستان ثم يعطيها من البنزين ما تشتهي ، ما تريد ، لكي تروي عطشها المرّ الذي كبّل عجلاتها طويلاً وحوّلها إلى تحفة باردة خلف الزجاج ، محرومة من امتدادات الطرق وتعرجاتها .

بإمكانه أن يعطيها الغيار الأول ، ثم ينطلق عبر الزجاج ، كما في الأفلام ـ ألم يقل بأن الدنيا سينما ـ وأن يقفز من فوق الرصيف
بأقلِّ الأضرار
مطوِّحاً بسيارة الفولكس فاجن القديمة التي تقف بمحاذاته إلى منتصف الشارع ، وأن يتحاشى في اللحظة الأخيرة الإصطدام بحجارة الجزيرة الصفراء والسوداء ، ثم ، خذي الغيار الثاني ، الثالث ، الرابع
الخامس عشر
إنفعَلَ
لحظات ، وأكون في مجمع سيارات رغدان أوقفها هناك ، وأستقل أول حافلة متجهة إلى شارع الصحافة
الوصول إلى مبنى الجريدة بالسيارة نفسها لم يكن وارداً ، فهو يعرف أن أقصى درجة من الجموح يمكن أن يقترفها خياله ، لن تتجاوز مجمع رغدان ، وعكس ذلك
تهوّر بحت ليس إلاّ
صحيح ، أن باستطاعته القول إنه قادر على قيادة أي سيارة في شارع غير مزدحم
يُفضل أن يكون خالياً
لكنه ، وحتى في ظرف كهذا ، يعرف الفرق الجوهري بين كلمتي الحكمة والرعونة

لقد أوشك ذات مرة أن يقتنع بشراء سيارة ، نتيجة علاقته التاريخية بصديقه (أمريكي) ـ الذي أصبح فيما بعد زوج أخته ـ
وفي موجة عطف شديدة ، أو في محاولة للتخلص من إلحاحه المستمر ، أوشكت أمه أن تتنازل عن عدد من ذهبات عرسها
أعرف أن ظروفاً قاسية أهم بكثير من شراء سيارة ، لم تدفعها

للتنازل عن هذه الذهبات ، أو بيعها

لكن محاولاته الدؤوبة للتقرب منها ، والتي رافقتها عدة إغراءات ، من بينها شراء نصف أوقية بزر بطيخ مُحَمَّص لها كل يومين ، وأحياناً قضامة طرية ، والجلوس قريباً منها لمتابعة مسلسل (مقالب غوّار) ، ثم فَتْحُ الباب لها واسعاً لتذوق الشيبس الفاخر ، رغم الهيام المشوب بالحذر الذي تبديه تجاهه ، في كل مرة تتذوقه فيها

ـ خوفي ليكون ها اللي بوكله بطاطا

كل ذلك ليَّن قلبها ، خاصة انه وحيدها ، بعد وفاة زوجها وزواج ابنتها وسفرها الفوري مع شريك حياتها إلى السعودية

قلب الأم لا يرتاح

يعرف ذلك ، فليس مهماً أن يكون أُمّاً ليكتشف حقيقة واضحة كهذه

ـ خوفي تقتلك ها السيارةٌ

عبارة أمه كانت في مكانها ، ويمكن القول بلغة الصحافة والقوانين الدولية

إنها شرعية فنحن نموت بالأشياء التي نحبها أكثر من الأشياء التي نكرهها !!

وفي حالة كهذه ، يمكن أن (يضرب) عشرات الأمثلة

ربما كلمة (يورد) أفضل

هذه إحدى سماته الطيبة ، فهو لم يفكِّر في يوم من الأيام بأن يضرب أحداً ؛ صحيح أن عبارة (الضرب للحمير شائعة)

لكنها ليست صحيحة ؛ فلماذا تُضرب الحمير ، هل حَمَّرتْ نفسها بنفسها ؟ إنها مخلوقات الله ، مثلي ومثلك ، ثم بإمكانك أن تتأمل (كُرّاً) صغيراً إذا ما سنحت لك الفرصة ، لتكتشف أي جمال ذلك الذي فيه .

عودة أمريكي من السعودية كانت مباغتة ، مع أنه يعرف منذ البداية نتائجها ، وينتظرها من سنوات وسنوات ، أي ، حتى قبل أن يسافر إلى هناك وقد مهّد أمريكي نفسه لهذه العودة عبر رسائله المتلاحقة ، لكن المدهش

أنني لم أكن أتصور أن يكون لزوج أختي ، سيارة فارهة كتلك التي عاد بها

وللحق ، فقد كانت حلم حياة أمريكي الوحيد

تدريجياً ، أصبحت السيارة من أهل البيت

فبعد أن تركها أمريكي ثلاثة أيام كاملة تنام في الشارع

أمام بيتنا

لأن السيارة لا تستطيع الوصول إلى بيته عبر الزقاق الضيّق الصاعد ؛ ولأن أمريكي

لم يُقصِّر ، لا كصديق ، ولا كزوج أخت . رغم سوء التفاهم الذي حدث بيني وبينه ، حين تجاوزني كصديق عمر ، وذهب مع أمه ليطلب يد أختي من أبي مباشرة ، وقد كان يمكن أنْ يلمح لي على الأقل بحيث لا أفاجأ بأبي يسألني ما رأيك بصديقك ؟ ويوصيني بأن أفكِّر جيداً قبل أن أجيب ؛ وبعد أن أجيب ، يباغتني قائلاً سنزوجه أختك إذن !!

أيام طويلة مرت قبل أن يسامحه لكن أمريكي لم يقصِّر بشهادة الجميع

أي أنا وأمي

حين أثقل سيارته الجديدة بعشرات الأشياء المبهرة بعد عودته

هكذا ، رقّا لحاله ، وحال سيارته ، ورجائه المُعذِّب الذي أطلقه وهو يكاد يبكي ، أو يتحول إلى دمعة كبيرة هو نفسه

ـ هل يمكن أن تسمحوا بإدخال السيارة للحوش ؟

وراح يفرك يديه ، منتظراً إجابتهما

لقد لاحظتُ تَورُّمَ عينيه ، وكنت أعتقد أن ذلك عائد للسفر ومشاق الطريق الطويل ؛ لكنه فاجأني ، حين اعترف ببساطة ، انه لم ينم منذ ثلاثة أيام ، لأنه مضطر لإلقاء نظرة على السيارة كل نصف ساعة على الأكثر

وأوضح ، أن السيارة (موديل سنتها) ، وأنه يخشى أن يطمع فيها أحد فيسرقها ، أو يتقدم إليها ولد مشاكس بمسمار ويحرث طلاءها

أكثر من مشكلة كانت تعترض رجاء أمريكي ، أبرزها ، أن جانباً من الحائط لا بُدَّ أن يُهدم ، لكي يكون للسيارة كراج يحميها

ـ لا ، ليس هناك ضرورة لأن يكون مسقوفاً قال أمريكي فقط ، أن تكون بعيدة عن الأيدي العابثة ، وأنا مستعد لدفع التكاليف

لانَ الإبن ، متخلياً عن حلمه في أن تكون له سيارة خاصة ، مؤقتاً ، فلانت الأم

ـ أعطيناه بنتنا ، وما عزّيناها عليه ، بدنا نعز عليه حوشنا ، لا والله

سريعا بدأ العمل في هدم سور البيت المحاذي للشارع ، لكن المفاجأة التي لم تخطر لهم ببال ، أن السيارة كانت أطول من أن يتسعها الحوش ، حيث بقي مايزيد على عشرين سنتمترا من مؤخرتها خارج البوابة الكبيرة للكراج

حاول أمريكي مرة مرتين ثلاثاً ، أن يتغلب على المشكلة

ولم تكن تنقصه المهارة كسائق

حائط الغرفة المقابلة ، كان له بالمرصاد

يئس أخيراً وبين أن يُعيد بناء السور من جديد ، أو يترك الوضع على حاله ، إختار الحل الثاني وسط رغبة لم يستطع أهل البيت إخفاءها أو الجهر بها ، حين فكروا في الخيار الأول

ـ عشرون سنتمترا ، لا أكثر ، وتنتهي المشكلة   قال أمريكي وهو يتطلع إلى حائط الغرفة

لكنه رغم ذلك ، نام يومين كاملين مطمئناً ، وحين استيقظ مضى بعينين نصف مغمضتين لتفقُّد السيارة ، وقبل أن يصل إليها ، راعه ما فعلته الأيدي بمؤخرة الـ (بلايموث) البارزة

لم يكن أمريكي قد أعد نفسه لاستقبال كارثة كهذه ، فاجتاز بوابة البيت الصغيرة صارخاً ، ليكتشف أن مشكلة أخرى قد انفجرت أثناء نومه ، إذ فقد البيت عددا من أنشط طيور الفري ، التي انسلت هاربة ، كما لو ان الأرض انشقت وابتلعتها

أعيدت طيور الفري الباقية إلى أقفاصها ، وبذلك انكسر اتفاق تاريخي بينه وبين أمه ، كان ينص على ترك الخيار لهذه الكائنات كي تحدد مصيرها كما تشاء   الطيران مبتعدة بحرية أو البقاء طليقة في الحوش

ولكي لا ينهار الإتفاق إلى الأبد ، وجد نفسه ، ومعه أمه مضطرين لهدم جزء من جدار الغرفة المقابلة لبوابة الكراج ، كي يستروا عورة السيارة ، وقد نفذوا ذلك بصورة متقنة

الأيام القليلة التي أمضتها السيارة في الحوش ، كانت كافية كي يعتبرها واحدة من أهل البيت   ولذا ، فإن مهمتين جديدتين قد أُلقيتا على كاهله   الأولى ، إكرام السيارة ، بالعمل على إبقائها نظيفة ، والثانية ، بذل جهد أكبر لإخفاء الآثار التي تركتها على مؤخرتها أيدي العابثين

بدأت أحزان أمريكي بالتراجع ، حين لاحظ اللمعان الساحر للبلايموث تحت شمس الأوقات كلها ، وتلاشي رقعة العبث ، فعاوده إعجابه المطلق بها ، وإعجابه بنفسه أيضاً ؛ فقد أصبح على يقين من أنه

وفِّقَ في اختيار اللون المناسب الذي لا يغْبَرُّ

ولكي يبدو أمريكي مستحقاً عن جدارة الشرف الذي منحوه له

ولسيارته ، عرض أن يأخذهما في رحلة إلى البحر الميت
ـ ليس من أجلكَ ، بل من أجل الحجة ، حماتي قال أمريكي
عندما وصلت الأمور إلى هذا الحد ، عرف حدوده ، فالأم قبل كل شيء ، وبعد كل شيء
لأنها في الحقيقة كل شيء
فأبوه في التراب ، وليس ثمة مبرر لكي يغطي الغبار أمه ، ثم إن أمريكي زوج أخته ، أي أخوه تقريباً ، وقبل أن يكون أخاه كان صديقه صديق عمره ؛ رغم أن العرض بدا كما لو انه جائزة ترضية في أحسن الأحوال

صبيحة يوم ربيعي ، انطلقوا باكراً
أخوةُ أمريكي يلوِّحون أمام الزقاق ، بعد أن أقنعهم بأن الرحلة هذه المرة مخصصة للكبار ، وأن حصتهم من الرحلات ستكون كبيرة مستقبلاً
انطلقت السيارة
أمه إلى جانبه ، وأمي وأنا مسترخيان في المقعد الخلفي ، وبيننا أختي ووحيدها الرضيع ، وبين أرجلنا تتدحرج قارورة ماء ، وكيس برتقال ، وفي جيبي أوقية قضامة طرية
لم يفكر بشراء بزر البطيخ ، فهو يعرف ، أن ليس هناك مبرر لأن تسقط بعض القشور وتلوث ـ سهواً ـ السيارة الجديدة
حبُّكَ لشيء ما ، لا يبيح لك أن تفسد شيئاً آخر

تحدث أحياناً بعض الأشياء ، التي يمكن أن يقال فيها أنها ليست على البال أو الخاطر
فحين وصل أمريكي بسيارته إلى (دوّار الشرق الأوسط) تذكر أن لديه مذياعا في السيارة

فـهـمت فيـمـا بعـد أنه لا يحب اسـتـخـدام المسجل ، حتى يظل جديداً

تحركت يده ، وأدارت مفتاح المذياع ، فانطلقت أغنية إسماعيل خضر المعروفة

أنا من (العقبة) ياعيوني   من فوق المركِب شوفوني

عينيي وإيديي ، وسنارة

والشبكة من العقبة   .أنا من العقبة

قالت أم أمريكي   مدام ناوي توخذنا رحلة ، كنت أخذتنا للعقبة ، قلْة موت فينا حتى ننزل نتفرج على البحر الميت ؟!!

فجأة أحسست بأن الرحلة ستفسد قبل بدايتها   فحمدتُ الله أننا لسنا وراء ذلك ، وان المسألة داخلية بين أمريكي وأمه

وأراد أن يلكز أخته ، كي تلزم الصمت ، فأصابت يده رأس وحيدها فأخذ يبكي

لم يستطع أمريكي التعليق

أمريكي الذي لم يكن اسمه حتى تلك اللحظة (أمريكي) !!

فبعد قليل ستظهر سمات اسمه واضحة عليه ؛ ستطل الحروف حرفاً حرفاً مشاكسة ، لتلتف حول بعضها ، تلتقي وتفترق ، وتلتقي وتفترق ، إلى أن تجد نفسها كلمة كاملة لها معنى

أخيراً وجد أمريكي القدرة في نفسه كي يشتم الأغنية

فلم تعلق أمي ، ولزمت أختي صمتها الأزلي ، وتبعها وحيدها ، وابتلعتُ ـ مضطراً ـ مسألة أعجابي بهذه الأغنية بالذات

راحت يد أمريكي تبحث مرتبكة عن شريط كاسيت (كاتريج) ، عثرت بشريط عليه صورة فيروز   زجَّ الشريط في المسجل ، فانطلق الصوت مدوياً

هيلا يا واسع   هيلا هيلا هيلا

مركبك راجع   هيلا هيلا هيلا

فأدركت أن هناك مؤامرة كبيرة تُحيكها الأغاني ، فحزنتُ عليه ما الذي يمكن أن يفعله المرء ، حين تكون الأغاني ضده ؟!!

كتمَ أمريكي غيظه

فأدركتُ أي رجل صلب هو ؛ قبل أن أتنبه إلى أن سرعة السيارة تزداد

سرعة لم تُجدِ معها نداءات فيروز

على مهلك يابا على مهلك قدامك عيد

ولأن أم أمريكي في المقعد الأمامي ، أحست بالخطر أكثر منهم في المقعد الخلفي ، ولأنها تعرفه قبلهم بكثير ، وتتيح لها علاقتهما أن تطلب منه طلباً كبيراً ؛ لم يتدخلوا في قضية السرعة ، وقد صدق ظنهم ، إذ قالت له بحزم أمٍّ أنجبت خمسة أولاد وثلاث بنات ، وربتهم وحدها

ـ خفف سرعتك شوي ،سَقَّطتْ قلبي ، صحيح إنه إنكتب علينا نروح على البحر الميت ، بس مش ضروري نموت

عندها ، التفت أمريكي ، الذي لم يكن اسمه قد أصبح أمريكي إلى أمه ، متناسيا ما سببته له الأغاني من مشكلات ، وربّتَ على (تابلوه) السيارة ، وقال بفخر شديد

إطمئني ، هاي سيارة (أمريكي)

وهكذا تكررت كلمة (أمريكي) عشرات المرات خلال الرحلة ، بمناسبة وبغير مناسبة

حتى أن نفسي قد سوّلتْ لي أن أطلق عليه فوراً لقب (أمريكي) ، فأطلقته ، ولكي لا أجرح إحساسه أو إحساس أختي ، ووحيدها مستقبلاً ، لم أبح حتى لأُميَ باللقب

كانت هذه واحدة من بؤر اللؤم البريء القليلة في داخله ، إلا أنه لم

يستغلها في أي غرض غير شريف ، فقط ، كان يتذكّرها فيبتسم ، وحين تلحظ أمه ابتسامته وتسأله عن سببها ، كان ينفي أنه يبتسم ، فتقول له
ولوْ ، مَ أنا شايفاك بعيني هذه إللي راح يوكلها الدود
لم يكن مستعداً للإعتراف
وحسناً فعلت ، وإلا لكنت اليوم آكل أصابعي ندماً بعد أن حدث لأمريكي ما حدث
ولكي يتجاوز إحساسه بأن الرحلة لم تكن أكثر من جائزة ترضية فعلاً ، حاول أن يفسِّرَ الأمر على النحو التالي
صحيح أن زيارة بيت العزاء ، دائماً تكون قصيرة ، وليس فيها سوى القهوة المرَّة ، إلا أنها تترك أثراً عميقاً في نفس أهل الميت ، ونحن أهل السور
وتذكَّرَ نصف الساعة الأخير ، من يوم العزاء الأخير ، الذي هو في الحقيقة كل ما شهده عندما مات أبوه ، فأحسَّ بجلال الرحلة وعمقها
أما أُمه وأم أمريكي ، فقد اكتشفتا أهمية الرحلة ، بعد أن وقفتا على شاطيء البحر الميت ، ونظرتا صوب (أريحا) بأعين شبه دامعة ، ووسط انفعالهما الذي يمكن أن يقال فيه
انه لم يكن مدروسا
قالت أمه ، ووافقتها أم أمريكي بهزة خفيفة من رأسها
ـ ولو ، كل هالجيوش مش عارفة تصل لهناك ، أي والله وأنا الختيارة لو تركوني لأصلها في نُص ساعة
وهكذا انقلبت الرحلة ، ولم تحقق أهدافها المرجوَّة
أي الإنبساط المطلوب
إلا بعد أن توقف أمريكي على أحد جانبي الطريق ، وطلبَ من الأُمين أن تنزلا ، لكي تختار كل منهما صندوق خيار وصندوق بندورة .
: متجاهلاً بحنكة وجودي ووجود أختي في السيارة .

لحظتها فقط ، إكتشفتا ، أي حياة تلك التي تعيشانها في عمّـان ، حيث الخيار هناك أصفر ، والبندورة (مجرمزة) ولا طعم لها

هنا يمكن القول ، إن تلك ، كانت بهجة الرحلة الوحيدة بالنسبة للأُمين ، البهجة التي ستؤسس أرضية ذكريات مشتركة إلى زمن طويل ، حتى أن أم أمريكي ستقول لأمه فيما بعد

ـ تصوري ، حاسّه كأني بتعرف عليكِ أول مرة

كان ذلك فصل

العودة إلى رحلة البحر الميت

ويليه فصل

العودة إلى فلسفة المنزل وديمقراطية الوالد

أظن أن تسعاً وأربعين سنة ، مدة معقولة ، لكي يقول المرء بأن لديه تجربة

لا أقول هذا القول جزافاً ، فأنا أعرف الناس ، خَبَرْتُهُم ، وعشت معهم بما يكفي لأن أقول بأنني أفهمهم

وبعيداً عن هذا كلِّه ، من الممكن أن أعود قليلاً للوراء - ثمة نوع من اللاإنسانية في كون المرء لا يكف عن التقدم باستمرار - من قائل هذا الكلام مَن ؟ لا أذكر !

هذا النسيان وحده يكفي ، كي نعود للوراء ، قبل أن ننسى كل شيء!

في السادسة من عمري ، وهنا ، ما زلت أتحدث عن التجربة ؛ قال لي الوالد رحمه الله

شيء غريب هي الدنيا !

واحتراما له ، لم أسأله عن وجه الغرابة فيها ، فهي - أي الدنيا بالنسبة لي عادية تماماً - لكن صمتي فتحَ له الباب واسعاً ليواصل

تصوَّر ، أنا وإياك نخلِّع أسناننا في وقت واحد !!

وصمتَ طويلاً ، لفترة كافية ، إستطعتُ خلالها تلمُّس مواضع أسناني المخلوعة بطرف لساني

ثم قال

أنا ، رأيت الكثير ، هذه مسألة مفهومة ، ولكن ، أنتَ ماذا رأيت؟!

بعض الإجابات صعبة ، خاصة في ذلك الوقت ؛ وحين لم أجد للأمر تفسيراً ، حوَّلتُ صمتي إلى نوع من الإحترام . وحسناً فعلت لأنه فاجأَ وجومي بضحكة مُزَلزِلة ، ومن بين دموعه قال لي

ختيرتَ قبل أوانك

فهمتُ النكتة بصعوبة ، إلا أنني لم أضحك ، وليس ثمة مبرر لأن أقول

إحتراماً

طيباً كان رحمه الله ، وإذا ما أردنا الحديثَ بلغة اليوم ، أي لغة (المرحلة الديمقراطية) فإن بإمكاني القول إنه ديمقراطي . لكن الفرق بينه وبين الديمقراطية ، انه سبقها كثيراً ، حين وصل قبلها بأكثر من دعونا نحسب

نحن الآن في عام ١٩٩٧ ، نحذف ست سنوات ، يبقى ٤٣ ، أي أن هذه الواقعة حدثت عام ٥٤ وتسعمائة وألف

وأرجو ألا يفهم من كلامي ، أن أبي قد أصبح ديمقراطياً في ذلك العام ، لأنني أستطيع تذكّر بعض الحوادث التي جرى الإتفاق على مستوى إنساني أن نسميها بعد مرور الوقت ذكريات . لكن تلك الحوادث بالنسبة لي ، يمكن أن أطلق عليها صفة مقدمات ؛ أو بوادر الديمقراطية المنزلية التي حظيتُ بها في كنف الأسرة وفي الوقت الذي أدقق فيه اليوم عشرات المقالات والأخبار حول المساواة بين الجنسين ، أي البنات والأولاد ؛ لم أحس في أي لحظة أن هناك فرقا في المعاملة أو تمييزاً

من أي نوع ، بيني وبين أختي كنتُ أحس ، وأقولها صادقاً ، أننا أي ـ هي وأنا ـ بنات

فما كان يقع عليها ، كان يقع علي المدة المسموح بها أن نلعب خارج المنزل ، الساعة المحددة لعبور عتبة البيت قبل مغيب الشمس متابعتنا اليقظة من قبَل الأم ، ولا أقول مراقبتنا ، مواعيد الأكل وحرصها ـ أي الوالدة رحمها الله ـ على أن تكون لقمة الخبز في يد كل منا متساوية ؛ فكثير من الأولاد كانوا يسلكون طرقاً مُخادعَةً في هذا المجال ، من خلال تصغير لقمة الخبز ، وتكبير كمية الطبيخ التي يستعينون بأصابعهم كي يختلسوها وليس هناك مبرر لأن أقول إن عادة كهذه من الممكن أن تجلب الكثير من الأمراض ، إضافة إلى أن فيها كثيراً من ـ واعذروني على الكلمة ـ (القذارة)

أتذكر الآن أيضاً انه لم يحدث أن أُجبِرَتْ أختي في أي يوم ، على انتعال أحد أحذيتي الذي أصبح ضيقاً بفعل نموّي ؛ ربما لأننا كنا ننتعل نفس المقاس

أعرف أن ملاحظة كهذه تزعجها إذا ما قيلت بوجود غرباء ، لكنها كانت على الدوام ، فرصة للتندر العائلي البريء إذا ما قيلت

٤٤

نعم ، المقاس ٤٤

وحين جاء صديق عمري لخطبتها ـ من وراء ظهري ـ حرص الوالد والوالدة على أن ترتدي فستاناً طويلاً يستر قدميها فأحسست بأننا نخدعه ، فلم أغفر لنفسي ـ رغم عتبي الشديد عليه ـ وبعد أن خطبها ، ظلوا متكتمين أيضاً ، أما حين عقدوا القران ، فقد بلغ السيل الزُّبى ، فلم أعد قادراً على النوم ، ووسادتي خديعة بهذا الحجم!

أعجبني الوصف

لذا لم أجد بُدّاً من أن أقولها بعظمة لساني ، حتى لا يبقى الرجل

مخدوعاً ، وفي ظنّه أنه اقترن بساندريلا

لا أذكر كيف فُتح الموضوع ، وقد كان ذلك نعمة من نِعَم الله علي ، حيث وصل ضميري إلى حواف الإنفجار فقلت له لا تتَحدث عن المقاسات الكبيرة هكذا ، لا تنس بأن مقاس قدم زوجتك ٤٤

في تلك اللحظة عَمَّ صمتُ القبور ، وحدجتني أمي بنظرة قاسية ، خلت معها أن سراً كبيراً بهذا الحجم ما كان يجب أن يُعْرف قبل أن تنجب البنت ، وأوشكت دمعة أختي أن تفرّ ، أما أبي ، فلم يكن على بعضه ـ كما يقال ـ منذ أن عقدنا القِران

لكن ما فاجأنا ، أنه أطلق ضحكة عالية ـ أقصد أمريكي ـ ومن بين دموعه قال

الحمد لله ، البيت هناك واسع ، أربع غرف ، وبإمكانها أن تضع قدميها في واحدة منها

عندها تنفستُ الصعداء ، وأدركتُ أن غربة عام كامل لم تغير صديق العمر ؛ ولكُم أن تتصوّروا حجم الكارثة التي كانت ستلُمُّ بنا ، لو رمى البنت في وجوهنا وغادر دون رجعة إلا أن ضحكته انتشلتني ، بحيث غفرت له تماماً ـ وأقولها صادقاً ـ تجاوزه لي عندما خطبها وظل السؤال الوحيد الذي يطاردني ماذا لو حدث العكس ، هل كنتُ سأسامح نفسي؟!!

لكن أبي تغيّر ، ولم يعد أبي القديم

حاولتُ استدراجه للكلام ، فلم يتكلم فأدركتُ أن تربيته لي قد ذهبت هباءً

لليال طويلة كنت أراه في الحلم وهو يقول لي ما لهذا ربيتُكَ

ويعيدها مرة أخرى وأخرى

لقد شُرِخَ أبي

للحقيقة ، قلت إن معه الحق ، ما دام لا يعرف دوافعي ـ التي لا

أجرؤ على شرحها له ـ احتراماً ـ فهو من الآباء القلائل الذين يمكن القول إن لهم فلسفة واضحة في تربية الأبناء لا يتحدثون بها أبداً ، ولكنهم يدفعون الأبناء لكي يحسوا بها وهذا في الحقيقة أرقى أشكال التربية

وحين أقول ما أقوله أعنيه ، وأُدعِّمه بالعلم ؛ فقد درستُ في إحدى كليات المجتمع وتخرجتُ معلماً ، ورغم أنني لم أُعلِّم إلا أن هذه المسألة على درجة كبيرة من الوضوح ، وأعني الإبتعاد عن أسلوب التلقين ، وترك الطالب يكتشف بنفسه العبر والدروس من خلال الممارسة

قاعدة كهذه لا يمكن أن أنساها بسهولة ، لأنني لُقنْتُها بما فيه الكفاية طوال عامين دراسيين كاملين

لن أُطيل

أبي رحمه الله ، كان ذلك القائد التربوي فعلاً ، رغم أن كلمة (قائد) قد لا ترضي البعض ، وستعتبر مبالغة لا ضرورة لها ، إلا أنني أصرُّ عليها ، ولن أتزحزح عن هذا الرأي ما حييت

يمكن أن (أُوردَ) عدداً من الأمثلة هنا ، ولا أقول (أضرب أمثلة) خاصة انكم تعرفون رأيي في هذا المجال ، فالكلمة غير تربوية ؛ ثم إنه لا يعقل أن نستخدم كلمات قامعة في سياق الحديث عن الديمقراطية

هذا فصام

طبعاً ، الفصام مسألة معقدة ؛ وقد تمنيتُ أن ألعب دور رجل منفصم في التلفزيون

بالنسبة للسينما ، لم يصل طموحي في أي يوم درجة أن أُفكِّرَ بأن أكون نجماً سينمائياً ـ رغم أن العائلة لن تُحرمَ مستقبلاً من هذه الفرصة !! ـ وما دمنا نتحدث عن الأدوار ، فإنني وصلتُ إلى تلك الدرجة التي يمكن أن أُدعى فيها (نيزكاً) ، لأنني أضأت فجأة وانطفأت

هناك نجم سينمائي نعم وهناك نجمة نعم فلماذا لا يكون هناك

نيزك إذن ؟!!

لن أُطيــل

أن ألعب شخصية رجل منفصم ، ذلك يعني أن أتواجد مدة مضاعفة على الشاشة الصغيرة ، وفي ذلك تعويض عن الغُبن التاريخي الذي لحق بـــي على مستوى المهنة . لكنني ، وبعد أن عملتُ في الصحافة حمدتُ الله على أنني لم أقم بذلك الدَّور فقد (دققتُ) ، ولا أبالغ ، عشرات المقالات التي تتحدثُ عن سوءٍ ومغالطاتٍ كبرى يرتكبها العاملون في السينما والتلفزيون ، وهم يقدِّمونَ شخصية المُنفصم ، أو المنفصمة وقد شاهدتُ حلقة في التلفزيون ، كان ضيفها طبيب نفسي شهير ، أكد الأمر

وسط إجماع كهذا ، أي اتفاق التلفزيون والصحافة ، ما الذي يمكن أن يقال بعد ذلك ؟!

الجــواب في اعتقادي ، هــو أن أُصدِّق فالمسألة غير بعيــدة عن جوهر الديمقراطية ، ولا يمكن أن أصل إلى درجة من الرعونة تجعلني أضع نفسي في مواجهة الجميع

لن أُطيــل

كما تلاحظون ، ظلت السينما محور حياتي ، فما أن أبدأ بالحديث في موضوع ما ، حتى تُطلَّ برأسها ، وتصبح الموضوع الرئيس

كثير من النـاس يقولــون (الرئيسي) وهــذا خطــأ وأظنــكم تدركون الآن أن لدي بعض النزوات التي تدفعني لأن أكون ضد الأكثرية ؛ مع العلم أنني والله ، ومن زاوية نظر ديمقراطية بحتة ، أعيد ما يقوله الناس خطأ شائع خيرٌ من قول مهجور

في هذه المسألة ، كنت أختلف مع زميلي ، أقصد ذلك الذي قال (لا يستطيع أحد أن يأمن جانب المواطن) ، فلقد كنت بالنسبة إليه بمثابة (لسان العرب) ، وحتى لا أُجانبَ الصواب ، كنت ألتجيء إليه أحياناً

فـي بعـض المسائل الخفيفـة ، ولذا كان بالنسبة لي ـ ولـم يزل ـ أشبه بـ (الـمُنجد) !!

فــهـو لـم يقـتنع ـ مـثـلاً ـ أن تـلك الجـملة التي تَـرِدُ كـثـيـراً في افتتـاحية الصـحيفة ، وفي الأخبار ، وزوايا الزملاء الثابتة وغير الثابتة خطأ مـسـتـفحِل ؛ وأعني هنا جـملة ((تحيـة لأبطالنا الأشـاوس)) لأن الصـواب تحيـة لأبطالنا الشُّوس والخطأ متأت هنا من جـمع صـيـغـة (أفعل) الدالة على الصفـة المشبـهة على أفاعل (أشـوس ـ أشـاوس) وهذا ممتنع ـ كـمـا اكـتـشـفـتُ ذلك ، لأن جـمع (أفعل) الصـفـة ، إنما هو (فُعْل) فتجمع أصفر على (صُفر) ولا تُجمع (أفعل) على (أفاعل) إلا إذا أريد بها الإسم لا الوصف

ويمكن أن أورد مـثـلاً هنا ، كـمـا جاء في الكتـاب فلو اجـتـمع لديك ثلاثة أشـخـاص أو أكـثـر ، كل واحـد منهـم يُدعى أحـمـد ، أو كل واحـد منهم يلقب الأسـود ، فإنك تقول في جمع التكسير (اجتمع الأحـامد ، أو الأساود) ولا تقول الـحُمْد ولا السود

لن أطيـــل

بعـد ثلاث سنوات من العـشْـرة ، ومطاردة الأخطاء الإمـلائيـة منهـا والقواعدية ، أعلنتُ اسـتـسلامي ، لقد هُزمت ؛ إلا أن المعـركـة لـم تكن متكافـئـة أبداً ؛ فـحين صـحـحت في أحـد الأيام عنواناً رئيسـاً ، ونزلت الكلمة في الصـحيفة صحيحة ، وأعني هنا (الشّوس) ، هبّ في وجهي أكثر من مسؤول هابطين من الطابق الأعلى ، معتبرين أن في الأمر (إنًّ) وكـادت المسألة تتحول إلى ما يشبه القضية الأمنية ، لأنها ببساطة تمس أبطالنا ؛ ولـم ينقـذني من سـوء العـاقـبـة ، إلا كـتـاب (أخطاؤنا اللغـوية المستفحلة) الذي كنت أعتبره مرجعي الأول في هذا المجال ، فلم أكن أفارقه

حـين أشـهـرته في وجـوههم ، ارتبـكـوا لحظات ، ثـم تنـاولوه من بين

يـدي ، وقـالوا هذا سـبب المشكلة إذن وصـعـدوا به من فـورهـم إلى أعلى ، فـأدركت أنني هالك لا محـالـة ؛ وقـد كنت سـأهلك فـعـلاً ، لولا لطف الله الذي ما كـان سيـحـرمني من الفتـاة الجمـيلة جداً جداً ، نتيـجة رأي لغوي ليس لي في الأساس وظلَّ زميلي صاحب الرأي المعروف في المواطن ، يتأملني شامتاً طوال الوقت

بعد عمر طويل !! ، هكذا أحسست ، هبطوا الدرجات ، فتيةٌ شديدو البـأس ، تراجعتُ ، إلى أن أعلن الحـائط خلفي وقْف تراجعي ، ولـم يكن الكتـاب بين أيديهم قلت ضـاع المسكين ، لقـد جنيتُ عليـه ، حين أعلنته مرجعاً ، وقد كان يمكن أن أُخفيه كواحد من أسراري ، وما كان ذلك سيرهقني ، لأن أسراري الخاصة أقل من إصبع واحد

ـ ما دمتَ تعمل في الصحيفة ، فإن عليك أن تلتزم بها وبمصطلحاتها مفهوم ؟

قالوها بصوت واحد

لم أقل شـيـئـاً ، ولم يكـن مطـلوباً مني أن أقـول ، لا لشـيء إلا لأن وظيفتي لا تتيح لي إلا أن أسمع

لن أطيـــل

أين كنتُ ؟!!

آه

لو كان أبي حياً وسمع القصة لقال ما لهذا ربيتك !!

فـقـد كـان رحـمـه الله أسـتـاذا كـبيـراً ، رغم أنه لم ينل من التعليم إلا أقله

وأظن أن هذه هي المفاجأة

إنه ابن التجربة بشكل من الأشكال

وسأورد هنا مثالا واحداً ، من تلك الدروس الكثيرة التي علمنيها ، وإن كنتُ أخشى أن يظنّ بعض الناس ، انه درس قليل الشأن .

المصروف ، أقصد المصروف اليومي ، مسألة حساسة ، ومركزية في حياة الأطفال ؛ ولأننا كنا اثنين فقط ، أقصد أنا وأختي فإن مصروفنا كان أعلى بكثير من أي مصروف لطفل يعيش في كنف أسرة مكونة من عشرة أفراد وخلافاً لعدم الثقة التي ينظر بها الآباء تجاه أبنائهم ، حين يُنَقِّطونَ المصروف عليهم ، نقطة نقطة كل صباح ، فإن أبي كان يفعل العكس

في البداية ، كان رحمه الله يمنحنا مصروفنا بصورة يومية ، ثم لأسبوع كامل ، لأسبوعين ، لثلاثة أسابيع ، وحين استطعتُ أن أكون فعلاً عند حُسن ظنّه ، أصبح يعطيني المصروف مرة كل شهر ، أي مصروف الشهر كاملاً وهكذا ، كنت أُمسك بيدي ما لا يحلم طفل آخر بأن يراه أو يمسكه بيديه

لن أطيـل

بدأ الأمر كالتالي

ناولني في البداية ، مصروف يوم واحد ، كعادة الآباء ، وسألني في نهاية اليوم ماذا فعلت بمصروفك ؟!

قلت إشتريتُ (حُلْقوماً)

ولم أر لحظتها إلا الشرر وهو يتطاير من عينيه ، ورقبتي تهوي تحت ثقل صفعته القوية ، ورأسي الذي يصطدم بالأرض ، يدور ويدور

عرفتُ ، حتى ، دون أن يقول لي ، أنني ارتكبتُ خطأً ، ليس أقل من فادح وعندما فكّرت في المسألة ، وحيدا تحت اللحاف ، خيِّل لي أن الحلقوم هو السبب ـ لم أكن أيامها قد أدركت بعد ، أن هنالك دائماً أكثر من سبب ـ فعقدتُ العزم على ألا أشتري الحلقوم أبداً ليس هذا فقط بل وصلتُ إلى نتيجة حاسمة لا أريد المصروف أيضاً ـ يبدو أن إحساسي بما يسمى الكرامة الشخصية كان متضخماً قليلاً ـ لذا ، حملتُ حقيبتي المدرسيّة في الصباح التالي ، وعلى رؤوس أصابعي تسللتُ لم

أكن قد بلغت عتبة الباب حين أتاني صوته رقيقاً دافئاً
نسيتَ أن تأخذ مصروفِك يا بطل !!
عدتُ ، تناولتُ مصروفي ، وخرجتُ
في المساء ، سألني ماذا فعلت اليوم بمصرفك ؟
فحاولت أن أبدو ذكياً ، لكي يفخر بقدرتي على حفظ الدرس من المرة الأولى قلت مبتسماً
إشتريت (كرابيج حلب)
طارت يده إلى عنقي ، قبل أن يطير الشرر من عينيه ، فوجدتُ رأسي يدور ثانية ؛ ولم يتكلم معي طوال السهرة ؛ أي حتى الثامنة ـ موعد نوم الجميع فلم يكن التلفزيون قد ولد بعدُ في بلادنا تلك الأيام ، ولا من يحزنون ، أقصد المتفرجين ، ولا من يبكون أو يبكين ، وأقصد الممثلات الجميلات والممثلين
وكما في الصباح الأول ، تكرر الأمر في الصباح التالي
نسيتَ أن تأخذ مصروفك يا بطل !!
عدت ، تناولت مصروفي ، وخرجت
في المساء ، سألني ماذا فعلت بمصروفك ؟
فقلتُ مرتجفاً إنه معي
وتوقعتُ هبوب اليد وتطاير الشرر ، إلا أن توقعاتي كانت في غير محلها
بعد أربعة أيام قال لي هذا مصروف الأسبوع ، ولكن دير بالك!
كبيراً كان المبلغ ، إلى درجة بدأتْ معها يدي ترتجف فرحاً وخوفاً
في نهاية الأسبوع سألني عنه ، فقلت إنه معي
فأصبحت ابتسامته أعرض ، وبريق عينيه أكثر التماعاً
وهكذا ، ظلَّ يتدرج صعوداً ، حتى أصبح يناولني مصروف الشهر كاملا ، دون أن يخشى شيئاً فقد أثبتُّ بالدليل القاطع أنني على

مستوى المسؤولية ، وحسن ظنه ، حين تعلمتُ الدرس ؛ لكنني لم أفهمه كما يجب إلا متأخراً ، وبالطبع فهمتُ الوالد أكثر ، وفهمتُ الديمقراطيةَ ما أن وصَلَتْ لذلك ، أصبحت أرى زعيق المعارضين تطاولاً ليس فيه أي احترام للدولة ، لأنه عيب في اعتقادي ، ونكرانٌ للجميل

نعم ، هنالك أشياء ممنوحة لنا ، ولكن لا يجوز أن نتصرف فيها

فكرمُ الحكومة ، أيّ حكومة ، يتمثلُ في أن تمنح الناس الديمقراطية ، وتُسَهِّلَ وصولها هذا الأمر لا جدال فيه ؛ ولكنَّ كرمَ الناس تجاه الحكومة يتمثلُ في ألا يستغلوا هذه الديمقراطية لمناكفة الحكومة ونزع الثقة عنها لماذا ؟

لأنها هي التي منحتنا ثقتها أولاً ، حين أشرعت الباب للديمقراطية كي تدخل حياتنا

إنتهيت !

كان ذلك فصل

العودة إلى فلسفة المنزل وديمقراطية الوالد

ويليه فصل

العودة إلى فيلم E.T والتفسير الكوني لظاهرة الإختفاء

حين ألقى نظرة

بعيدة المدى

على مجمع سيارات رغدان ، عبر كثافة الأعلام التي كانت أعدادها تتزايد كلما اقترب من قلب البلد أكثر ، أيقن أن الأمور قد حُسمت ولكن ليس لصالح سكان عمّان

خطرَ له ما خطرَ منذ البداية ، لكنه لم يجرؤ على الجهر به

لأسباب كثيرة

أولها عدم الإقدام على التسرع في المسائل المعقدة وثانيها إنكاره بشكل خفي لما يحدث أمامه ، لأنه ببساطة غير معقول

وقد فكّرتُ أيضا في احتمال خداع البصر ، كأن يكون الأمر كلّه ظاهرة سرابية معاكسة لا غير ففي ظاهرة السراب ، يهيأ لنا أننا نرى الماء ، وفي ما يمكن أن أدعوه واثقاً الآن (ظاهرة عمّـان) ، يهيأ لنا اختفاء البشر وسواء أكان الإختفاء شكلاً من أشكال خداع البصر ، أم حقيقة ،

فإنه قائم منذ ساعتين متواصلتين ، ولم تصدر أي إشارة تفتح بابا للأمل لفهم ما يدور

في محاولة لأن يجد تفسيراً مقنعاً ، كان لا بد من تفسير كوني للظاهرة ، بعد أن إستبعد تماماً ، أن تكون الحكومة قد تصرَّفت بالمواطنين

فمن أين لها أن تأتي بمثلهم ثم ، ماذا عن الوافدين عمالا ومهجّرين ، ماذا عن السياح الأجانب من الدول العظمى ، والأقل عظمة؟

قلَّبَ الأمر على نار حارة

هل تستطيع أي حكومة التصرُّف بهم هكذا ؟ مستحيل لقد كانت الحكومة دائماً أعقل من أن تفجر أزمات دبلوماسية على هذا المستوى

يبقى تفسير واحد ، لا غير

غزو كوني نعم غزو كوني

فمنذ مدة ، يمكن القول ، طويلة ؛ لاحظ أثناء انهماكه في تدقيق المقالات ، أن عدوانية سكان الأرض في تزايد مستمر

ليس على مستوى علاقاتهم ببعض ، التي لا يمكن القول بأنها كانت جيدة في أي يوم ، بل على مستوى علاقاتهم بالعالم الخارجي

هنا ، أحس أنه أمسك بطرف الخيط استعاد بهدوء عناوين ومضامين الموضوعات التي قرأها ، فتأكد أن ما يفكر فيه محتمل تماماً

الصحافة ونقاد الفن أججوا بشكل خاص نار العداء

وإذا ما أراد أن يُلخِّص المسألة في جملة واحدة فإنه سيقول

لقد بالغ أهل الأرض في تحرشهم بسكان الكواكب الأخرى

ولم يكن فيلم (يوم الإستقلال) في نظره أول التحرشات ، ولا آخرها ، فقد جاء بعده فيلم (غزو المريخ)

الذي أظهر الأخوة القادمين من هناك بمنتهى العدوانية ولو أخذنا الأمر بمنطق الأرض نفسها ، أي منطقنا نحن ، لقلنا إن الأخلاق تقتضي

أن نكون أفـضل من ذلك بكثـيـر ؛ فـسكان المريخ يعـتـبـرون من الجيران .وأذكركم بأن النبي عليه السلام أوصى بسابع جار ، وقد يكونون الجار الثالث أو الرابع على أبعد تقدير

لقد شاهد الفيلم ـ من باب العلم بالشيء ـ وأحسَّ طوال فترة العرض ، أن ثمـة من يُقطِّع أمـعـاءه ، وهو يرى الجـيـران وقـد أُظهِـروا بكل تلك العدوانية ، وذلك القبح

مع أن صور كوكبهم تدلُّ على أنه أجمل من كوكبنا !

كما أن عدد المقالات

الهائل

التي دقـقـهـا حول فيلم (يوم الإستـقـلال) دفـعـته للذهاب إلى قـاعـة (سينما فيلادلفيا) ومشاهدته في حفلة السادسة والنصف

صامتاً خرج من السينما ، غير مرتاح على الإطلاق

يمكن أن أذكر هنا ثلاثين سبباً على الأقل

وباحثاً عن حكمة الفيلم التي جعلت أمريكا وحدها تتصدى للغزو من دون مدن الأرض كلِّها

وبعيداً عن أي تعرُّض أو تعريض بشخص الرئيس الأمريكي ، الذي كان طياراً قبل انتخابه ، وقاد الأسراب الجوية لمواجهة السفينة الفضائية ، التي يصل عرضها إلى أربعة وعشرين كيلو متراً ؛ وفشل الجميع في خدش طلائها ، ونجح صاروخه هو راح يفكِّـر

أعرف بالطبع أن ناطحات السحاب المستخدمة في الفيلم كانت مصنوعة من البسكوت ، لكن هذا نفسه لا يقلل من شأن المركبة الفضائية المصنوعة من الخشب ، وقوتها

وحين انحدر مع انحدار طلعة (جبل عمان) التي غدت نزلة بنزوله ، قاصدا قاع المدينة . .

من عـاداتي أن أعـود راجـلاً للبيت ، إذا مـا شـاهدتُ فـيلمـاً يدعـو للتفكـير

أيقن أن حجم الإستهتار بقدرات الجيران ، قد بلغ الزُّبى ، وأن الإهانة التي وجهت إليهم هذه المرة لا تُغتفر وفي موجة تعاطف بلغت ذروتها مع وصوله إلى ساحة (المسجد الحسيني) ، أطلق على الفيلم اسماً جديداً هو (يوم الإستهتار)

لأن هذه التحرشات وهذا الإستخفاف بالآخرين ، سيدفع ثمنهما سكان الأرض غالياً ، يوماً ما ـ أرجو ألا يفهم ذلك على أنه نوع من العداء لأمريكا ـ وها هي عمّان تدفع الثمن

وأوشك أن يصرخ

الدنيا سينما ، رحنا ضحية هوليوود

هـو ، يحب الدقة ، فبعـد أن أصبح الأردن دولـة حليفـة لأمريكا لا يستطيع القول احتراماً للمعاهدات التي توقعها الدولة

رحنا ضحية أمريكا

كـمـا لا يمكـن أن يقـول إن سكان الفـضـاء قـد طمـعـوا بنا بعـد أن أعلنّا التزامنا بمعاهدة الحد من انتشار الأسلحة الكيماوية والنووية

لأنهم لا بد يعرفون أننا لم نمتلك يوماً مثل هذه الأسلحة

وصوله إلى هذه النتيجة شغل باله أكثر ؛ فلعن الشيطان الذي راح يوسوس في صدره

إذا كانت عمان قد ذهبت ضحية اعتداء جيرانها ـ سكان الفضاء فإن ما يحدث هو بمثابة رسالة تحذير إلى أمريكا نفسـهـا ، بعـد توقـيعنا اتفـاقـيـة تحالف معـهـا ؛ فليس هنالك تحذير أقـوى من ضـرب حليف لردعها ، بحيث تكفّ عن توجيه إساءاتها المتكررة التي تجني من خلالها مليارات الدولارات

وفي غـمـرة انهـمـاكـه ، أدرك لأول مرة ـ للأسف بعـد فـوات الأوان ـ أن

هناك نقطة مهمة لا بد من وجودها في اتفاقية التحالف الأمريكية الأردنية ، ألا وهي
حماية الأردن من الإعتداءات الفضائية ، أو تحييد الأردن في حال وقوع نزاع على هذا المستوى . وإلا فإن المعاهدة تكون ناقصة

الأنانية المحضة ، قد تدفع الإنسان للإكتفاء بنجاته ، وإدارة ظهره لما يدور ؛ كأن يصرخ مثلاً وانا مالي !!
لا ، لن يقولها
ثم من يعرف ، فقد يكون سكان الفضاء تركوه حياً لكي يبلغ رسالة ما للأمريكان
فالذي جعل سكان الفضاء يصبرون طويلا ، يجعلهم يصبرون ساعات أخرى قبل تكليفي بالمهمة

إذا ما عدنا للوراء قليلاً ، إلى سنوات خلتْ ، فإن فكرة انتقام سكان الفضاء من أهل الأرض ، لم تكن مجرد خاطرة ، تأتي وتذهب بل كسيناريو كامل لم يبح به ، حتى لصديق عمره الوحيد (أمريكي)
لم يكن العيب في السينما ، بل في ذلك النوع المتطاول من العاملين فيها ، الذين مهدوا الطريق لـ (يوم الإستهتار) بمئات الأفلام المشابهة
وحتى لا يظن أحدٌ أن انتقاداته موجهة للنيل من زملاء المهنة ، في السينما العالمية ، فإنه يعترف أن بداية التعاطف الغاضب ، انطلقت من
عنزة شامية
فذات يوم لاحظ تلك العنزة مربوطة في الزقاق الصاعد باتجاه بيت (أمريكي) ؛ وتقتضي الإشارة هنا أن الأفكار التالية

ليست موجهة لتحقير أصحاب العنزة مطلقاً

كان ابنها ، يحاول الوصول إلى ثديها ، دون جدوى ؛ فقد كان الثدي محشوراً في كيس من القماش المتسخ ، ومعقوداً بإحكام بخيطين سميكين أعلى ظهرها

عندها أدرك للمرة الأولى مدى أنانية الإنسان ، بحيث وجد نفسه أمام السؤال الكوني الرهيب

ماذا لو غزت كائنات فضائية الأرض ، وعاملت الناس كما يعامل الناس الحيوانات ؟!!!!

كان التعاطف مع سكان الكواكب في بدايته ؛ وقد أراحه قيام سبيلبيرغ باخراج فيلمه (E.T) الذي أظهر الكوكبيين بمظهر إنساني دافيء وحميم وكنوع من التعاطف مع سبيلبيرغ وفيلمه ، قرر أن يدعم الفيلم ولم تكن لديه وسيلة أفضل من حضوره

عشرات المرات

ليس هذا فقط ، بل قام بدعوة صديق عمره لرؤية الفيلم على حسابه الخاص ، مرة تلو أخرى ، إلى أن قال له أمريكي

خلاص ، حفظته ، شوفه لحالك

فواصلٍ حضوره وحيداً وعندما بدأت إمارات التعب تظهر على جيبه ، فكّر بمفاوضة دار (سينما رغدان) بشأن أسعار التذاكر لكنه تراجع ؛ فما دام الهدف دعم الفيلم ، فليس من المنطقي أن يشتري تذاكر مخفضة ؛ وقد كان يعرف أن المدارس أحياناً تفاوض دور السينما والمسارح للحصول على أسعار رمزية لطلابها وطالباتها

لن نطيل

قبل الوصول إلى فكرته

الخلاقة

تلك التي بنى عليها أحد أهم سيناريوهات حياته ، وبلغ فيها تعاطفه

مع سكان الكواكب ذروته ـ لا بد من الإشارة هنا إلى أنه كان نباتياً ـ ولذلك أسباب ، من بينها حكاية العنزة الشامية ، لكنها تعتبر متأخرة عن السبب الأول ، أو الحكاية الأولى !!

فما حدث معه في موضوع المصروف اليومي ، حدث معه في موضوع اللحم توضع قطعة اللحم في الصحن ، يجلسون لتناول طعام الغداء يحاول أن يمدّ يده إليها

أي قطعة اللحم

فتنهره أمه أختك الصغيرة استحتْ تمد إيدها !

وأحيانا تقول إذا أكلتها حضرتك ، شو راح يظل لأختك الصغيرة؟!

وهكذا ، وطّنَ النفس على ألا يمد يده لأي قطعة لحم أبداً ، أياً كان مصدرها وتدريجياً ، أصبح يبدي تعاطفاً خاصاً مع دجاج المزارع الأبيض ، الذي اقتحم الحياة الغذائية للناس فجأة ، ورفع جزءاً غير يسير من المعاناة عن كاهل الدجاج البلدي الذي كان يُذبح في المناسبات وواصل حمل العبء أكثر فأكثر

حتى نسي الناس أن الدجاج البلدي يؤكل

ثم جاء تأمله العميق فيما بعد للعنزة الشامية ، وأنانية البشر الذين يحرمون الصغير من حليب أمه ، وصُعِّدَت الفكرة أكثر حين أخذت بعداً كونياً ، فأعد السيناريو التالي كاتب سينمائي نباتي

لست أنا !

يتخيل حربا كونية ـ نتيجة التطاول المستمر لسكان الأرض ـ لا ينجو منها سوى عدد قليل من البشر

يتأمل الكوكبيّون الناس ، بعد وصولهم للأرض ، فيجدونهم شبه متشابهين ، بل وغير جميلين ، وألوانهم باردة ، لا حرارة فيها ، بعكس الطيور والنمور والخيول

ويجدونهم كما لو أنهم صُبّوا في قالب واحد

الحجم نفسه تقريباً ، يزيد أو يقل

وتزايد إعجابه بالفكرة ، على الرغم من عدم وجود دور له في السيناريو لكن مشكلة صغيرة برزت ، تتعلق بالأقزام ، كادت تعصف بكل شيء ، لولا أنه استطاع الوصول إلى حل مؤقت ، بانتظار الوصول إلى حل دائم

سيعتبرهم الفضائيون جزءاً من الأطفال ، وسيحيرهم أنهم لا يكبرون ، وفي ذلك قليل من الكوميديا التي تخفف من آثار الحرب الكونية المفترضة

يبني الفضائيون حظائر للبشر ، على غرار حظائر الحيوانات ، وينقلون الحيوانات لتعيش معهم في بيوتهم الكبيرة التي يبنونها بعد تذويب بيوت البشر أو نقلها بالأشعة إلى كوكب ناء ولأن سكان الفضاء عمالقة - حيث يتيح لهم حجم كوكبهم الأصيل ذلك - فإنهم يتنزهون في المساءات الجميلة على شواطيء البحار والبحيرات وضفاف الأنهار وأرصفة الشوارع التي تخلو تماما من السيارات وهذا أهم شيء

وفي أيديهم حبال

من الأشعة طبعاً

تلتف نهاياتها على رقاب نساء ورجال غلاظ و يمكن أن تحدث أشكال من سوء التفاهم بين القادمين كأن يقوم رجل يربيه فضائي ما بعضّ طفل فضائي أو أن امرأة تهرب من حظيرة وتذهب إلى بيت وتفسد محتوياته كما تفعل أي قطة شرسة في أيامنا هذه

البشر سبب المشاكل ، حيثما وضعتهم !

وهكذا ، يصبح بإمكان الفضائيين أن يذهبوا إلى محلات السوبر ماركت العملاقة ، لشراء حليب النساء المعقم ، أو نوع من الألبسة المطورة الصالحة لجو الأرض مصنوعة من شعر بشري ، ليس لتدفئتهم هم ، أو لتغذيتهم ، بل لتدفئة الحيوانات

وبالطبع ستبدو أصوات البشر غير مفهومة ، وسيبدو غناء أي عصفور أجمل مئآت المرات من صوت أي مغنية ، وستبدو سرعة الحصان ـ وهذا ما سيدفع الفضائيين إلى مصاحبته ـ أطرف وأكثر تطوراً من سرعة الإنسان البطيئة ؛ وستظهر هنا من جديد فكرة البشر التي كانوا يطبقونها على خيولهم التي تهرم

أي طلقة الرحمة

حيث سيتم اطلاق أشعة الرحمة على البشر الذين يهرمون

وأمام هُزال المجموعة البشرية الواضح ، سيتذكر الفضائيون الأفلام التي كانوا يلتقطونها وهم في الفضاء ؛ تلك التي قام ببطولتها أرنولد شوارزينغر وسيلفستر ستالوني ، وسيرسلون أبناءهم الصغار للبحث عنهما ، حيث يعثرون عليهما متخفيين كعجلين ضخمين في سهوب غواتيمالا

أرجو ألا يفهم من هذا الكلام أنني أحاول النيل منهما ـ وأقولها للمرة الثانية ـ كزميلي مهنة

يقتادهما أطفال الفضائيين إلى الحظائر البشرية لتحسين النسل

ولاحظوا ، هنا ، أنني ضربت عصفورين بحجر واحد ، لأنني جمعتهما معاً ولأول مرة في فيلم مشترك

ويصمت قليلا ، حين يكتشف أنه لم يزل يفكر بشكل أرضي

ان تعبير (ضربت عصفورين بحجر واحد) سيكون مجرد خطأ ، إذ سيكون الشائع قول (ضربت آدميين بحجر واحد ، أو بحزمة أشعة واحدة) كي تستقيم العبارة

لكن وصول شوارزينغر وستالوني ، لا يغير شيئاً مع الأيام وبسبب نظرة الفضائيين لهما كإثنين نكّلا كثيرا ببني جلدتهما ، وفرّا عندما جد الجد ، فإنهم يعاملونهما بشكل قاس وعندما يتفقان أخيراً على أن يتّحدا !! ، بعيدا عن صراعهما القديم على احتلال المركز الأول في أفلام العضلات ، يتحولان بين أيدي أطفال الفضائيين إلى مجرد كُرَتَيٌ تنس

طفل ينفخ ، فيطير شوارزينغر في الهواء عبر نهر التايمز مثلا أو نهر هدسون ، وعلى الطرف الآخر ، ينفخ طفل آخر ، فيرجعه إلى الضفة الأولى ، وكذلك يجري التعامل مع ستالوني

فتصوّروا !!!

وهنا ، وفي هذه النقطة بالذات يشكل بعض الفضائيين جمعية هي الأولى من نوعها في العالم الجديد ألا وهي (جمعية الرفق بالبشر) فتنتشر المحميات في كل مكان ؛ ولكن بشكل تدريجي ، ولن تتحقق النتائج المطلوبة قبل عام ٢١٢٣

إذا كنا تقليديين !! سنقول وهنا ينتهي الفيلم لكننا لن نقول ذلك

فبعد تصوير الفيلم يعرض في قاعات العرض العالمية ، في وقت واحد ؛ ونرى تدفق البشر على الصالات من الصين حتى فرانسيسكو ، ومن بحر سيبيريا الشرقية حتى جزر شينلند الجنوبية هذا الجزء هو ما قبل البداية ولأن الفيلم يبث من هوليوود إلى قاعات العرض مباشرة

كما تأكد لي من خلال تدقيق خبر عن هذه التقنية الجديدة التي ستطبق مستقبلاً

فإن اثنين من الفضائيين المشاغبين الساهرين

في كل مكان من هذا العالم لا بد من وجود ساهرين قلقين ومشاغبين أيضاً

يلتقطان الفيلم وتستهويهما الفكرة ، فيجمعان عصابة قوامها سبعة الآف مركبة فضائية ، ويتوجهون للأرض

كما ترون انني موضوعي حتى في نظرتي لمن أحبهم ، ولا أسمح تحت كل الظروف أن يقال فيَّ (ومن الحب ما قتل)

يبدأ الناس بالخروج من القاعات ، وهنا تبدأ النهاية الثانية للفيلم ، التي لا تزيد مدتها على خمس دقائق وفي هذه اللحظات يسمع الناس

هديراً مدوياً قادماً من السماء

ينظرون إلى أعلى ، فإذا بالمركبات قادمة وهنا ينتهي الفيلم

ملاحظة أخيرة إذا استهوتكم الفكرة ، فإنني سأعترف بتواضع شديد أنني صاحبها ، ولذا لا يسمح بإعادة إصدار أي جزء منها أو تنفيذها سينمائياً أو تلفزيونياً أو في نطاق استعادة المعلومات أو الإفادة منها بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق مني

ملاحظة ما بعد الأخيرة

فكرة وجود أكثر من نهاية ـ للأمانة ـ ليست من بنات أفكاري ، فأنا ، حتى ، غير متزوج ، هأ هأ هأ وقد اعتمدت على مقال دققته يتحدث عن إمكانية وجود أكثر من نهاية للفيلم الواحد ، بحيث يختار المشاهد النهاية التي يريد من بينها ؛ لكنني طورت الفكرة ـ كما تلاحظون ـ لكي لا يتمكن المشاهد من اختيار ما يريد بسبب الفحوى العامة لرسالة الفيلم

ملاحظة ، لا ملاحظات بعدها

للأمانة أيضاً ، اعتمدت خريطة العالم مرجعاً علمياً كي أُحدد بحر سيبيريا الشرقية وجزر شينلند الجنوبية ؛ فقد كنت أسمع بسيبيريا كثيراً ، ولكنني لم أكن أعرف أن هناك سيبيريا شرقية ، ولم أكن أعرف أن لديها بحراً أيضاً ؛ أما جزر شينلند فلم أكن قد سمعتُ بها من قبل

كان ذلك فصل

العودة إل فيلم E.T والتفسير الكوني لظاهرة الإختفاء

ويليه فصل

العودة إلى الوقوع في حب طائري (فري)

بين أن يصعد طلعة (الشابسوغ) أو يواصل السير في اتجاه الشارع الرئيس ماراً بـ (حلويات حبيبة) ، إختار الحلويات

مذاق الأشياء بدا مرّاً منذ الصباح

وبعيدا عن (إشكالية) الحلو والمر

الكُتّاب يحبون استخدام هذه الكلمة ، التي أشبعتها فاتن حمامة بحثاً وتمحيصاً في فيلمها الشهير (يوم حلو ويوم مر)

كان أكثر ما يشغله فرصة العثور على بشر في ساحة (المسجد الحسيني)

بشر مثلي

استطاعوا النجاة بأعجوبة

بالنسبة لي ، لم أعرف حتى الآن ، إن كنت نجوت بأعجوبة ، أم لا ، أم أنني لم أنجُ

من بعيد لاحت المئذنتان ، الطويلة والقصيرة ؛ وتدريجياً بدأت

الساحة نفسها بالظهور وقد أوشكت أن تختفي لكثرة الأعلام ومن فرط انفعاله ، حاذى حلويات (حبيبة) دون أن ينظر إلى الداخل ، لإحساسه الخفي أن طعم فمه قد لا يتغير إلى زمن طويل

أمه كانت تقول له إستغفرْ الله كلما ضربت عاصفةٌ الأرضَ أو دوّى رعدٌ مزمجرٌ في السماء الرمادية المائلة للسواد وقديماً كان الوضع أصعب بكثير ، حين يندفع السيل هادراً في (وادي الرِّمَم)

ليس هناك ما يمكن أن يُفسَّرَ في الإسم ، فهو مُفَسِّرٌ نفسَه بنفسه

شارعاً ضيقاً مُحفّراً كان ، محصوراً بين جبلين شهيرين (جبل التاج) و (جبل النصر) ، لا تعبره سوى القلاّبات التي تنقل ما تجود به الكسارات على أهل عمّان ، كي يبنوا بيوتهم وعلى جانبيه كانت جيفُ الحيوانات باستمرار ، وكان الحطام ، وما تُخَلِّفُهُ صهاريج النضح وراءها من روائح منبعثة من السيول السوداء وكان (بير الطيّ)

الذي بلا قاع ؛ حيث يلقي الأولاد بحجارتهم فيه لتسقط بعيداً في الجهة المقابلة من الأرض ، بعد أن أثبت لهم أساتذة العلوم ، وأثبتوا هم بالدليل القاطع كروية الأرض

لم يسمع أيٍ منهم صوت ارتطام حجره بالقاع

كانت بئراً كونيةً بكل معنى الكلمة وقد أجادت المطربة (سلوى) حين أتحفتنا ، وظللتْ طفولتنا بأغنيتها الشهيرة (بين الدوالي) حين غنّت أيضاً

على بير الطَّيْ لاقاني ولاقيته
على بير الطَّيْ
أحسن من الخَيْ واغلى من عيوني
واحسن من الخَيْ

ذهبت الأغنية بعيداً ، لم يعد يذكرها الآن حتى أنا ، وإن بقيت في شك فيما إذا كانت (سلوى) تقصد هذه البئر أم بئراً سواها وذهبت

طفولتنا بالطبع

لم يجد تفسيراً لانهيال الذكريات هذا ، إلا أنه نوع من الوداع
كأنني سأموت
ثمة شيء يثبته في المكان ، كما لو ان الأرض تطبق على قدميه
بصعوبة تحرك ، حين انطلق محاولا إبعاد الفكرة
لو كنت سأموت ، لمتُّ مع من مات . لو كنت سأختفي
لاختفيت مع من اختفى
وعاوده الأمل
من هو ذلك الأحق مني بالنجاة ، إذا كان الأمر متعلقاً بغزو كوني للأرض ، فهم لا بدّ يعرفون تماماً شعوري نحوهم ؛ ولا بد أن يكونوا قد رأوني ، وانتبهوا إلى عدد مرات حضوري لفيلم E.T واكتشفوا حجم المحبة التي أُكنّها لهم مَن لهم سواي أصلاً
على يقين كان ، وكما يوضح الصورة بنفسه
انهم يقومون بمراقبتنا من فوق ، كما نجلس لمراقبة قرية للنمل تماماً هنا
وحمد الله كثيراً ، انه عاش حياته كلها ، أجل كلها ، طولاً وعرضاً دون أن يعادي أحداً
هنا أو في العوالم الأخرى
ليس هنالك ما هو أجمل من راحة الضمير ، هو يدرك ذلك ، ولذا ، لم يجد نفسه يوماً من الأيام في موقف صعب ، كأن يطلب المغفرة بسبب ذنب ارتكبه مضطراً ، بل كان يحس أنه يعطي حين يطلب المغفرة عن ذنوب لم يرتكبها
وصل إلى ساحة المسجد الحسيني ، شاقاً طريقه عبر الأعلام ، ألقى نظرة عبرَ البوابة الرئيسة ، لم ير شيئاً ، فكّرَ بالدخول ، إلاّ أنه كان

يخشى الأماكن الواسعة الهادئة ، فأطلق صرخة تشبه إلى حد بعيد صرخة سمعها ذات يوم في أحد الأفلام

يا أهل الله ، هل يوجد أحد منكم هنـــا ؟!!!

هنا .هنا هنا . هنا نا نا نا نا نا نا

تردد صدى صوته بين جدران المسجد ، واتسعت دائرته فواصل تردده في الشوارع المحيطة ، ثم في القبة الفضائية المحلقة ما بين (جبل الجوفة) و (جبل الأشرفية) و (جبل عمّان) و(جبل القلعة) مما جعل الأعلام تخفق بقوة

كأنها المرة الأولى التي يسمع فيها صوته

انسحب خائفاً متسللاً على رؤوس أصابعه ، وهو يحس أنه يسير إلى ما لا نهاية داخل غابة من الصدى ؛ وطويلاً ظلَّ هكذا ، إلى أن أيقن أخيراً

ان غلطة كهذه ، لا يجب أن تتكرر

***

عندما وصل إلى (مطعم السلام) ، ورأى الفروج يدور على الأسياخ في (المشواة) الكهربائية ، أصبح متأكداً من أن سكان عمّان غادروا منازلهم بشكل طبيعي صباحاً كما يفعلون كل يوم

فهم من أنشط كائنات الأرض ، وإلا لما كان ذلك الكاتب قد كتب يصف مدينتنا قائلاً (مدينة تنام مع الدجاج وتصحو مع الديوك) شيء ما باغت الديوك إذن في الصباح ، ولم يستثنِ الدجاج أنا أعرف متى تنام الدجاجة بالتحديد ، رغم أنني لم أربِّ دجاجة ذات يوم ؛ وخبرتي في هذا المجال ـ وأقولها بتواضع ـ محصورة في عادات طائر (الفِرِّي) ، وحين أقول (خبرة) أعني ذلك تماماً ، فلقد تعمَّقتُ في أدقّ تفاصيل حياة هذا الطائر ، وعايشته ، كما لو انه أخي الذي لم تلده أمي

في لحظة حاسمة كهذه ، يدرك سعيداً ، انه كان على صواب دائماً ، حيث لم يبدد حياته في أي أمر بصورة سطحية فحين كان يُقبل على مجال جديد ، ينهل منه حتى يرتوي ، بحيث لا تبقى هناك صغيرة أو كبيرة إلا ويعرفها ؛ يتعمق ويتعمق ، إلى أن يستطيع القول بجرأة إنه خبير

ومسألة طائر الفرّي نموذج صغير ، ليس إلاّ

فقط لو كنتُ كاتباً !!

سائراً في شارع (الملك طلال) كان ، يوم جمعة

أكره أيام الجمعة

بائعات الأوز والبط وبائعو الحمام والعصافير والدجاج الفرعوني والبلدي يملأون الرصيف بصعوبة استطاع شق طريقه بين الجموع الذين يحاولون استراق النظرات من فوق أكتاف بعضهم بعضا لرؤية تلك الطيور في الأقفاص

دائماً كنت أتمنى أن يكون لدي قفص وعصفور ؛ عصفور واحد على الأقل حاولت قولَ ذلك لأبي ، من خلال همسة همستُها في أذن أمي - رحمهما الله - إلا انه رفض ففهمتُ أسباب رفضه ، رغم أنه لم يقلها لي ، ولم تقلها أمي

بين الأقفاص ، لاحت له في قعر (كرتونة) عالية الحواف ، مجموعة من الطيور الترابية الـمُرقَّطَة

أحببتها فوراً

جميلة ورشيقة كانت ، وذات عيون عسلية صافية عرفها ، إنها طيـور الفري

صحيح أن مجال الطيور ليس من اختصاصه ، إلا ان ذلك نوع من المعلومات العامة

الشيء الذي أثار حيرته ، ان الحمام محشور في أقفاص ضيقة مع أنه

طائر منزلي ، والفري في كرتونة مفتوحة السقف ، مع أنه طائر بريّ
نعم ، عالية الحواف .، إلا أن ذلك غريب ، غريب حقاً
وحاول أن يهتدي لحكمة من هذا كله ، فلم يعثر عليها
كنتُ أيامها لا أدرك بعد ، أن الحكمة لا يمكن التقاطها عن الأرصفة بسهولة
لكنه نجح في التقاط طائري فرِّي ، أشار إليهما بطرف إصبعه
هذا .و . هذا
بائعو العصافير والطيور مخادعون ـ هذا رأيه فيهم ـ وإذا ما انطبق وصف دقيق عليهم فإنهم
مثل لاعبي الثلاث ورقات ؛كل شيء أمام عينيك لكنهم يستطيعون خداعك تمتد يد الواحد منهم للعصفور الذي أشرت إليه ، تبعثرُ العصافير ، وتلتقط واحداً غير ذلك الذي تريده ، وهم مطمئنون تماماً إلى أن العصفور الذي في اليد سيشبه ذلك العصفور الطليق في القفص
وإذا ما عدنا للوراء قليلا ، فقد اكتشف ألاعيبهم هذه ، حينما كان يُجري مسحاً موسعاً لمحلات بيع العصافير ، بهدف شراء واحد منها ذات يوم ، قبل أن يهمس تلك الهمسة في أذن أمه لتقوم بدورها بنقلها ذات ليلة إلى أبيه بعد أن ينام هو ، أو يدّعي النوم
كالصيصان ، لا كالدجاج
صحيح أن الهمسة لم تسفر عن أمنية طالما حلم بأن تتحقق ، فظلّ القفص الذي صنعه بيديه فارغاً سنوات طويلة ، لكنه اكتشف أيضاً أن باعة الدجاج يمارسون الخدع نفسها التي يمارسها باعة العصافير ؛ حين تندفع أيديهم وراء دجاجة أشرت إليها ، ويستلّون من بين الجموع دجاجة مريضة يريدون التخلص منها قبل أن تموت
بائع الفرّي ، أمسك بطيرين وراح يزجهما في كيس بلاستيكي أسود ،

بعد أن قضم بأسنانه قطعاً صغيرة منه لغايات تنفسهما
لكنني كنت صاحياً تماماً
لذلك ، تمكن من إلقاء القبض عليه وهو يحاول زجَّ أنثيين في الكيس
مسألة كهذه ، لا يحتاج المرء فيها إلى خبرة كي يعرف الذّكر من الأنثى ، فالذّكر دائما أجمل قرأت ذلك وعرفته ، حتى قبل أن أعمل مدققاً وإذا ما أردت أن أُورد مثالا هنا فسأقول
يكفي أن تتأملوا الدجاج والديوك ، فهذا الصنف متوافر في حياتنا اليومية إلى درجة لا يصح معها القول إننا لا نعرفه ؛ كما أن كل من أتيحت له فرصة زيارة حديقة الطيور في (الشميساني) لا بد لاحظ جمال الذكور مقارنة بجمال الإناث ، رغم تلك الغلطة الشنيعة التي وقعت فيها إدارة الحديقة ـ ولم تكتشفها بعد ـ وأعني هنا وضع القرود في أقفاص ، كما لو ان القرود صنف آخر من أصناف الطيور

***

حين دخل بطائري الفري ، الذكر والأنثى ، كان مطمئناً تماماً إلى أنهما سيعيشان في جو عائلي يتيح لهما أن يتناجيا بالهدوء الواجب توافره لعصفورين
كان أبي قد مات
بحيث أصبح دخول عصفورين إلى البيت مسألة لا تثير أي زوبعة أو سوء فهم ، خاصة مع زوال رأي أبي المتعلّق بعدم ضرورة وجود العصافير أصلاً في هذا العالم
كما قال رحمه الله ذات يوم
قبل الوصول إلى البيت ، كان قد خطط لكل شيء
أسلوب التغذية الأمثل الذي سيتبعه معهما ، المكان المخصص للقفص ، أوقات تغيير الماء ، والإحتمالات التي يجب ألا تكون مفاجئة

أي تلك المتعلقة بفراخ المستقبل
واستبعد أي اعتراض من قبل أمه ، لأنها كانت على الدوام من أنصار شراء عصفور له يؤنس وحدته
استقبلته فور دخوله بسحابة الحزن المحلِّقة فوق حوض البقدونس
على الرغم من أنهـا لم تكن تلك اللحظة تقـوم برعـاية اخـضـرار الحوض الذي راح لونه يميل إلى الصُّفرة قليلاً
تحرك الطائران
أو أحدهما
داخل الكيس فجفلت الأم
طمأنتُها عصفوران !
ولوَّح بالكيس الأسود ، فلم تستطع التحقق من وجود العصفورين ، رغم أن منقار أحدهما كان يطل من أحد ثقوب التنفّس
بصعوبة ، أقنعها بأن تمسك طرفه الأعلى ريثما يحضر القفص الذي صنعه بنفسـه ، منذ أكثر من عشر سنوات على الأقل ، وعمل على إدخال كل التعديلات الضرورية عليه ، بحيث يكون صالحاً ولائقاً في ذلك الزمان القادم الذي سيسكنه عصفور
والحقيقة ، فرحتُ ، لأن العناية الدائمة ، أعطته تلك الصفة النادرة التي تؤهله لأن يكون قفص العمـر
وعبره تيار لاذع من الحزن ، لأن عصافير كثيرة قد حُرِمَتْ من التمتُّع بـه
رحمه الله ، أبي كان لا بدّ لي من أن أسامحه ، على حرمانه لي من عصفور يقوم مقام الأخ
لكنه لم يكن على يقين من أن العصافير التي حُرِمَتْ من القفص والعزِّ ، يمكن أن تُسامح ، رغم معرفته الأكيدة بالرقة التي تتمتع بها قلوب العصافير

سأجعل من رعايتي لطائري الفري ، حتى موتهما ، صدقة جارية
هذا ما خطر لي ، ففي ذلك راحة دائمة لروح أبي ، ومحاولة صادقة لكي
أقول له إنني لم أستغل موتك للقيام بشيء لم تكن تريده

بعد أسبوعين من اندلاع حرارة الحياة في القفص ، باح لأمه بما خطر
لــه فقالت

ـ إذا تركتهم يطيروا ـ والله أعلم ـ راح تنول ثواب أكثر ، إنتَ ، وأبوك
الله يرحمه

أمام اعتقاد قوي كهذا ، لم يفكر طويلاً

أوَتعتقدين أن ذلك أفضل ؟ !!

بحزن هزّتْ رأسها ، فأحس بحوض البقدونس ينتقل إلى داخل الغرفة

كان قد أستغل فترة الدعاية في المسلسل الذي قُتلَ فيه ، ليقول ما
قاله ، وكانت معنية تماما بقضية مقتله ، وغير مُصَدِّقَة أنه يجلس إلى
جانبها ، بعد ذلك الرصاص الذي اندفع نحوه من بنادق ومسدسات لا
تُحصى

ـ ولوْ !! ـ قالت أمه ـ تقول بدهم يقتلوا جبل ، الله لا يسامحهم

وللحقيقة ، فقد كان يتابع المسلسل بالحرارة نفسها ، لأنه بعد أن أدى
دوْره قالوا له (يعطيك العافية !!!) وقد ذهبت كل محاولاته للعودة إلى
الأستديو لحضور التصوير هباءً

ولكي لا تكون لي حجة في العودة ، ناولوني أجرتي قبل أن يجفَّ
دمي ـ شيكا رسمياً مصدّقاً ، وأوصلوني إلى الباب

في قضايا إنتاجية معقدة كهذه ، كان يدرك أن

الإختصار أفضل ، أعني ، ليس ثمة مبرر للإلحاح ، أو للإصرار على
معرفة النهاية وكي أكون أكثر تحديداً أقول ما الذي كانت ستضيفه لي
معرفة قاتلي لا شيء ، فهو على الأغلب (زهير النوباني) وأراهن على انه
هو ، وإن لم يكن ، سأعتذر له أمام كاتب السيناريو وطاقم التصوير والمخرج

والممثلين والممثلات الجميلات منهن وغير الجميلات

لذلك كان يرى في دعوات أمه المتتالية على القاتل ، نوعاً من التجني ، خاصة وأن شبهاتها كانت تدور حول ذلك الممثل الذي وصفته على النحو التالي

ـ ما قتلك إلا هذا أبو عيون مفنجرة

لكنها مع تقدم المسلسل ، أصبحت تُغيِّرُ رأيها كل ليلة ، فظلت دعواتها تدور على الممثلين إلى أن وصلت إلى الممثلات ولم تنج من ذلك حتى

عبير عيسى

لكنه ، ومنذ ذلك الزمان البعيد يحاول جاهداً الإجابة على سؤال ما انفكّ يوجهه الى نفسه

كيف أصبح ذلك المسلسل هو الأول الأخير ، ألم أقم بدور القتيل كما يقوم القتلى بأدوارهم حقاً ؟ الآن ، أمام هذا الصمت أقسم !! لقد أديته كما لو أنني لم أكن أمثل ، كما لو أنني عشت الدور طوال حياتي

وأنتابه إحساس بالغ المرارة

كأن هذا العالم لا يحتاج القتيل سوى مرة واحدة

لن نطيل

نزولاً عند رغبة وقناعة أمه ، قرر إطلاق سراح طائري الفري في اليوم التالي ، بعد أن يودعهما بشكل لائق

لم أعرف ما الذي يمكن أن أقوله لهما ، فهي المرة الأولى التي أودع فيها عصفوراً ؛ ثم أنني أحسست ـ رغم قصر المدة التي عرفتهما خلالها ـ بأنهما يملآن فراغاً خَلَّفه هنا في الصدر أخٌ لم يولد

لم ينمْ

هل أكون قد تسرعت في الموافقة على كلامها ؟!!

لا لم أتسرَّع

تسرعت

لم أتسرع

ثم حسم المسألة

في قضية طاعة الأم ليس ثمة تَسرُّع ، التسرُّع هو ألا تتسرع

حين وصل إلى هذه النتيجة ، أغمض عينيه قبيل الفجر ونام وحينما استيقظ ، التفت حوله كالعادة ، ولكن ، على غير العادة لم ير أمه - منذ وفاة أبيه يناماں في غرفة واحدة - وفي الركن البعيد القريب ، كان طائرا الفري ما يزالان نائمين مطمئنين في القفص

كما لو انهما قد عادا بعد زمن طويل إلى بيتهما الأول

وأحس أن فكرة المغادرة ، هي آخر ما يمكن أن يخطر ببالهما

ولو خطرت ، لما كانا الآن نائمين

هذا الصراع ، دائماً كان يربكه

للحظات فقط

فما أن يتأمل الأمر جيداً ، حتى يندفع بجرأة

الواجب أولاً

فبعد هذا العمر الطويل ، لا يعقل أن يعصي أمر أمه ، خاصة ، وأن الجنة

تحت أقدام الأمهات .كما أن في رأيها كثيراً من الحكمة أيضاً ، التي لا تقل عن حكمة رأيي خاصة حين يتعلق الأمر بالصدقة الجارية ، على روح أبي ، التي ستظلُّ تتنزل عليه رحمةً وسلاماً ما حلَّق جناح لهما أو لذريتهما في فضاء البرية هذا إن لم ينقرض جنسهما

وهنا ، راوده بعض الشك

ماذا لو انقرضا فعلاً ؟!! أوليس الإحتفاظ بهما أجدى ؟!!!

حين خرج من الغرفة وبيده القفص ، كانت أمه منحنية فوق حوض

البقدونس ترعاه كعادتها ،لكنه أحس بشيء جديد لم يسبق أن شعر بـه
لقد بدا الأمر كما لو أنها تنتظر صحوتي منذ زمن بعيد
حـاول أن يُخـفي انفـعـاله مـا اسـتطاع ، كي لا يبـدو أقل من شـخص يعيش مع أمه ، وواجبه رعايتها ، لا عقّها من أجل عصفورين
كل شيء جاهز
قال لها
فقالت السما اليوم صافية ، وهيك راح يعرفوا طريقهم للأرض اللي كانوا عايشين فيها
وعجبت لـمَ لم تقل (السما إللي كانوا عايشين فيها) لكن الموقف كـان أَجلّ من أَن أفسـده بمناقـشة من هذا النوع للأم حكمـتـهـا التي تفتحت قبل حكمتنا
وأوشك أن يقول لها إن الطيور تعرف طريقها في الليل وفي الضباب والعواصف
وهي تجتاح المدى
وأن يستعيد معلوماته في هذا المجال ، إلا أنه هز رأسه في إشارة موافقة
في حين ، ظلت منحنية فوق حوض البـقـدونس ، في انتظار سـمـاع رفيف أجنحة الطائرين
مـدّ يده إلى داخل القـفص ، تناول الأول ، وكنوع من الإحترام ، قال لها خذي !
: ليش أُوخـذ إنتَ طَيْـرُهْ حـتى مـا تقـول في يوم من الأيام إني طيرتلك عصافيرك !
نظر إلى السـمـاء ، كـمـن يريد التـأكُّـد من أنهـا قـادرة على أن تتـسع لروحـه ، وحين وجـدها خـاليـة من أي عـائق ، طوَّحَ بالأول إلى أعلى عندها رفعتْ عينيها تتابعه . لكنه بدل أن يرفَّ بأجنحته ويطير ، راح يهـوي كـحـجـر ؛ وقـبـل أن يرتطم بالأرض ، تدارك هو الأمـر ، فـتلقـفـه

براحتيه في الثانية الأخيرة ، وكان قلبه ينبض كما لو انه سينفجر لو ارتطم بالأرض ، لكانت الكارثــة قال لأمه

أول شيء فعله بعد ذلك ، تَفَقَّدَ أجنحة الفرّي ؛ كانت سليمة تماما وريشها نام بما فيه الكفاية لتحلّق من (وادي الرِّم) حتى حدود الصين

زجه فيٍّ القفص ، وأخرج الآخر ، فتكرر المشهد ، إلا أنه كان هذه المرة مستعداً أكثر لكي يتلقفه وأحس بذلك الإرتباك الذي غزا ملامح أمه ، لأن الطائرين لم يستجيبا لفكرتها ؛ فحاول ـ ما استطاع ـ أن يكتم ابتهاجه

وســادَ صمت طويــل بعد ذلك

لم تستطع أن تقطعه ، حتى ، الأحداث المثيرة للحلقة التاسعة من المسلسل الذي قُتِلَ فيه

لكــن حــلاً مــا إنبثق فجأة وحقق التوازن الضروري لعلاقتهما التاريخية

كأم وإبن

تمثل فيٍّ أن يتركا باب القفص مــفتوحاً على الــدوام ، وبهذا أحيلت القضية على الطائرين كي يقررا مصيرهما بنفسيهما

كان ذلك فصل

العودة إلى الوقوع في حب طائري (فِرّي)

ويليه فصل

الخروج على وصايا الأم بالوقوع في حب فتاة تسكن مدينة بعيدة .

مقابل مبنى البنك العربي ، في منتصف عمان ، هناك مرآة ، نعم مرآة ، لم أدر إن كان صاحب محل الصرافة قد فكّر بي حين ثبّتها إلى جانب الباب ، لأنها في الحقيقة كانت تُغنيني عن الذهاب إلى البيت لتفقُّد تسريحة شعري ووضع ثيابي

أي خلل كانت تشير إليه ، يدفعني للذهاب إلى المسجد الحسيني ، لأقف هناك في طابور طويل ، قبل أن أتمكن من الدخول إلى أحد حمّاماته ، أُخرج المشط ، وأصلح شعري كما لو ان المرآة لم تزل أمامي

ونادرا ما كنت أخطىء ، رغم انشغالى بمحاولة ضبط النفس ، كي لا أنجرَّ إلى قراءة بعض تلك العبارات المشينة المكتوبة بأردأ الخطوط على أبواب الحَمّامات من الداخل

كانت تقلبات طقس عمان غريبة عجيبة ، مثل هذه الأيام ؛ لكن الناس تنسى

أفضل ما في الناس أنهم ينسون ، وأسوأ ما فيهم أيضاً . .

الآن ، إذا ما فُتحَ موضوع الطقس ، فإنهم يصبُّون جام غضبهم على تقلباته ـ كما لو انهم لا يتقلبون هم أيضاً ـ ويقولون لم نر في حياتنا طقساً كهذا !!

جملة كهذه ، غلط في غلط ، لأنهم رأوا ما هو أسوأ منه ، ولكنهم لا يذكرون

مسألة الطقس قادتني إلى اكتشافٍ يجدر بي أن أذكره هنا

فإمّا أن الناس بلا ذاكرة فعلاً ، وهذا شيء خطير ، وإما أنهم لم يعيشوا حياتهم في أي يوم من الأيام ، وهذا أخطر

فقط لو كنتُ كاتباً !

أعود للمرآة وحكايتي معها ، وهي تنقسم إلى قسمين متساويين تماماً الفاصل بينهما موت أبي رحمه الله

قبل الموت ، كانت علاقتي بها يومية ، وبعده لم تعد لي علاقة بها إطلاقاً

لن أطيــل

كنت أيامها فارس الأرصفة الذي لا يُجارى ، ويمكن أن أكتب كتابا في تلك التجربة العريضة التي لم تتسع لها شوارع عمان الضيقة ، فأفضت إلى ما أفضت إليه فيما بعد ولو قيِّض لي أن أكتبه لكان عنوانه (الحياة على الرصيف ـ عشرة أعوام من الحب العذري)

باختصار

هوايتي الوحيدة ، قبل المسرح بالطبع ، كانت ملاحقة الفتيات

لا ، لم أتبع أي امرأة متزوجة

كنتُ أنظر إلى يديها وأطمئن

لا ، ولم أتبع أي فتاة مخطوبة

المسألة هنا مسألة شرف ، وأخلاق ، ولم أكن ذلك الشخص الذي يمكن أن يهدم بيتاً لمجرد أنه وقع في حب امرأة ، أو عُشّاً إذا ما وقع في

حبٌ عصفورة مخطوبة

كنت أيامها قد بدأتُ أشيخ حسب رأي أمي ،لذا راحت تلاحقني يوميا

ـ وليش ما تتجوز ؟!

فأسألها وأين سأعيش ؟!

ـ في البيت معْنا بكرة أختك بتتجوز ، وبصير البيت واسع

فأطمئنها تتزوج أختي اليوم ، فأتزوج في اليوم التالي

ـ لتكون بتضحك عليٍّ يا ولد ؟

وأعجب كيف يمكن أن يراود أُمّـاً اعتقادٌ كهذا

في انتظار يوم زواجي قررتُ أن أقوم بمسح جغرافي شامل للجمال في عمان وضواحيها ، متجاوزاً الطريقة التقليدية التي تُلقي على الأم أعباء اختيار عروس لابنها

بدأ الأمر ، كما لو انه تجربة علمية بحتة ،لكنه ترسخ في داخلي وغدا جزءاً من كياني

واسمحوا لي أن أكون صريحاً ما دمتُ أتحدث مع نفسي

قلت سأحدد مواقع وجود الجمال في عمّان ، فالأفضلية لها ، لا لأنها العاصمة ، أبداً ؛ كل ما في الأمر أنني فكرتُ إذا ما قررتُ أن آخذ أمي لرؤية هذا العدد الهائل من الصبايا اللواتي تتبعتهن إلى منازلهن ، لتختار من بينهن فتاة لي ، فإن بإمكانها ـ أي أمي ـ أن ترى المرشحات في ظرف شهر لا أكثر ، إذا ما كنَّ في الضواحي وإن كنتُ أرى ، أن مدة شهر طويلة أيضاً ؛ وقد داهمني هذا الإحساس بعد كابوس أطبق علي ذات ليلة ، إذ رأيت أنني وأمي قد قمنا بزيارة كل من تبعتُ من الصبايا ، وحين هممنا أن نعود لنخطب الأولى ـ حيث كانت أمي تردد باستمرار خذ أول بخْتَكْ ـ وجدناها قد تزوجت ، وحين قبلنا ببختنا الثاني ، وجدناها قد تزوجت أيضاً ، وهكذا تكرر الأمر ، حتى

فقدنا كل الصبايا اللواتي حفيت أرجلي ، من قبل ، وأرجل أمي ، من بعد ، ونحن ندور على بيوتهن

اللهم اجعله خيراً صحوتُ أردد

لن أطيـــل

أعرف أن كثيرين يمكن أن يسألوا وأين موقع صديق عمرك من هذا البحث ، وقد كان يمكن أن يكون ساعدَ عينيك ، ما دمت تقول إنه ساعدك الأيمن ؟!!

لقد تبين لي أن قلب الإنسان لا يمكن أن يكون في يده ، وقد فتَّحَتْ عينيّ على هذه الحقيقة أغنية المرحوم عبد الحليم حافظ (فاتت جنبنا) ، وما شهدته من صراع ، لا أبالغ إذا ما وصفته بالدرامي ، حيث تمر الفتاة وتبتسم ، فلا يعرف الصديقان لأي منهما كانت الإبتسامة

وأعرف منين إنها قصداني أنا مش هوّ ؟!!

واعرف منين إن الضحكة دي ليّ أنا مش هوّ ؟!!

وليه أنا ليه مش هوَّ ؟؟

لذا فإن القرار الصعب الذي كان علي أن أتخذه ، هو استبعاد صديق عمري أمريكي عن مهمة بحثي هذه ، رغم أن ذلك قد يبدو للبعض نوعاً من قلة الوفاء التي يمكن أن تجرح العلاقة في صميمها لكن وراء قراري عدة أسباب

أولها ، أغنية المرحوم عبد الحليم وثانيها ، ان الأمر جدي ، ولا يحتمل أدنى درجة من سوء الفهم أو الصراع وثالثها ، انني لم أكن مستعداً للوصول إلى لحظة أكون فيها مضطراً للإختيار ، إما صديقي وإما الفتاة التي نالت إعجابي ورابعها ، ليس من اللائق أن يتبع فتاة وحيدة شابان وخامسها ، هو أن الأم أو الأخت أو العمة يمكن أن تختار العروس ، لا العم أو الأب أو الأخ ، إذ لا يعقل أن تتزوج على ذوق غيرك من الرجال وسادسها ، ان التاريخ القريب يقول ، إن بعض الرجال الذين راحوا يخطبون

فتيات لغيرهم ، أعجبتهم تلك الفتيات فخطبوهنّ لأنفسهم وسابعاً يكفي

من هذه المنطلقات بالذات ، اعتبرت بحثي عن شريكة العمر مهمة بالغة السرية وقد أثبتت الأيام ، أن الحقيقة القائلة قلب الإنسان ليس في يده ، تنطبق عليّ أيضاً ، لأنني لم أكن في منأى عن هذا الإختبار الصعب

لن أطيـل

في إحدى المرات ، وقعتُ في هوى ـ هذه كلمة كبيرة ـ

في أحدى المرات أعجبتني فتاة جميلة ، ولن أقول جداً ، أو جداً جداً ، لأنكم تعرفون ، أن فتاة واحدة يمكن أن تستحقّ هذا الوصف

تبعتُـها بدتْ مُتَجاوِبَةً

مرتين ، نظرتْ وراءها ، مرتين نعم ، وفقط في تلك المسافة الممتدة بين حلويات حبيبة ومكتبة أمانة العاصمة

بل انها وقفت أمام محلٍّ للألبسة ، وتأملتْ ثوب زفاف أبيض ، ثم ابتسمت وهي تنظر إليَّ ، فعرفتُ أن قصدها شريف

وهكذا ، حين سارت ، رحتُ أجري وراءها جريا ، ولم أعد قادراً على التحكم بقدميَّ ، اللتين أصبحتا في عالم آخر

عشر مرات على الأقل سبقتها ، كنتُ أريد أن أعرف بيتها قبل أن تصل الشارع الذي هو فيه ، وأدخله ، قبل أن تصله و أتوقف باستمرار ، لكي أتيح لها فرصة أن تسبقني ثانية وفي إحدى المرات ، احتك كتفها بكتفي ، بل مسّه مسّاً خفيفا ، فخشيتُ أن تظنَّ انني فعلتُ ذلك ـ لا سمحَ الله ـ عمداً ، لكنها لم تظنّ كما تبين لي فيما بعد ، فعاد الهواء نقياً إلى رئتي ، بعد أن حبستُ أنفاسي طويـلاً

لن أطيـل

بعد ذلك أتيح لي أن أقارن طول قامتها بطول قامتي

للحق ، كانت أقصر بكثير لكنني قلتُ ليست مشكلة ، بكعب عال يمكن أن تبلغ كتفي

ذات شعر أحمر ، ليس تماماً ، ووجه مُدَوَّر ، ليس تماماً ، وعينين خضراوين ، ليس تماماً ، وصدر كبير ، ليس تماماً

لا أحب الصدور الصغيرة

فقد سمعت أمي تقول ذات يوم عن فتاة ذات صدر صغير وهاي كيف راح تشبع أولادها ؟!

ولم أكن ذلك الشخص الأناني الذي يمكن أن ينسى أولاده ، وهو يفكر في نفسه

شبه ممتلئة لكن هذا ، كان يكملها على نحو نموذجي ، مثل (نادية الجندي)

عندها أوشكتُ أن أصرخ :إنها هي وأن أترك جبال عمّان تردد الصدى إلى يوم القيامة .وقلتُ

لو أن أُمّي معي ما اخترتُ غيركمُ

ولا رضيتُ سواكم في الهوى بدلا

لكنها حين بدأت تتجه نحو موقف سيارات (الزرقاء) بدأ شيء من إحساسي تجاهها يتغير ، خائفا في البداية أن تستقل حافلة منها ، وحين استقلت ، طار نصفُ فرحتي ، لأنني لم أفكر يوماً بجرٍّ أمي إلى بيت فتاة تسكن مدينة تبعد عن العاصمة ثلاثين كيلو متراً وحين رأيت الحافلة فارغة إلا منها ، طار ربع النصف الثاني

قانطاً ، حزيناً ، وجدتُ نفسي أدور حول الحافلة ، محاولاً ما استطعت ألا ألفت نظر السائق إلي

فجأة يمكن أن ينتفض السائق في وجهك ، كأنه أبوها أو أخوها

لن أطيل

لحسن الحظ ، لم يحدث معي ذلك ، فقد تعلمتُ من أخطاء سواي

لم يكن الضغط على خط الزرقاء ـ عمان ، مثل هذه الأيام
أذكر ذلك جيداً
نعم جيداً
فقد يقول قائل ها أنت مثل بقية الناس تنسى ، أو انك لم تعش حياتك ، فلا تتذكر جيداً
إلا أن المسألة مختلفة هنا ولا تشبه الطقس
حول الحافلة طفتُ عشرات المرات ، وفي كل مرة كنت أصل إلى الجانب الذي تجلس فيه وأرى وجهها خلف النافذة ، وعينيها ، أرتبك أكثر
الزرقاء ليست ضمن الخطة !!!
لو أستطيع أن أُفهِمَها ذلك
لكنها كانت تبتسم ، وتمسِّدُ شعرَها
أعرف البنات !!
لو كان أبن أختها ، أو أخوها الصغير جداً بين يديها لأشبعته تقبيلا
وكلما كان راكب جديد يصعد ، كنت أُحسٌ بها تتمزق
تتطلع إلي بعينين دامعتين ترجوني ، كما لو انني حبل نجاتها الذي لا بد أن يمتد في اللحظة الأخيرة ، لإنقاذها ، من رجل لا تحبه جاء لخطبتها
كيف يمكن أن أقول لها الزرقاء ليست ضمن الخطة
وأوشكت أن أقع في هواها لفرط ما صرخت عيناها ، مع أن القاعدة التي وضعتها لنفسي ، ألا أقع في هوى (إحتمال الزوجة) قبل أن تنال إعجاب أمي
أدار السائق محرك الحافلة ، وكان المقعد إلى جانبها فارغاً
كأنه ينتظرني هو الآخر
تحركت عجلات الحافلة ، وكنت في الجانب المقابل لها الباب

على بُعد خطوات ، وكـل ما يلزمني قفزة صغيرة ، صغيرة جداً لأكون في داخله

نظرت اليها ، كانت مستعدة لأن تفعل أي شيء كي لا أختفي عن ناظريها ، وعلى وشك البكاء

قلت إلا هذا !!

وقفزتُ قفزة النمر ، فإذا بي فوق الدرجة الثانية للحافلة

أمسكت بالعوارض الحديدية ، محاولا ما استطعت أن أحني رأسي كي لا يصطدم بالسقف

صاح قاطع التذاكر من نهاية الحافلة

يا أخ هون في كرسي فاضي إتفضل

وللحق فقد كنت أنتظر دعوته ، حتى لا يقال لقد استغل الفرصة ليجلس في المقعد الوحيد الفارغ إلى جانب الفتاة الوحيدة وهذا ما لم يجرؤ عليه أحد من الركاب قبلي

بإباء ، قلت له شكراً وكنت أعني ذلك تماما ، لكنه بعد قليل قال لي ، بعد أن فهِم إحراجي

إتفضل يا أخ ، الأُخت مثل أُختك !!

إن كان الأمر سيفهم على هذا النحو ، فلم لا ، قلت لنفسي واتجهتُ اليـهـا ، فإذا بوجـهـهـا يضيء كـمـا لو ان نارا مـسـتـه وحين جلست أحسستُ هبواً يخرج منها ويكاد يحرقني ، فاندفعتْ سيول العرق تجري على جبيني ، وعلى ظهري وتحت إبطيّ وتتجمع تحتي هناك

يا للمصيبة !

لن أطيـل

الدقائق الخمس الأولى ، أمضتها تنظر عبر النافذة إلى أشياء لم تكن موجودة ، وأمضيتها في مراقبة صلعة الرجل الجالس أمامي ، وقد كنت تأملتُ عكاز العجوز الجالس إلى يساري طويلا ، وهو يحتضن نهايته

بقدميه ، ويخفي مقبضه في بياض لحيته الكثيفة ويده المليئة بالعروق النافرة

لم أسافر في حياتي بالطائرة ، ولكن الأمر بدا لي ، أنه يشبه لحظة الإقلاع ، كما وصفها (أمريكي) بعد سنوات طويلة

بعدها تنفستُ ، وتنفس معي الركاب ، حيث بدأوا يخوضون في أحاديث كثيرة

تلك هي اللحظة المناسبة التي يمكن أن أقتنصها لكي أفتح باب الحوار معها . لكنني لم أفعل ولذلك أكثر من سبب ، أهمها ان الزرقاء ليست ضمن الخطة ، وثانيها ، ان تجاوزي للخطة المرسومة ، جعلني أحقد على نفسي لكن ثالثها ، أطفأ غضبي قليلا فلو انني لم أصعد ، لتسببت لها ـ ربما ـ بعقدة نفسية ورابعها

يكفي

حركتْ قدمها ، فاصطدم كعب حذائها بمقدمة حذائي

قلت هذا لأن المسافة بين المقاعد ضيّقة

بعدهـا

إستعادت وجهها من مشاهد غير موجودة ، كانت مضطرة لتأملها خمس دقائق كاملة ، كما كنت أتأمل صلعة الرجل الجالس أمامي وعكاز الشيخ ، فأُتيحَ لي أن أرى نصف وجهها بطرف عيني

كانت جميلة ، ولم يكن الجمال سوى نقطة ضعفي

تجاوزَ أحدُ صهاريج مصفاة البترول الأردنية حافلتَنا ، وهو يطلق بوقه محذراً ، وبصورة عفوية وجدتني أنظر عبر النافذة ، أي نحوها ، وعندها ، أثبتتْ أنها ذكية ، فبدل أن تنظر إلى الخارج ، استدارت بكامل وجهها المضيء ونظرت إلي ، كما لو ان الصهريج يمر من بين المقاعد

التقتْ نظراتُنا

هنالك أشياء لا تستطيع أن تتخذ فيها قرارات صارمة ، كالحبّ مثلاً .

صحيح أنني لم أحبها تماماً تلك اللحظة ، لكن قلبي ارتجف وحين غضضتُ طرفي ، خائفاً ، لأن الشخص الجالس خلفي مباشرة ، كان شرطياً ؛ لمحتُ في يدها رواية ، كنت رأيتها في السينما (الوسادة الخالية) ، فتحتْها ، وراحت تقرأ فيها

أغضبني الأمر ، رغم محبتي لعبد الحليم حافظ الذي قام ببطولة الفيلم إذ لا يعقل أن أكون هنا من أجلها ، متجاوزاً خططي كلها ، وهي مشغولة بقراءة كتاب ، لا يمكن أن يكون مقرراً عليها ، إذا ما كانت طالبة

ما الذي ستفعله حين نتزوج ؟!!!

هل ستقرأ القاموس ؟!!!

وهكذا انطفأت شعلة الحب في داخلي قبل أن تضيء ، فحمدتُ الله ، لأنني كنت سأظل أعمى لولا ذلك الكتاب وبدأتُ أتحين الفرص للنزول في أول محطة تتيح لي أن أنتقل إلى الطرف الآخر من الشارع لأستقل حافلة عائدة باتجاه المرآة ، أرتب شعري ، وأنا أدعي افتتانا بأنواع العملات ، بدل أن أُضيِّعَ اليوم على خط عمان ـ الزرقاء وبالعكس

لكن الحافلة لم تتوقف ، بل ان سرعتها ازدادت ، كما لو ان السائق يعرف الركاب واحداً واحدا ، فلم أتجرأ على إفساد اندفاعته المعزَّزَة بأغنية محمد عبده

إبعاد كنتم والاّ والاّ قريبين

لن أطيــل

قلبتْ واحدةً من صفحات (وسادتها الخالية) ، فتحرك فخذها ومسني

قلت أسوأ ما في المقاعد ضيقُها

وكنتُ متضايقاً

لكنها حين لم تُبعِدْ فخذها ، بدأتُ البحث عن أسباب ذلك . .

لعلها أغفتْ

لا ، لم تكن غافية

لعلها استغرقت في كتابها ربما

لكن ثقل فخذها ازداد ، حاولتُ أن أنبهها لذلك ، فبدأتُ أدفعه في الإتجاه المعاكس ؛ لم تفهم ، لأنها راحت تدفعني ، فأصبح المقعد أضيق كثيراً مما تصورت

لن أطيـــل

توقف الدفع المتبادل غدونـا متلاصقين

عندها أحسستُ بشيء مختلف ، لا علاقة له بضيق المقاعد وانعدام المساحة الكافية بينها ، لا علاقة له بطولها وعرضها وارتفاع العوارض الحديدية أو انخفاضها

وصلنـــا

حين فكّرتُ بأن أنهض ، خـفتُ ألا أسـتطيع الإنفـصـال عنهـا فضيحة

وتذكرتُ الشرطي خلفي ، فابتعدت في حركة مفاجئة ، كان يمكن أن أقع بسببها في ممر الكراسي

هبطتُ درجتي الحافلـة ، فإذا بي وسط الزرقاء ، حيث الغبـار والحرارة واللزوجة والهواء الذي يهب قوياً ويبعثر شعري

كل ذلك قبل أن تنزل

التفتُّ خلفي أخيراً ، رأيتها واضحة عبر الغبار ، تفتش في حقيبتها ، أخرجت إيشارباً ، نفضته قبل أن تضعه على رأسها وسارت ، كأن لم تكن هي ؛ لم تلتـفت ، أغـاظني هذا ، رغم أنني كنت أبحث بعـيني اللتين تتابعانها عن حافلة تعيدني إلى عمّـان

تبعتهـا !!لقد أصبحت فتاة أخرى ، لا تشبه تلك التي رأيتها وهبّت عاصفة من غبار رمادي لم تترك شعرة في رأسي إلى جانب أختها ،

فأدركت أن مرآة محل الصرافة لن تستطيع إنقاذي ، لقد بددتني العاصفة عن بكرة أبي

وحمدتُ الله أنني لا أسكن هذه المدينة ، لا لشيء ، إلا لأن البحث عن فتاة في مثل هذا الطقس أمر مستحيل ، كما أن الغبار سيشوش راداراتي ، ويربك إحساسي بالجمال ، إلى حد يجعل اختياراتي غير دقيقة لكنني تبعتها !!

كنت مطمئناً إلى أنها لن تأبه لأحوال شعري ، لأنها رأته مرتباً قبل دقائق فقط ، إلا إذا كانت تنسى بسرعة ، هي الأخرى ، مثل بقية الناس

لكنها لم تلتفت خلفها ، ظلت منطلقة كسهم ، إلى أن توقفت فجأة أشرعت باب سيارة سرفيس ، واندست في جوفها المعتم مررتُ إلى جانبها ، لم ترفع عينيها ، فتأكدتُ بأن المسألة قد تعقدت ، وأن ليس هنالك من نصيب

قَبِلْنَا بالزرقاء ، أيْ نعم ، ولكن أن تسكن حياً من أحيائها الذي لم يسبق لي أن سمعت به ، فهذا كثير وفكرتُ ثلاث وسائل نقل للوصول إلى بيتها من بيتنا !! لا ، ما الذي سأقوله لأمي إذا ما باغتتني بالسؤال الصعب وهاي البنت ، كيف إندليت عليها ؟!!

تشبثتُ بالرصيف ، مرت السيارة من أمامي ، لم ترفع عينيها وشيعتها إلى أن اختفت

قلت ما دامت أنكرتني اليوم ، فستنكرني غدا لا ريب

كان ذلك أول عهدي بالحكمة ، فشعرتُ بأن مشواري لم يذهب سدى

ولو كنت حكيماً حقيقياً لعرفت ، أن تلك الواقعة ليست سوى رأس مصيبة أكبر ، تجلس وتنتظرني هناك ـ واثقة بقدومي ـ على عتبات المستقبل

كان ذلك فصل
الخروج على وصايا الأم بالوقوع في حب فتاة تسكن مدينة بعيدة
ويليه فصل
العودة إلى بارقة الأمل المتمثلة في ظهور قطة

من بين علمين عملاقين ، ألقى نظرة سريعة على الدرج الضيّق لمخفر شرطة المدينة ، فلم يبصر سوى العتمة التي بلا حدود ، ولم يسمع سوى صفير الهواء في الممر وبين أن يعود ويلقي نظرة أخرى أو يواصل طريقه ، واصل خائفاً من أن يُطلّ عليه شرطي ويصرخ

أنت ما الذي تفعله هنا في مثل هذه الساعة ؟!!

لكن الإحساس الذي بدأ يسكن روحه

أن عمان قد أصبحت أمانة في عنقي

آخر شيء يمكن أن يخطر بباله أن يتجاوز عتبة المخفر ، أي مخفر ، ليسأل ؛ فقد كان طوال عمره ، كلما حاذى أحد المخافر ، سرّع خطاه ، وهو على يقين الآن أن أمه كانت محقة حين حذرته من دربين لا عودة منهما

درب الحكومة ودرب البنات

لكن احتمالا آخر أطلّ برأسه

مـاذا لو كـانت الشـرطة مطمـئنة لاسـتـتـبـاب الأمن والنظام وتجلس مرتاحة فوق ، تراقب الأمن وهو يتجول حراً في الشوارع ؟!

صعّد نظره إلى النوافذ

لا أحـــد

نظر إلى الجهة المقابلة ، فرأى كشك (أبو علي) زاهيا بين الأعلام كما لم يره من قبل

قال

: لديه الخبر

مُشرعاً كالعادة كان الكشك ، وعلى جانبيه تتدلى المجلات وحوله تنتشر الصحف . لكن (أبو علي) نفسه لم يكن فيه

بعض الناس تعتقـد أنهم ولدوا في الأماكن التي يقفون فيها ، ولذا فإن أي شيء لن يزحزحـهم . لكن (أبو علي) كـان مضطراً لأن يتـزحـزح فيما يبدو

قرر عبور الشارع

بعـد كل ذلك الوقت الذي لـم ير فيـه أي سيـارة ، إطمـأن وقف على حافة الرصيف ، التفت يميناً ، شمـالاً ، ثم يميناً ، شمـالاً ، مع أنه يعرف أن (المسرب) اتجاه واحد

الإحتياط واجب

وحينما وصل إلى الجزيرة ، والتقط أنفاسه ، أدرك أنه ارتكب خطأً ما كان عليه أن يرتكبه

مـــاذا لو كـــان هنالك شـــرطة في المخـــفـــر ، ورأوني أركض ، مـــاذا سيظـنون؟ سـيظنون أني سـرقت شـيـئـاً مـا ، ويطلقون النار ، تماما كـمـا يطلقونها في حالات الكوارث التي تصيب المدن الكبرى

وتذكّـرَ ليلة انقطاع الكهـرباء عن نيـويورك ، والأحـداث المريعـة التي شهدتها المدينة .

كان الفيلم مقنعاً

تمهل كثيراً قبل أن يقطع المسرب الثاني

إذا كان ثمة شرطة ، فسيعرفون أنني لست من أولئك الذين يستغلون فرصة كهذه

وعلى أقل من مهله ، عبَرَ الشارع

السيارة يمكن أن أبصرها إن أتت ، وهناك فرصة ضئيلة دائما لأن أتفاداها ، أما الرصاصة فلا !

كان مضطرا للوصول إلى هذه النتيجة

عبور الشارع بهدوء إلى الرصيف المقابل ، عزز ثقته بنفسه إلى حد لا يوصف

ألقى نظرة سريعة على عناوين الصحف والمجلات وعناوين الكتب ، كما لو انه سيشتري ؛ والحق ، أنه يعتبر نفسه من الزبائن الدائمين للكشك ، فقد سبق وأن سأل صاحبه عن (لسان العرب) ، لكنه اكتفى آخر الأمر ب (المنجد) ، واشترى أيضا كتاب (عذاب القبر) باحثا فيه عن حصة ذلك الذي يحرم قطة من أبنائها أما ما تبقى من العلاقة بالكشك ، فتتمثل في كونه يفضل قراءة عناوين الصحف فيه ، لا في سواه من الأكشاك

في المكتبات الكبيرة أُحس بالضياع ، تخيفني الأعداد الهائلة من الكتب كيف كتبوها ؟!!! يخيفني أصحاب المكتبات الذين يضعون كراسيهم قرب الأبواب ، ويراقبونك طوال الوقت بأطراف أعينهم ، وحين تخرج من دون أن تشتري شيئاً ، تلقي عليهم التحية فلا يردون

ربما كان سيسامحهم في مسألة ردِّ التحية بمثلها ، لكنه لم يكن قادراً على أن يسامحهم في

مسألة المراقبة

بحث عن الصحف اليومية الأربع ، وكان على يقين من أنها ستحلُّ

اللغز ، لم تكن مرتبة بدقة كالعادة إنحنى ، تناول واحدة من بينها
يبدو أن ما حدثٍ لم يمهله كي يرتبها
قرأ
لا شيء ، العناوين اليومية نفسها
وفـكَّرَ مـاذا لو ان إدارات الصحف اعتبرت ما يحدث خبرا محليّاً ، ووضعته في الداخل ، أو على الصفحة الأخيرة
تحسس النقود في جيبه ، تذكر أن لديه وفرة ، لأنه لم يدفع أجرة الحافلـة أخرج عشرين قرشاً ، خطا داخل الكشك ، وضعها على الرفِّ الصغير الموجود قرب التلفون
أكره أولئك الذين يقرأون الصحف دون أن يدفعوا ثمنها ، لأن المسألة تمسني شخصياً
ولديه تفسير مقنع للأمر
إذا قرئت الصحف هكذا ، أي كما تُسمع الأخبار في الإذاعة ، فإن أحدا لن يشتري صحيفة ، وإذا لم يشتر أحد صحيفة ، فمعنى ذلك أن الصحف ستفلس ، وأكون في الشارع
ومن هنا ، إنتابه حس بأنه يحافظ على وظيفته في تلك اللحظة الغامضة ، وهو يدفع ثمن الصحيفة راضياً
لا تطلب من الناس شيئاً ، قبل أن تفعله بنفسك فقط لو كنتُ كاتباً
والحقيقة ، ان شيئا آخر خطر بباله
ماذا لو أردت فيما بعد أن أُثبت أنني كنت الوحيد الذي رأى ما لم يره أحد ، أين الإثبات ؟!!
سيكون بإمكانه غداً
إن شاء الله
أن يقول لمن يكذِّبه

إتفضل ، إسأل (أبو علي) هل وجد إلى جانب الهاتف عشرين قرشاً أم لا ؟!!

حدق في الصفحة الأولى

(القضاء يقول كلمته غداً في قضية الدقامسة) (أولبرايت لن تزور المنطقة في المدى المنظور) (اليونان تحذر إسرائيل من تشدد أوروبي قريب) (طقس صيفي عادي اليوم ودرجات الحرارة تواصل إنخفاضها)

إنتقل إلى الصفحة الثانية ، ونقّل نظره في الثالثة

وزارة الصحة منح جنسية زواج جماعي مؤتمر الإعاقات طائرة إغاثة مبدعو الصحافة تنقلات موظفين إتحاد المرأة فرع الخالدية

إنتقل إلى

. توسعة الطريق النافذ من مدينة الطفيلة باتجاه العيص فرع لترخيص السواقين والمركبات في الأغوار

ضاع الغور

مؤتمر تعليم مهارات القراءة والكتابة باللغة الإنجليزية مؤتمر التعدين مكتب جايكا الياباني يزور المفرق حملة شلل الأطفال

إخص ،خطأ في الصّور ، خبر حملة الشلل مع صورة النظام الجديد لامتحان التوجيهي

فكّر باستعادة نقوده ، إلا أنه رأى تصرفا كهذا غير مستحب ، فما دام قد تصفحها فإن عليه أن يدفع ثمنها

المبدأ مبدأ

واصل البحث رغم ذلك ، فلم ير ما يدل على احتمال وقوع حدث جلل

الصحف في عالم ثان ، الصحيح ثالث

تذكر وجود الهاتف ،أخرج عشرة قروش ، وفكر بإجراء مكالمة هاتفية يحسم فيها الأمر تراجع ، لأن الهاتف كان مصدر شؤم بالنسبة إليه على الدوام

أكره التلفونات ، وأخاف منها واسمحوا لي أن أكون صريحا ما دمت أتحدث مع نفسي ، فإن عذريتي التلفونية لم تُمس حتى الرابعة والعشرين ، عندما أتيح لي أن أتحدث فيه لأول مرة ؛ ورغم أنني كنت أُراقب باستمرار الخطوات التي لا بدّ من إتباعها لإجراء مكالمة ناجحة ، إلا أنني أحسست بحرج شديد جعلني أُمسك السماعة بشكل مقلوب

وهو حتى اليوم ، لا يفهم كيف أن الناس يستخدمون هواتف الأكشاك والدكاكين الصغيرة للحديث في أشياء خاصة ، أو حتى عامة

حدق في الهاتف طويلا ، قبل أن يبتعد تاركا الصحيفة على حافة نافذة الكشك

خطوات قليلة ، وإذا به أمام البنك العربي الباب مُشرع ، الأضواء ساطعة في الداخل ، ولا صوت

صعد الدرجات ، ألقى نظرة على البهو الواسع

كم تمنيت أن يكون لي حساب في أحد البنوك

لكن المشكلة كانت في التوقيع

لم أستطع أن أوقع مرتين ، بالطريقة نفسها ، ثم ان هناك مشكلة أكبر وهي عدم وجود النقود أصلاً

الجرأة التي دبت فيه بعد عبور الشارع ، ساعدته في إلقاء نظرة خلف الحواجز التي يقبع خلفها الموظفون عادة

فوجىء بالمبالغ الهائلة المتصاعدة في رزم فوق بعضها وعندها أيقن أن ما يحدث ليس سببه الطمع في عمّان ، بل توصيل رسالة إلى سكانها أو لغيرهم

والله أعلم

وتمنى أن تكون كاميرات الفيديو الداخلية تعمل ، كي توثق ما يحدث

إستدار نحو البوابة ، وقف إلى جانبها ، صعّد نظره إلى أعلاها

ما شاء الله

وقرر أن يغلقها

لو قيل لي هل تستطيع إغلاقها في حالة طبيعية ، لنفيت ، لكن قوة غريبة تجمعت في ، هي التي أغلقتها

ثلاث دقائق كاملة أمضاها على الدرجات أمام البوابة يلتقط أنفاسه دون أن تفارق عيناه نوافذ المخفر المحدقة به عبر الرصيف المقابل ، قبل أن يواصل المسير مطمئناً إلى أنه فعل ما يجب عليه أن يفعله

ثم ما الذي يمكن أن أفعله بالنقود ، إذا ما استمر الوضع على ما هو عليه؟!!

دائماًكان يشكو ـ لنفسه بالطبع ـ أنه لم يمنح فرصة لإثبات وجوده ، أو إمتحان قدراته ، أما الآن ، فإن أي فرصة تخيلها ليست سوى لعب أولاد

إذا ما قورنت بهذه الفرصة

مدينة بأكملها بين يديه ، وعليه أن يحافظ عليها لحين عودة أهلها

وإن لم يعودوا ؟!!

سأل نفسه وأجاب

سأحافظ عليها حتى يعودوا

عندما توصل إلى هذا القرار ، إنتصب كجندي ، ولم يعد يعنيه المخفر القابع في صمته ، ولا نوافذه العمياء

إنتصب كجندي أخير في قلعة محاصرة

في أي فيلم رأيتُ ذلك ؟ لا أذكر !!

وفجأة ، تذكر بؤر الخطر التي خلّفها وراءه ، وكلها كانت متمثلة في النار نعم النار

كان عليه أن يعبر الشارع ثانية

هذا أخطر ما في مهمة حماية عمّان

وأن يمضي مسرعاً إلى (مطعم السلام) لينقذ الفروج الذي يدور وتدور به الأسياخ في مواجهة النار

وصــــل

حمد الله لأن الفروج لم يحترق ؛ وتأكد له أن الفكرة الشائعة عن الدجاج ، تلك المتعلقة برخاوته وجبنه غير صحيحة

لا أحد يستطيع تحمل النار مثل الدجاج

بحث عن جرار الغاز ، مفاتيح الكهرباء ، دون أن تفارق أذناه المشواة ، ولم يتوقف بحثه إلا بعد أن أوقف دورانها ، ورأى النار تتراجع وتختفي

حاول أن يستعيد رحلته من بدايتها ، ليتذكر إن كان عليه الرجوع لإطفاء نار موقدة أخرى ، لم يتذكر

النار كلها أمامي

كان على يقين من ذلك

شعلة نار واحدة تكفي لإحراق مدينة بأكملها

عبر أمام المخفر ثانية

المهمة واضحة الآن

توجه إلى دخلة (مطعـــم فـؤاد) ، كان الزيت يغلي والفلافل سوداء

مثل ذلك المساء الذي قتلتُ فيه

أطفأ النار ، غادر المكان ، مطلقا سلسلة متواصلة من سعال شديد تلفت يميناً ، يساراً

: هذه عادة .

توجّه إلى مطعم هاشم ، هاله أن الصحون على الطاولات كما هي
بفولها وحمصها ومسبَّحَتها وقُدْسِيَّتها وأرغفتها
بعضها لم يُمس ، بعضها لم يتناول منها أصحابها أكثر من لقمة أو اثنتين ، بعضهم وصل إلى اللقمة الأخيرة
فقطعة الخبز تحتضن بهدوء آخر ما تبقّى في الصحن
ألقى نظرة جانبية على الداخل ، لا أحد ، تجاوز العتبة
على يساره كانت طاولة المحاسب وبعض النقود الفضية والنحاسية متناثرة على سطح الطاولة ، وبعضها على الأرض
هذا يعني أنهم فوجئوا تماماً
إنحنى يجمع ما تناثر من نقود على الأرض ، جمّعها فوق الطاولة ، بحث عن مصدر النار تحت جرة الفول
الحمد لله ، لا يتحمّل النار أكثر من الدجاج إلا الفول
خــــرج
واصل إلى المطعم الآخر في الزقاق ، اطمأن بأن كل شيء
تحت السيطرة
وخطر له أن يطفيء الضوء ، إلا أنه اكتشف أن ذلك سيتسبب في مشكلات كثيرة ، له ولغيره
ماذا لو اضطررت للعودة ليلا من هنا ، ماذا لو عاد سكان عمان مساء ، ووجدوا المدينة معتمة ، كيف سيهتدون إلى بيوتهم؟ ثم ان المسألة تتعلق بشركة الكهرباء ودورها هذه أكبر مهمة وطنية ألقيت عليها في تاريخها الطويل
أحس بالجوع قرصته أمعاؤه فجأة ، فكّر بالجلوس ، وتناول صحن من الفول على مزاجه ، أبعد الفكرة
ماذا لو عاد البشر في رمشة عين ، ماذا سيقولون (الناس في إيش وهو في إيش) كأن على الجنود أن يموتوا جوعاً في ساحات المعارك .

إبتعد

شاورما محترقة ، عصير يسيل في الشارع ، مطاعم جبري حبيبة بفرعها الثالث وتذكر فرعيها الأولين وراءه

أللهم لا حسد ، أكان لا بد من وجود ثلاثة فروع ؟!!

راح يركض إلى هناك

سوداء على النار كانت الكنافة

كهذا اليوم الذي لم أختف فيه مع من إختفى

أطفأ النار أخذ نفسا عميقاً ، تأمل جملته الأخيرة

كل شيء ، إلا اليأس

أنَّبَ نفسَه ، إلى أن أيقن أنه لن تُعيد ارتكاب مخالفة تاريخية كهذه

وعاد

حاذى سينما (زهران) ، حمد الله أنه ليس مضطرا للدخول إلى السينما لكي يوقف آلات العرض

لم يكن الوقت ، وقت عروض

وصل إلى طلعة جبل الحسين ، كانت سيارات السرفيس في مكانها ، بنوافذها المشرعة تنتظر الركاب

وصل إلى مدخل (دار الشروق) المكتبة مضاءة .وفجأة حدثت المعجزة

قطة

لا أستطيع القول بأنها صغيرة

قطعتْ الشارع دون أن تلتفت يميناً أو يساراً ، أو وراءها

حاولتُ أن أعرف السبب الذي يجعلها تركض خائفة إلى هذا الحد ، لم أعرف ، لكنني أيقنت أن القطة بسبع أرواح فعلا

لكن أغرب ما حدث ، أن القطة ، أثناء صعودها الدرج المحاذي لمحل الحلاقة ، وعندما أصبحت في منتصفه تماما

إختفت ، ذابت ، ماذا أقول ، لم يعد لها أثر

لا ، لن يستطيع في أي يوم من الأيام ، أن ينسى ما أُجبر على أرتكابه من جرائم في حق قطة أنجبت في بيتهم ، وكيف حمَّلوه أبناءها ، وطلبوا منه أن يُلقي بها بعيداً ، تلك الليلة لم ينم ، وفي اليوم التالي اشترى كتاب (عذاب القبر) باحثاً عن حصته من هذا العذاب ؛ وبكي ثلاثة أيام بلياليها ، إلى أن سمع مدرّس الدين يردد الحديث الشريف

(عينان لاتمسّهما النار عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله)

أو كما قال عندها تراجع سيل الدمع ، وهدأت روحي

لكن وخزَ الضمير لم يفارقه تماما حتى بعد أن قال له أمريكي ذات يوم تلك الطرفة المتعلقة بالقطة التي كانت مضطرة لإلقاء نفسها سبع مرات من على أحد السطوح كي تنتحر وحين سأل صاحبه ، ألا تكفي مرة واحدة ؟ رد عليه ، لا ، لأن لها سبع أرواح

وها هي تطل اليوم

فرك عينيه ، صعّد نظره إلى السماء ، أبعد هواجسه الخاصة

لا بد أن القطة كانت مختبئة في مكان ما

وعندها أيقن أنه مراقَب فعلا ، وان القطة لم تختف بفعل سحرها وقدراتها ، لأن هناك من شفطها قبل أن تبلغ نهاية الدرج

بهذه الطريقة ، لا غيرها ، اختفى سكان عمان لا بد

تأمل عمان ، صعودَ جبالها ، تعرج شوارعها ، بحث عن الغيمة التي رآها صبحا ، لم يجدها ، وأحس أنه لم ير مدينته منذ زمن بعيد بالطريقة التي يراها بها اليوم وحزيناً بدأ يهيء نفسه للحاق بالقطة

كان ذلك فصل

العودة إلى بارقة الأمل المتمثلة في ظهور قطة

ويليه فصل

العودة إلى ما يثبت أنه سابق لزمانه

لم أنج ، لألحق بهم ؛ نجوت لأن قدراً يريد لي أن أنجو

هكذا راح يفكر ؛ ولم يعرف الأسباب التي تجعل المسلسل اليتيم الذي قُتل فيه يخطر بباله ، لم يعرف لماذا يستعيد لوعة أمه عليه

كان يمكن أن يتجرد قليلا من حساسيته الفائقة ، فمن زاوية نظر سينمائية بحتة ، يدركها بحاسته السابعة

باعتبار السينما هي الفن السابع ، واحترامها يقضي بأن تحس بها بما يليق بمكانتها من حواس

كانت الحقيقة واضحة

قَتْلٌ في البداية يعني تشويقاً

هو نفسه تهتز قناعته بأي فيلم إن لم يبدأ بداية دامية

أفلام الكاوبوي مثال جيد

فهي تبدأ بمبارزة ، بشجار في حانة ، غارة على عربة بريد تحمل نساء مسنات وصبايا مشنشلات بالحلي ، قَتْلُ أمّ البطل ، أو قتل أبيه ، أخيه ،

إغتصاب زوجته ، حرق بيته ، وتشريده في الفيافي والقفار التي كانت خلفيّة المشهد أو الجهة التي أقبل منها

ويمكن أن يُستغل أكثر من عنصر من هذه العناصر

فذلك سيتناسب طردياً ـ حسب رأيه ـ مع عدد الطلقات التي سيُفرغها البطل في رأس القاتل في نهاية الفيلم

لكن ما يحيرني ، أنني متُّ قبل أن أعرف لماذا قتلوني

وبعيدا عن مسألتي التشاؤم والتفاؤل ، لم يكن يحب أن يبدأ حياته على الشاشة الصغيرة قتيلاً

فإذا ما لصق بك دور ما ، فسيبقى لعنة فوق كتفيك حتى النهاية

ودون الرجوع إلى المجلات السينمائية ، أو الكتب ، فإن خبرته العملية كمشاهد محترف ، تقول له ذلك

فتلك أصبح دوْر الخادمة دورها الأبدي ، حتى كما لو انها وِلدَتْ خادمةً ، وذلك أصبح دور البواب دورَه إلى ما لا نهاية

طبعا ، في مرحلة كتلك ، من التواضع إيراد أمثلة حول ممثلي الدرجة الثانية

لا بأس الثالثة

فهو لا يستطيع أن يتحدث عن محمود المليجي ، لأن أي فيلم يخلو من موته

يكون أقل من المستوى

ولا أن يتحدث عن فريد شوقي ، توفيق الدقن ، صلاح نظمي شكري سرحان ، أحمد مرعي ، وصلاح قابيل

الثلاثة الأخيرون ، كنت أرى أنهم من أكثر الممثلين جدارة للقيام بأدوار مهمة في أفلام الكاوبوي

يستعيد بهدوء ، ذلك الموقف الصعب الذي وجد نفسه غارقا فيه ،

فبين أن ينسحب من العمل قبل بدء التصوير ، أو أن يستمر ، رأى أن يستمر ، ولم يكن هذا قراراً في الحقيقة

لأن الإستمرار ، هو مواصلة لبداية إنطلقت ، أما التوقف فإنه القرار

وهكذا ، طارت فرحته ، حيث كان يتوقع أن يزهو لشهر كامل أو شهرين - أي المدة اللازمة لإنجاز المسلسل - بجملة ساحرة تطل على طرف لسانه بفرح ، كلما أراد أن يغادر المكان الذي يكون فيه

لدي موعد تصوير !!

حزينا عاد ذلك اليوم

حزينا جداً

وفهم متأخراً ، لماذا لم يعطه المخرج نص المسلسل

أنت ذكي بما فيه الكفاية ، ولمّاح ، إلى درجة لا تحتاج معها إلى قراءة أي سيناريو

ولم يكن حتى موعد التصوير قد تجرأ على أن يسأل عن أسماء الممثلين المشاركين أو الممثلات

لكل بداية ثمنها

وتصرف بثقة كما لو انه يعرف كل شيء

وحينما وجد نفسه وجها لوجه مع أبرز نجوم الشاشة الصغيرة ونجماتها ، لم يرفّ له جفن

صافح كل شخص رآه أمامه

حتى لا يقال - مستقبلاً - حين يسطع نجمي (لقد كان متكبراً من يومه!!)

سريعا بدأ التصوير ، حتى لكأنهم كانوا في إنتظاره منذ زمن طويل

أفرحني هذا

كما لو ان العمل كله يستند عليه

هذه حقيقة ، لا تنفيها واقعة قتلي في الدقائق العشر الأولى ، بل تؤكدها ؛ لو لم أُقتَل لما استمر المسلسل ؛ أشبه ما أكون بحجر سنمّار كنت ، كل شيء بُنيَ على دمي اَلمسفوح ، وكان لموتي طعم

ثم أن عدد الذين دفعوا ثمن قتله فيما بعد ، كان كبيراً

وهذا نوع من الإحترام

أما أمه ، فلم يتحسن مزاجها إلا بعد حلقات كثيرة ، حين أصبحت ترى أن دم ابنها لم يذهب هدراً ، وأن الأشرار يدفعون الثمن ، وكان لدعواتها التي رفعتها في صلواتها ، وأنزلتها على رؤوسهم الدور الحاسم في إعتقادها

ـ اللهم انتقم منهم ، اللهم يَتِّم أبناءهم وافضح نساءهم ، اللهم احرق قلوبهم كما حرقوا قلبي

لكن صعود أنجم الذين قتلوه ، مع مرور الزمن ، أكد له فيما بعد أن ميتته

كانت مجانية

ها قد قالها بنفسه

ولكن ، ها قد جاء من يأخذ بثأري الآن

ثمة أشياء كثيرة تمور في صدره وتصطرع ، أشياء تتفلت باحثة عن مَخرج ما

لندعه يتحدث براحته إذن

كنت أول القتلى نعم ، ولكن آخر من يموت

من قال هذا الكلام ، لا أذكر ، لكن فيه رائحة شعر ؛ إنه شاعر بالتأكيد ؛ هل دققتُ قصيدته هذه ذات يوم ؟!

ربما

لقد حرمت من أن أكون كاتباً ، بالطريقة نفسها التي حرمتُ فيها من

أن أكون نجماً

مُخرج هناك ، ومحرر ثقافي هنا

(قصصك لا تمشي على الأرض) هكذا قال لي ، ولم أكن على ما أنا عليه اليوم من جرأة لأسأله

وهل تمشي القصائد على الأرض ، ونحن نقول عندما نعجب بشاعر لقد حلّق

ما ذنبي إن علوت أكثر من الشعراء ؟!

ما ذنبي إذا إتجهتُ إلى الكواكب السيارة ؟!

(قصصك كونية)

قصصي كونية ، طيب

كان بودي أن أواجهه في تلك اللحظة الحاسمة وألقنه درساً في الأدب ، لكنني كبحتُ جموح خيالي وعدتُ له بقصة أخرى ، فماذا حدث ؟

قال لي لقد أصبحت تحلّق قريباً من الأرض ، لكنك لم تلمس ترابها بعد

فخرجتُ غاضباً

ذهبت وفتشتُ عن كتبه في (مكتبة المحتسب) ، وجدتُ التراب يغطيها ، والفئران ـ للأمانة ، لم تكن هناك فئران لتأكلها ـ ووجدتُ أوراقها مُصفرة ، ولذا أشرق وجه صاحب المكتبة ما أن رآها في يدي

إنها المرة الأولى التي يبتسم فيها صاحب مكتبة لي

وعرض علي أن آخذ الكمية كلها بسعر مخفض جداً ، ما دام الكاتب عزيزاً علي ـ حسب اعتقاده ـ إلى هذا الحد

ذهبتُ وقرأتها ، فماذا كان فيها ؟

أعترف أنه لم يكن يُحلّق أعترف أنه لم يكن يمشي .أعترف أنه كان يتعثر .

كتابةٌ مملة ، لا تقارن بأسوأ فيلم حضرته في حياتي - ولاحظوا أنني لم أُسمِّ نوعها - حتى لا يقال ها هو يأخذ بثأره بعد فوات الأوان

ما هو أسوأ فيلم حضرته في حياتي ؟!!

يوم الإستهتار !؟ غزو المريخ ؟ الغرباء بأجزائه ؟

لا ، هذه ليست محاولة لمسح الجوخ ، فأنا لا أعرف تماماً ما الذي يلبسه إخواننا في الكواكب البعيدة ثم إن هذا رأيي ، وهو مُعلنٌ ، لا بالقول بل بالفعل

حملتُ له قصتي الثانية ، بعد تلك المتعلقة بستالوني وشوارزينغر ، مستجيباً لإلحاحه الشديد بأن أكون كائناً أرضياً ، وأن أُقصقص أجنحتي قليلا - هكذا قال - كي أتحكم بها أنا ، لا أن تتحكم هي بي

لقد دققت عشرات القصص فيما بعد ، ولم تكن بمستوى ركبتي ما كتبت ، ولكنها كانت تُنشر ، وتنشر صور أصحابها إلى جانبها ، وتطبع أسماؤهم بالبنط العريض ، أو كما نقول نحن ٢٠ أسود و ٢٢ أسود أحيانا ، أما العناوين فمن ٦٠ أسود فما فوق

ثم أين هو ، أين كتاباته ، هو الذي تصرف معي وكأنه فيكتور هيجو ، أما الآن فأود أن أسأله أنت تشبه مَن ؟

في المرة الثانية قال لي كفَّ عن تملّق سكان الفضاء

هكذا ، بلا أي لياقة ، وبلا أي خوف من أن يأتوا ذات يوم ويفتكوا به

آمل أن يكون أول المفتوكين

كنتُ أريد أن أصرخ في وجهه ، كنتُ على قاب قوسين أو أدنى ، من أن أصرخ في وجهه كلمة تملّق لا يجوز استخدامها هنا ، لأن التملّق يكون لشخص لا تؤمن به ، تحتقره حقيقة ، ولكنك تبدي له غير ما تُخفي ، أما المسألة بالنسبة لي فهي إيمان بأولئك الناس البعيدين وقدراتهم وإنسانيتهم

كنتُ أريد أن أقـول له   ربما كـانوا قـبلنا على هذه الأرض ، ولكنـهم تركوها حين عرفوا بأن أمثالك سيسكنونها آخر الأمر

لن أطيــل

لقـد سـبـقتُ رجل الكمـبيـوتر ، لا أعني عـمـراً ، لا ، فـهـو شـاب ومـعـجـزة ، وأعنـي هنا   بيل غـيـتس ؛ وها أنتم ترون ، حين يكون هناك رجل معجزة ، لا أتوانى عن إعطائه حقه كاملا ، بأن أصفه (معجزة) ؛ لكنني بتواضع شديد سبقته وسبقتُ أفكاره عشرين عاما على الأقل ليس كل أفكاره بالطبع ، بل تلك المتعلقة بقوله   إن الثورة التكنولوجية تأتي عندما يستطيع الإنسان أو الإنسانة أن يشاهد فيلم (ذهب مع الريح) وأن يستبدل أو تستبدل صوت كلارك غيبل أو فيفيان لي بصوته ووجهه أو بصوتها ووجهها

لقد لفتت جملتـه انتبـاهي فـور تدقيـقي لها ، لذلك نسختـهـا على ورقـة ـ بعد الإنتهاء من العمل ـ وشبكتُها بأوراق قصتي الثانية ، التي لم تُعجب المحرر الثقافي العبقري ، حين عدتُ للبيت

لن أطيــل

تبدأ قصتي برجل ـ أقل عمراً من غـيـتس ـ يحلم أفضل من الجميع نعم ، أفضل من كل الناس   وتدور الحكاية في المستقبل البعيد

لماذا ؟!!

لأنها حكاية أكثر إتساعاً من الحاضر

في تلك الأيام يتلاشى الإعتراف بموهبة الكتابة تماماً ، وتصبح الموهبة الحقيقية هي موهبة (القدرة على الحلم)

هكذا يقوم الحالمون الموهوبون بإحاطة رؤوسهم ليلا ، أو وقت القيلولة بأسلاك حساسة تنتهي بأجهزة دقيقة تسجل أحلامهم على (ديسكات) ـ لم أكن أعرف هذه الكلمة تلك الأيام ـ لذا استخدمتُ كلمة (أشرطة) ومن ثم يذهبون بها إلى الناشرين ، حيث تجد طريقها إلى جمهور الناس

فيما بعد عن طريق وسائل حديثة أكثر تطوراً من الكتب ؛ بل وتصل إلى درجة بث هذه الأحلام مباشرة عبر أجهزة التلفزيون ، أو تحويلها إلى أفلام سينمائية

وهنا ينتهي دوْر المخرج وكاتب السيناريو والممثلة والممثل وعمال الإضاءة ومُرَكِّب الفيلم ومدير التصوير ، وينتهي زمن الأجور العالية الذي أدى إلى إرهاق ميزانيتي في السنوات الأخيرة ، بسبب رفع ثمن التذاكر بحجة أن الأفلام باتت مكلفة ، كما يقول أصحاب دور العرض وفعلا ، ما الذي فعله توم كروز مثلا ليجني كل تلك الأموال عن فيلم (مهمة مستحيلة) فها أنا أقوم بمهمة أصعب منها بكثير دون مقابل

وفي حالات بسيطة ، يمكن السماح (للحالم الموهوب) بالتدخل لتحسين حلمه أو سد بعض الثغرات فيه ، ولكن ، عن طريق أحلام جديدة يحلمها ، يمكن إعتبارها مكملة للحلم الرئيس

طبعاً ، ستبرز في تلك الأيام مشاكل من نوع آخر ، ولكن بروز هذه المشاكل لا يعود إلى قصور في فكرتي ، بل إلى تلك الطبيعة السيئة في بعض البشر ، وأعني السرقة ؛ حيث سيتم السطو على أحلام الموهوبين أحياناً من قِبَلِ أناس أقلّ (حُلُميَّةً) أو موهبة ، أو بالتجسس على الموهوبين والتقاطِ موجات أحلامهم ، وبالتالي الذهاب إلى الناشرين قبل أن يفيقوا ، والتعاقد معهم

مسألة الأسلوب طبعا لم تغب عن بالي ، فالحالم الحقيقي له أسلوبه الخاص به ، أي له بصمته الخيالية على شريط حلمه ، بحيث نقول هذا حلم فلان ، قبل أن نقرأ حتى اسمه على الشريط الحلمي ونقول هذا متأثر بفلان ؛ وهذا نسخة باهتة عن فلان . وربما نقول هذا مُقلّد جيد ، مع اعتقادي أن ليس هناك مقلد جيد ، لأن الصفة الملصقة باسمه في غير مكانها ، إذ لا يمكن القول هذا لص جيد أو قاتل جيد أو مرتش جيد أو مصاص دماء جيد

أظن بأن فكرتي واضحة

لن أطيــل

هذا هو الجزء الأول من القصة ، حيث يليه الجزء الثاني ، الذي ينقلنا إلى الفكرة التالية ، وهي التي أثبتُّ من خلالها أنني سبقتُ (غيتس) بعشرين عاما

يتلخص هذا الجزء كالتالي

أحد الحالمين الموهوبين جدا ، يحلم بأن هناك رجلا حزينا يعمل ممثلا - أرجو ألا يُفهم من هذا الحلم أن المقصود هو أنا بعيني - فهذا الرجل شارك في عدد من الأفلام - لاحظوا الإختلاف - فأنا لم أشارك في أي فيلم كل ما شاركتُ فيه مسرحيات لم أُقتل فيها أبداً ، وعشر دقائق في مسلسل لا غير ، لكنها قد غيَّرت حياتي

ذلك الرجل الحزين يعمل - كما قلت - في الأفلام ، ويُقتل فيها أيضا

إذا كان ثمة تشابه هنا ، فهو مفهوم ، حيث لا يستطيع الكاتب أن يُبعد خبراته تماما عما يكتبه أو يبدعه أو يحلمه - مستقبلا - هكذا قرأت

يخترع الرجل جهاز كمبيوتر متطوراً ، يضع فيه القصة - الحلم فتتحول إلى فيلم سينمائي فوراً وقد قمتُ أيامها بأبحاث كثيرة في بطون الكتب والمجلات لكي أتعرّف على مفردات عالم الحاسوب

لن أطيــل

يقوم الرجل الحزين (بتخزين) صور بطلات السينما الشهيرات ومعها ، يُخزِّن صوره أيضاً

وطبعاً ، سيقوم باختبارهن لا ، لن يستغل براءتهن أبداً

كنتُ أيامها معجباً بعدد من النجمات - لكنني أقلعتُ عن هذا الإعجاب لأسباب سأقولها بصراحة حين يجيء دورها فيما بعد - على رأسهن ناديه الجندي ، زيزي مصطفى ، نوال أبو السعود ، شويكار ، ونادية لطفي كما ظهرت في فيلم (أبي فوق الشجرة) ، وشمس البارودي

كما ضحكت في فيلم (حمام الملاطيلي) ، واستبعدتُ فاتن حمامة لأنها تبدو دائما حزينة ومغلوبة على أمرها مارلين مونرو لم أكن أحبها لأنها تضع الكثير من أحمر الشفاه ، ولذا ، كان من الصعب على البطل أن يُقبّلها ، لكنني أحضرتها كي أنتقم منها ، وأقول لها أنها لا تصلح للدور ، مدعياً في النهاية ، كي لا أجرحها أن السبب يكمن في أنها ماتت منتحرة ، جبانة وفكرت بأنجريد بيرغمان كما ظهرت في (لمن تُقرع الأجراس) و (كازبلانكا) ومن يومها خالفت بيل غيتس ، حيث لم تخطر ببالي ـ مطلقاً ـ فيفيان لي ، ببساطة لأنني نمتُ أثناء عرض (ذهب مع الريح) وقلت التي تنيمني تنيم غيري

طبعاً ، إذا ما أردنا إعادة كتابة القصة هذه الأيام ، أو تحديثها كما يقال ، فإنني ـ إذا ما تجاوزت التغيرات الكبيرة التي طرأت على تفكيري ، سأدفع بقوة باتجاه إشراك ممثلات جديرات بالإحترام ، من وجهة النظر السائدة هذه الأيام !! من أمثال شارون ستون كما ظهرت في فيلم (غريزة أساسية) و (سليفر) ، وكيم باسنجر كما ظهرت في فيلم (تسعة أسابيع ونصف) ؛ وللحق فإن هذا الفيلم يكاد يبز فيلم (أبي فوق الشجرة) بزاً ، لكن الفرق بينهما ، كالفرق بين فكرتي وفكرة بيل غيتس ، فثمة زمن طويل يفصل بين الفيلمين ، يجعلني أدعم فيلم (أبي فوق الشجرة) كفيلم سبّاق وسأفكر بإضافة يُسرا كما ظهرت في فيلم (الإرهاب والكباب) و (المنسي) ، وسأفكر باختيار جيسيكا لانغ كما ظهرت في فيلم (كينغ كونغ) ، وسأختار ميشيل بيفيفر ، سوزان سراندون

يكفي

الطمع ضرّ وما نفع

يقوم الرجل الحزين الذي يجلس وراء الكمبيوتر ويتحرك في داخله ، باختبار الممثلات

أكرر لن يستغل براءتهن إلا بما يقتضي الدور

هن بالطبع سيقمن باستغلال براءته أيضا

لن أطيـل

طبعاً ، بالنسبة لـمَشاهد القصة ، أو خلفيات الأحداث ، يغيرها الرجل الحزين كما يريد ، فمثلاً ، إذا كان يحنُّ لجبال همالايا التي لم يرها في حياته ، فإنه يجعل أحد المشاهد يدور فيها (بكبسة زر) ، وكذلك يمكن أن يختار مشاهد من الهند أو كشمير تشبه تلك التي التُقطتْ فيها مشاهد فيلم (سنجام) و (الفيل صديقي) ، أو يختار غابات أفريقيا ، منطقة الأهرامات ، دهاليز البتراء ، صحارى كاليهاري ، جبال روكي ، منطقة البحيرات الخمس ـ التي قرأنا عنها كثيراً في المدرسة ـ ، شوارع مونتي كارلو ، باريس ، ناطحات السحاب في نيويورك ، أعماق البحر الأحمر دون أن يكون مضطراً للتعرض إلى هجمات القرش الأبيض ، أو يقوم بزيارات مجاملة للكواكب الأخرى مع حبيبته البطلة

ولأنني لم أكن أرغب بأن يخرج الرجل الحزين فيلماً مأخوذاً عن قصة لغيره ، فإنني جعلته يؤلف قصة ـ هي تلك التي يضعها في الكمبيوتر ـ وهي تتحدث عن طاقم تصوير فيلم يقوم فيه بدور البطولة ، لكنه غير راض عن فرض إحدى الممثلات عليه

هكذا ، وعلى مدى ثلاث ساعات !!! يبتكر أساليب عديدة للتخلّص من طاقم التصوير والمخرج ومساعديه وفنيي الإضاءة والمكياج ؛ ويبتكر لكل واحد من الطاقم ميتة تليق بلؤمه وبشاعته ولا ديمقراطيته ، ويبدأ باختيار البطلات بنفسه وكنوعٍ من التجديد ، تؤدي كل واحدة منهن مشهداً أمامه ، إلى أن يجمعهنَّ مشهد واحد معه ، هو الحي الوحيد في نهاية الفيلم

هذا خيار أول !

أما الخيار الثاني ، فهو أن يقوم بإخراج ست عشرة نسخة من القصة في ستة عشر مكاناً مختاراً كان يودّ أن يكون فيها ؛ وفي كل نسخة تقوم

بطلة منهن بأداء الدور أمامه

لن نطيـــل

لو نشرت هذه القصـَة ، التي أستحضرها الآن من الذاكرة في تلك الأيام ، لساعدت العلماء على اختصار عشرين عاما من التجارب ، أو (الحلم) بأن تنفذ هذه التجارب في يوم ما ، لكن المشكلة كانت في ذلك المحرر الثقافي ، الذي ظل يطالبني بالنزول إلى الأرض ، إلى أن صعد بنفسه إلى السماء ، لأُثبتَ في النهاية أنني إبن هذه الأرض أكثر منه

إنتهيت

كان ذلك فصل

العودة إلى ما يُثبتُ أنه سابق لزمانه

ويليه فصل

الأسباب الموجبة لتراجعه عن حب ممثلات الصف الأول

لا يعرف الإنسان متى تبتدئ بعض الأمور ، لا يعرف متى تنتهي

ذلك جـزء من مكابداته وعـذاباته في تلك الرحلة التي أُصطلح على تسميتها

الحيـــاة

هكذا وجد نفسه مدفوعاً بقوة أسطورية ، لم يكن يعلم في أي يوم من الأيام أنها كامنة فيه نحو السينما

وهو يتساءل اليوم ، ما الذي يجعل المرء على هذه الدرجة من الوله وهو يقع في حب شيء ما في هذا العالم

الحب أعمى

أمه قالت هذا الكلام ، وصدقه ، حتى قبل أن يعرف ما هو الحب

طفولته مرت بلا جراح عميقة ، ويمكن إعتبار ذلك واحدا من إنجازات أمه أيضا فما أن رأت الزغب النابت تحت أنف وحيدها ، على طرفي لحيته وتحت سالفيه ، حتى أخذته جانباً وقالت له بصوت عميق ، يليق

بقدسية الوصية التي صبتها في واحدة من أذنيه

إنتَ اليوم ، ما شاء الله ، كبرت وصرت شب ، والشباب طيش على شان هيك بدي أوصّيك ، إياك ثم إياك تتطلع على أعراض الناس ، وكل ما جيت تتطلع ، إتذكر إنه إلك ولايا ممكن الناس يطلعوا عليهن ، فاهم يا حبّة عيني ؟!!

يومها ، راح يهزُّ رأسه مراراً وتكراراً إلى أن طلبت منه الوالدة

رحمها الله

أن يوقف هزَّ رأسه ، فاستجاب . لكن الأمر إختلط عليه ، فقد تحدثت أمه عن (ولايا) ، وهو يعرف أن ليس لديه سوى (وليَّة) واحدة فكيف ، ولماذا إستخدمت صيغة الجمع ؟ هل كانت تقصد أنها أيضا عُرضة لذلك؟

كانت صبيّة أيامها هل يصح أن يقول المرء عن أمه ـ علناً ـ انها جميلة؟!! لست أدري ؟

لقد قال له أبوه

رحمه الله

ذات يوم أتمنى أن تدخل الجامعة وتنجح ، ويرزقك الله ببنت حلال كأمك

في ذلك اليوم ، نظرتُ إليها ، فإذا بي أفاجأ كما لو انني أراها للمرة الأولى

وعلى الرغم من أن ملاحظة أبيه قد فتَّحتْ عينيه ، فراح يقارن بين كل فتاة يراها وبين أمه ، إلا أنه توصل إلى حقيقة راسخة

ليس هناك على هذه الأرض من تشبهها

وقد جاءت عدة ملاحظات إضافية قالها أبوه ، لتشير إلى جوانب أخرى في شخصية الوالدة ، ما كان يمكن أن يراها وهو ينظر إليها ، لأنها جزء عميق من شخصيتها

لا يدركه الإنسان بالنظر بل بالمعايشة الطويلة

تحذير أمه له ، وملاحظات أبيه ، دفعته للبحث عن جمال آخر لم يجده سوى في السينما

هناك في العتمة ، وكما لو انك الكائن الوحيد في هذا العالم ، تجلس ، وأمامك فيض من جمال لا مثيل له على هذه الأرض التي تسير عليها

لقد وقع أول ما وقع في حب حفلات الساعة الثالثة ، لأنها تتيح له أن يختبر المدينة من خلال ما رأى في الفيلمين اللذين شاهدهما حيث بإمكانه مغادرة الصالة قبل غروب الشمس ، وتأمل الفتيات العائدات إلى منازلهن مسرعات

لم أذهب إلى دور السينما تلك التي تعرض فيلماً واحداً إلا مدفوعاً بأسباب عظيمة

لكنه قبل أن يختبر المدينة وجمالها ، كان قد اتخذ القرار الأصعب في حياته ، أن ينظر إلى أي فتاة بالبراءة التى ينظر فيها إلى أخت ، حتى يكتبَ كتابه عليها

هذا الحل أطلق أجنحتي كي ترف على هواها دون أي شعور بالذنب

لكنه ، لم يستطع كبح اندفاع ذلك التعلق الشديد بممثلات فائقات الجمال ، أو التعامل معهن انطلاقا من نظرية (الأخت) لأنهن لسن من بنات الجيران ، ولسن من بنات المنطقة ، ولسن من بنات العاصمة

هكذا ، وجدت نفسي واقعاً في الحب قبل أن أُدرك ذلك

وقد بقي غافلاً عن الأسباب التي تدفعه لمشاهدة فيلم ما أكثر من مرة ، حتى راحت الممثلات يتقاطرن على أحلامه دون انقطاع كل ليلة تقريبا ، وأدى ظهور جيسيكا لانغ في فيلم (كينغ كونغ) إلى قطع الشك باليقين .

لقد أحببتها

ولذا ، راح يتبع الفيلم ، حيثما عرض ، إلى أن حفظ وجهها غيباً

بحيث أصبح بإمكاني استعادة ملامحها في أي لحظة أريد

لكن حساً ما ظلّ يخزُّ ضميره

هل الوقوع في حب ممثلة حرام أم حلال ؟

بين أخذ وردٍ بينه وبين ذاته في ليالي الأرق والسُّهد الطويلة ، أيقن أن المسألة لا يمكن أن تكون مصنفة في خانة الحرام ، وإن كان لا بد من تصنيفها ، فيمكن القول إنها من فئة أبغض الحلال

منذ عامين تقريبا ، ذهب لمشاهدة فيلم جديد لها في سينما (فيلادلفيا)

مدفوعا بحنين غامض إلى الماضي

لكنه خرج من الفيلم حزيناً ويائساً

لقد عشت إلى ذلك اليوم الذي رأيت فيه أقرب الممثلات إلى قلبي يَشخْنَ أمام عيني ، دون أن أستطيع فعْلَ أي شيء

الشيء الوحيد الذي ساعده على تجاوز محنته ، هو أن ممثلات أخريات لم يَجُرْ عليهن الزمان كما جارَ على حبيبته الأولى ؛ حافظن على جمالهن

أو ان جمالهن قد حافظ عليهن ، فكن أشبه بالخالدات

صحيح أن كلمة (حبيبة) كلمة كبيرة ، ولا تقال جزافاً ، إلا أن موقعها في هذا السياق جاء كشكل من أشكال الماضي ، الذي تخلّى عنه بكامل إرادته من زمن طويل

فبعد أن فشل في العثور على فتاة تشبه أمه

وهذا أمر طبيعي ، لأن الأم لا تتكرر

قرر الوقوع في حب فتاة أقل منزلة ، فلم يجد أمامه مثالا يحتذى سوى نجمات الصف الأول في السينما ، ويجدر القول هنا أن ما دفعه بقوة نحو

جيسيكا لانغ ، كونها تظهر للمرة الأولى على الشاشة ، وهذا يضمن تواضعاً فيها لا يمكن أن يعثر عليه في الممثلات الراسخات في عالم السينما

لكن الشيء الذي لم يخطر بباله ـ هو الذي تتبع كلّ قصاصة كُتبتْ أيامها حول لانغ ودورها ـ أن باب النجاح والصعود قد فُتِحَ لها ، بحيث ستغدو واحدة من تلك الخالدات

وقد كان علي أن أدرك منذ البداية أن وقوعي في حبها ، مؤشر على مستقبل زاهر ينتظرها

يعترف الآن أن فشله في العثور على فتاة تشبهها في العاصمة ، جعله يفكر في خيانتها

إذ اندفعتُ بقوة اليأس باحثاً عن حب آخر ، فزلزلتني دومينيك ساندا ، وسواها

فكان لهذا الحب العاصف مضاعفات ، لا يقال فيها بأنها أقل من قاتلة ، وبلغ السيل الزبى ، حين وجد نفسه مضطراً للتغاضي عن مشاهد تثير الغيرة والعذاب ، كلما غاصت بطلاته في مشهد حب عنيف مع زملائهن من الممثلين

لا أستطيع القول بأنني أحببت ممثلاً بصورة كاملة في أي يوم

وقد كانت دور السينما في الماضي أكثر جرأة في عرضها للمشاهد (القوية) ، بحيث تَعَكّرَ صفو حياته تماما

صحيحٍ أنه ابتكر طريقة يغادر فيها القاعة باتجاه الحمامات ، كلما توقع أن مشهداً من تلك المشاهد سيبدأ بعد قليل ، إلا أن الرائحة الكريهة التي تفوح عادة من حمامات دور السينما كانت تعيده مرغما لتخيّل ما يدور هناك وراء ظهره ، كما لو انه لم يزل في مقعده

هكذا ، قرر في إحدى الليالي التي

: لا قمر فيها . .

أن يتواضع ، بعد أن تأكدت له مقولة أمه
إللي بطّلع لفوق رقبته بتنكسر
فراح يبحث عن حب آخر يملأ حياته
بعد بحث وتفكير طويلين ، وجد أنه لن يستطيع إعلان الحرب على السينما لمجرد أن واحدة من فتيات عمان لا تشبه أيا من نسائها الجميلات . لكنه اهتدى لحل مرض
أن لا أقع إلا في حب ممثلات الصف الثاني وأن أتحاشى ما أمكن أي ممثلة أجنبية ، لأن العثور على فتيات شقر مثلا ، في مدينة سمراء ليس أمرا هيناً ، ولأن في إحدى وصايا الوالدة - رحمها الله - يكمن الحل
(من طين بلادك إطلي خدادك)
هذا القرار منحه راحة لم تدم طويلا
كما أن الحل نفسه لم يكن خاليا من بعض التعقيدات
فقد تبين له أن بعض ممثلات الصف الثاني ، كن أجمل بكثير من ممثلات الصف الأول
في فيلم (دعاء المظلومين) مثلا ، كانت مديحة كامل - رحمها الله -
أكثر جمالا بما لا يقاس إذا ما قورنت ببطلة الفيلم المطلقة (شويكار) وفي فيلم (الخيط الرفيع) كانت المسألة أسهل ، لأنني كنت أنظر إلى فاتن حمامة باحترام شديد ، في حين أن (بوسي) التي أدت دورا ثانوياً كانت على درجة عالية من الجمال
ما أراحه قليلا أن الأفلام العربية ، كانت أقل جرأة في مجال إنتهاك حبيباته ، رغم أنه رأى أن استغلالاً بشعاً كان يمارس على ممثلات الصف الثاني
كما لو ان التي تُقدم أكثر تَتَقَدمُ أكثر
ومع مرور الأيام - كما يقال - تبين له أن مشاكله أمامه ، وقد كان يظن

أنه خلّفها وراءه إلى الأبد فقد بدأ سطوع عدد من نجمات الصف الثاني ، وأصبحن ممثلات صف أول باقتدار

كيف فاتتني قضية كبيرة كهذه صحيح أن الحب أعمى

وما ضاعف حجم يأسه ، أنه لم يعثر تماما على شبيهات حقيقيات لأي ممثلة أحب ، إلى الحد الذي راح يصرخ فيه ذات يوم

من أين يأتون بمثل هؤلاء الفتيات الجميلات

إذا ما عدنا إلى الوراء

كثيراً جداً

فإن أمه كانت مسرورة من حاسة الجمال المرهفة التي يتمتع بها ابنها ، وبعيداً عن غضب الأمهات التقليدي الذي يطلُّ برأسه ما أن تلمح أي منهن صورة فتاة معلّقة فوق سرير الإبن ، فإن أمه كانت تعلن في سرها فَرَحاً عذباً ، لأن مستقبل ابنها مضمون ، ما دام ذوقه على هذه الدرجة من الكمال

وقد طوّر طريقة ، لا يمكن أن توصف بأقل من

مبتكرة

حين اهتدى لفكرة تتمثل في أن يكون حجم صورة الممثلة متنامياً ، وموازيا لمقدار إعجابه بها

أو العكس !

لذا ، كان يجيء وقت ، تتربع فيه صورة ممثلة ما على الحائط ، بحيث تُخفي عشرات الصور ويجيء وقت يشعر معه أن الحائط كله لا يكفي لصورتها ، وأن الصور التي تباع ، رغم كبرها ، صغيرة ـ وفي ذلك تكريم يفوق الحصول على جائزة الأوسكار في إعتقاده ـ ويجيء وقت تبدأ فيه صورة ممثلة ما بالإنكماش شيئاً فشيئاً ، إلى أن تكاد تختفي

وكانت الأسباب وراء ذلك متعددة ، منها ما يتعلق بالغيرة ، ومنها :

ما يتعلق بتدني أو بارتفاع مستوى فيلمها الجديد ، ومنها ما يتعلق أحيانا بأخبارها الخاصة ، مثل الزواج وشائعات الحب ، وما إلى ذلك

وقد ظل يعاني في هذا المجال ، إلى أن وجد نفسه وجها لوجه مع الفتاة الجميلة جداً جداً ، إذ أدرك بحكمته يومها

أن التي تحبها حقيقة لا تشبه إلا نفسها

وفي محاولته للتكفير عن مغالطاته العاطفية التي إرتكبها في حياته مزق الصور كلها ، ولم يبق إلا على صورة واحدة هي تلك الموجودة في خياله لفتاته هو

الجميلة جدا جدا

الآن ، يعرف أنه نظر إلى أعلى أكثر مما يجب

وإلا لما كانت يد القدر قد إختطفت روحها

الآن ، حين يمضي إلى مشاهدة فيلم ما ، لا يرهق روحه بتأمل البطلة ، أو وصيفتها التي تقوم بالدور الثاني

الآن ، لا تلفت انتباهه سوى تلك الفتيات اللواتي يقمن بأدوار عابرة

الفتيات الكومبرس

لأنهن يظهرن فجأة ، ويختفين

في لحظات ضيقة ، لا تؤهل المرء للوقوع في حبهن ، أو استعادة وجوههن مرة أخرى

الآن

يكفي ، أرجوك !!

كان ذلك فصل

الأسباب الموجبة لتراجعه عن حب ممثلات الصف الأول

ويليه فصل

أسرار الحادثة التي أعتبرت فاتحة تحرشه بالحكومة .

لقد لعبت القطة في عبّي

خطر له هذا القول المأثور ـ بما فيه من تحريفات يقتضيها الموقف ـ أمام مبنى المحكمة على يساره كانت تترتفع أكوام التراب التي تؤذِن ببدء العمل في شقٍّ نفق وادي الحدادة ـ وسط البلد وعلى يساره سلسلة مكاتب الطيران وما فوقها من مكاتب وفنادق قابعة في صمتها

تأمل الدرج الذي صعده مئات المرات ، الدرج المحاذي لمبنى المحكمة فرآه على غير ما رآه وعرفه وخبره ، (مهرتماً) كان ، تكسَّرتْ حواف درجاته ، فبدا كعجوز فقدتْ نصفَ أسنانها

كم من صولات وجولات شهدها هذا الدرج العتيق ؟!!

هنا كان بإمكاني أن أمتحن قوة أقدام الصبايا ، وأراقب انتظام تنفسهن

كم من صبيّة تركها عائداً بعد أن تابعها حتى منتصفه ، لا لشيء إلا لأنها بدأت تلهث ، أو استندتْ إلى أحد جانبيه أو جلست

تستريح

أيامها ، كانت حكمته ، في طور اندفاعها الواثق ، وتعرف مداها ، خاصة وانه قد قرر أن يعيش طويلا

فتاة لا تستطيع صعود درجات قليلة بيسر ، لا تستطيع أن تقطع مشوار العمر معي

لكنه للحق ، كان يُعجب بكل واحدة منهن ، بعيداً عن طول نَفَسها أو قِصره ، وقد كان يمكن أن تدفع أجرة السرفيس لترتاح من هذا الصعود المهلك ، وهي تحمل في يدها ، يديها ، أو على رأسها ، كمية من الحاجيات تهدُّ ظهر عتّال حقيقي في (سوق السكّر)

ولكي نوضح الأمر سندعه يقول

كنّ مُقتصدات ، أو كما كانت تقول الوالدة ـ رحمها الله ـ مُدَبِّرات ، أي قادرات على تدبير أمور حياتهن

في مسائل الزواج ، لم يكن يستطيع إبعاد ميزة كهذه ، فهو يعرف تماماً

(البير وغطاه)

حيث لا توجد بئر أصلاً ، فما بالكم بغطاها ؟ لكن متابعة الفتيات ، كانت نوعاً من الإحتياط ـ كما قال ـ حتى لا يفاجئه الزمن في لحظة ضيقة إذا ما قرر الزواج بمجرد عثوره على عمل

نعود للقطة قليلا ، القطة الذي لعبت في عبّه

هل كان ما رأيته حقيقة ، أم كان وهماً ؟!!

سأل نفسه ، ولكي يطمئن ، بدأ بمراقبة كل ما حوله من أشياء ، من مساحات ضيقة محشورة بين بناءين معفرين ، إلى أشجار شاحبة تلزمها زخة مطر شديدة كي تسترجع نضارتها

: حمداً لله أن الأشجار لم تختف أيضاً

إلى عشب أصفر بعيد في السفح ، إلى فضاء ضيق محاصر بين جبلين يفصلهما شارع لا يتجاوز عرضه عشرة أمتار ولا توصلهما الأعداد الهائلة لمكاتب الطيران المتناثرة على طوله

أريد علامة أخرى ، حقيقة أخرى ، أو وهما آخر ، لأقولَ لقد رأيت القطة فعلا

كانت القاعدة الذهبية التي لا يشك في صحتها ان وهمين متتاليين في موضوع واحد يمكن أن يصنعا حقيقة

هكذا راح يبحث ، مُطْلقَاً عينيه اللتين لا يشك بحدة إبصارهما تفتشان عن حركة ما ، عن طائر دوري ، سنونو ، صقر ضال جاء المدينة باحثا عن طعامه (وقد كان يرى في فترات متباعدة هذه النوعية التي يعتبرها كسولة وأقل من المهمات الصقريّة الملقاة على عاتق أجنحتها وقوة إبصارها) لم يجد وأحس بلهب الشمس يضطرم ، فاندس تحت سلسلة الأعلام التي لم يكن غيرها هناك قادرا على تبديد وحشة الفراغ ، ونشر الظلال ، وبث الطمأنينة في قلبه

عاد لتأمل شبابيك مكاتب المحامين والفنادق الرخيصة ، لا أحد

قبل في النهاية بدرج ينشق وقطة تخرج من جوفه لا غير . لكنه فكّر

ما دمت مشغولاً بالأشياء الكبيرة ، فلن أرى الأشياء الصغيرة

ضيّقَ جفونه ، باحثاً عن فراشة ، جندب ، ذبابة ، بعوضة

كنتُ سأكتفي ببعوضة

في لحظات غائمة مقفلة كهذه

تتغير المعايير ، لكل لحظة معاييرها

لا ، لم يكن في هذا القول محاولة للتهرب والإنحناء ، كما يمكن أن يوحي لا ، فهو على يقين

ان بعوضةً تؤدي إلى اكتشاف حقيقة ما ، ليست أدنى منزلة من أسد يؤدي وجوده إلى اكتشاف حقيقة أخرى

هكذا ، راح يبحث مطمئناً لقوة ورسوخ مبادئه عن دودة ، مجرد دودة في أكوام التراب الحمراء التي كان العمال قد كشطوها عن سفح الجبل تمهيداً لولوجه

وللحظة أحس أن وجود حشرة صغيرة لا غير ، لا يقل أهمية عن ذلك التوق الدائم الذي سكنه صغيراً وشاباً ، ونعني ذلك المتعلق بوجود أخ له

راح يحفر التراب بكل ما فيه من قوة ، فأكتشف أن انفعاله لن يوصله إلى شيء ، لأنه

يعميني

بدأ يُفلّي التراب ، ذراته الحمراء الصغيرة ، يُبعد الحصى ، الأعشاب اليابسة ، فتات أكياس النايلون ، الأوراق المتحللة

لا شيء

كنت سأكتفي بأي حيوان وحيد الخلية ، رغم أنني للحق لا أعرف إن كان مثل هذا الحيوان يعيش في بلادنا أم لا ، خاصة وأن أرض هذه البلاد لم تعرف البخل يوما ، بحيث تكتفي بمنح كائن يعيش فيها خلية واحدة فقط

لكن المعضلة التي واجهها ، عدم معرفته ، إن كان هذا الحيوان يُرى بالعين المجردة ، أم يحتاج الأمر إلى مايكروسكوب

نقصُ معلوماته في هذا المجال سببه محرر الصفحة العلمية ، وإلا فإن موضوعاً حساساً كهذا ، يجب أن يكون قد مرَّ عليه ودققه

صفحات علمية !!! هراء ، ما دامت لا تلتفت إلى حيوانات مسكينة من هذا النوع ، ولا تتحدث لنا عن صفاتها ، كي نعرفها على الأقل إذا ما صادفناها ، أو بحثنا عنها

***

في موجة حزن عارمة ، سبَّبَها له إخفاقه في العثور على دودة ، إنتابه إحساس بأنه ليس أكثر من حيوان وحيد الخلية

فأنا لم أعد أعرف إن كان يلزم الآخرين عينان كي يروني بها أم مايكروسكوب

إنها واحدة من لحظات المكاشفة القاسية ، لكن مثل هذه اللحظات كانت دائماً مفيدة لأكثر من سبب ، فبغيرها ما كان يمكن أن يخرج من الظلمات إلى النور

هكذا عادت له ثقته بيأسه ، فابتسم

ثمة أمل هناك دائماً ، وعلي ألا أفقده

بعد عشر خطوات ، إطمأن فعلاً إلى أن الأمل موجود ، وانه لم يره وأن الدليل القوي على وجود حياة انه هنا ، وانه حي ، وانه يمشي بجوار المحكمة ، ويصعد باتجاه وزارة المالية ، متجهاً إلى الجريدة ، ممتلئاً بنداء الواجب اليومي ، رغم كل الظروف

ها هو يعود ليفكر بالطريقة العلمية العملية التي ظلت دائماً سمةً من سماته الأساسية

حتى لو كنت الكائن الوحيد في عمّان ، أو في المملكة كلها فليس هناك أي مشكلة ، سترسل بريطانيا آخر الأمر ـ وهي صديقتنا التاريخية ـ مجموعة من علماء سكوتلاندا ، وسيقومون باستنساخ الشعب الأردني مستخدمين خلاياي ، صحيح أنني لا أعرف عدد الخلايا الموجودة في جسم الإنسان ـ وهذا تقصير آخر سببه صفحتنا العلمية ـ لكنني أعتقد أن خلاياي قد تكفي ، وربما تزيد

وفكّر في المواهب الكثيرة التي يتمتع بها الكتابة ، التمثيل التدقيق ، الأفكار العلمية السبّاقة ، ملاحقة الفتيات حسبَ الأعراف والأصول ، التبحُّر في عادات طائر الفري ، القدرة الفائقة على العيش من

دون أخ أو أب أو أُمّ أو صديق أو حبيبة جميلة جداً جداً ، الإحتفاظ بالأمل ، الإخلاص ، طاعة الوالدين ، الإقتصاد في المصروف ، دقة المواعيد ، وتقديس العمل

سيكون لدينا شعب مثالي ؛ نعم مثالي بكل معنى الكلمة

أرقته مسألة التشابه بين المواطنين الجدد ، لكنه حلّها ، حلاً مؤقتاً

هكذا سيكون الناس متساوين كأسنان المشط ، فعلاً ، وليس قولاً

وإلى أن يتحقق ذلك كله

سأثبت لسكان المعمورة ، أنني المواطن المثالي ، لا على أرض هذه البلاد الطيبة فحسب ، بل على هذا الكوكب إن إقتضى الأمر

مع أنه كان شبه متأكد أن ثمة رجالا صالحين ووحيدين مثله يجوبون شوارع مدن وعواصم أخرى لحمايتها ، في هذه اللحظات بالذات ، إذا ما كانت وقائع يومه الغريب تتعدى حدود عمّان

في الجانب الآخر من فكرته ، رأى العناوينَ تُطلّ من صدور الصفحات الأولى (الرجل الوحيد الذي استطاع حماية العاصمة) أو (العاصمة كانت أمانة في عنقه وحمل الأمانة) أو (جبال عمان لم تستطع حمْلَ الأمانة وحملها وحده)

وستندفع وكالات الأنباء العالمية لإجراء أحاديث معه (في حوار هو الأول من نوعه مع حارس المدينة الضائعة يقول كنت أفكر بالعبء الملقى على أكتاف أمثالي من حراس العواصم الكبيرة كالقاهرة ودمشق والرباط وباريس وبكين أكثر مما أفكر في نفسي) أو

لا ، لا ، لم أحلم يوماً بشيء من هذا

إن أعظم ما يمكن أن يتحقق الآن ، أن يكون موجوداً فقط ، بعيدا عن أي مجد شخصي ، فهو يدرك أن المجد الشخصي لا يكون غاية ، حين يكون الأمر على هذه الدرجة من الخطورة

: لاأريد أكثر من أن أعيش ، وأن يعيش معي الناس حتى النهاية .

سأكتفي بكوني وحيد الخلية لا أكثر هل يمكن استنساخ شخص آخر مني ؟ وسأل نفسه أهذا نوع من التواضع؟

لا ، ليس نوعا من التواضع ، في موقف كهذا يتحول الأمر إلى مطلب ، أي طموح واسمحوا لي أن أكون صريحاً ما دمت أتحدث مع نفسي ، في أحيان كثيرة أحسست بأنني غير مرئي ، وأن فتيات تابعتهنّ إلى منازلهن لم يبصرنني ، ولم تكن الواحدة منهن ستحس بي ، حتى لو دخلت وراءها إلى غرفتها ، ونمتُ إلى جانبها ، في سريرها ، لا سمح الله

تبين له ، أنه لن يستطيع السيطرة على الوضع ، إذا واصل التفكير بهذه الطريقة ، قرر العودة إلى نفسه ، وفي طريق عودته إليها ، تذكّر فتاة (الزرقاء) التي أوشكت أن تحترق وتحرق الحافلة معها ، لو انه لم يصعد ويجلس إلى جانبها ، تذكّر فتيات الدرج الصاعدات إلى (جبل الحسين) و (مخيم الحسين) و (جبل القلعة) و (وادي الحدادة) و (جبل النزهة)

شيء واحد كان يغيظني في أولئك الفتيات ـ رغم أن ليس لهن ذنب في ذلك ـ تلك النظرة التي يلقينها من فوق أكتافهن عليّ وهنّ أمامي ، أي فوق الدرجات العليا ، وأُحسُّ فيها بشيء من التكبّر ، وهذه مسألة أكرهها تماماً لذا ، تعمدتُ أن أسبقهن صاعداً ، وأنتظر في أعلى الدرج ، أراقبهن ، وأعرف الباسلات من اللاباسلات ـ أي اللواتي يخررنَ صريعات في منتصف الدرج لاهثات

بعد مدة ، أيقن أنه أصبح متكبراً ، حتى قبل أن يتنبه لذلك ، لأن عليه هو أن يُلقي عليهن نظرة من فوق كتفيه ، وهذا يتناقض مع مبدأ المساواة الذي رضعه صغيراً مع حليب أمه ، أمه التي كانت عادلة إلى درجة أنها أنجبت ولداً وبنتاً بالتساوي

لذا بدأ يحاذيهنّ ، فقط ، أثناء الصعود ، ويعود ليتبعهن بشكل

طبيـعي
إلا أن الأمر أضحى مُحرجاً ، حيث لا يمكنك أن تتبع فتاة أثناء صعود الدرج ، وتحافظ في الوقت نفسه على إيقاع صعودكما متساوياً
هكذا اكتفى أخيراً ، بمتابعة أولئك اللواتي يركبن سيارات السرفيس أو الحافلات ، بعد أن تبين له عبر التجربة ، أن مطاردةً من هذا النوع لا تخلو من
إشكالات ، كما يقول الكُتّاب
إلى أن أعماه الله ، وأعمته فتاة جميلة جداً
: لن أقول جداً جداً
وجد نفسه وجهاً لوجه معها ، بعد أن أوشك على الإصطدام بها ، لكنها من فرط سرعتها ، لم تتنبه إليه
كانت في عجلة من أمرها كما لو انها ذاهبة للقائي
راح يعدو وراءها ، كمن يريد أن يقول لها إنني هنا !!
لم تلتفت ، وعندما كانت تهمّ بركوب أول سيارة صادفتها
أشار لها السائق أن تتمهل قليلا حين أبصره يجري
هناك راكب آخر
والتقاليد معروفة للجميع
حين تكون هناك فتاة ورجلان في المقعد الخلفي ، فإن الفتاة لا تجلس بينهما
ألقى بنفسه في الداخل ، أو ألقاه السائق المتلهِّف للإنطلاق ؛ فأراحه الإرتباك البادي على الجميع ، رغم عدم تأكده من الجهة التي ستقصدها السيارة
وسطَ الكرسي وجد نفسه ، على يمينه الفتاة الجميلة جداً ، وعلى يساره رجل خمسيني
أدار السائق محرك السيارة على عجل

على أربعة عجلات   هأ   .هأ !!
وانطلق صاعداً طلعة جبل الحسين
إنشغلتُ ـ حسب الأصول ـ بمراقبة (تابلو) السيارة ، عداداتها ، فأيقنتُ أنها ليست سيارة مرسيدس ١٩٠ من تلك التي لا أستقل غيرها ، وبعد عشر دقائق ، تأكد لي أن السيارة أمريكية
كانت تلك هي المرة الأولى التي يتاح له فيها التمتّع بركوب واحدة من السيارات الفخمة   واسعة ، تتيح له فرصة التحرُّك بيسر ، من دون أن يضطر لملامسة فخد الجالس إلى جانبه
الحقيقة فخذها
كما كان بإمكانه أن يدير عنقه ذات اليمين وذات الشمال ، دون أن يحس بأنفاس الجالس إلى جانبه
الحقيقة أنفاسها
وبإبعاد قوة وتأثير هذين العنصرين عن أرض الملعب ، يصبح قادراً على الحكم بصورة أفضل ، بعيداً عن إمكانية تعطُّلِ حواسه ، أو تشتيت انتباهها بحشرها في مواقع معينة
لم أعد ساذجا
حين بدأ بمراقبة الطريق ، تبين له أن السيارة تقصد مكاناً خارج إطار الخطة المرسومة   (صويلح) أو (السَّلْط) ، وربما (الغور)
أرجو ألا يكون الغور ، لأنني أكره الحر الشديد   (جرش) ، ربما (إربد) ، مصيبة
لم يكن قد نسي بعد رحلة (الزرقاء)
وكيف أنساها ؟!!
اندفاع السائق ، جعل الأمر يبدو أكثر خطورة مما تصوّر
سائقو السرفيس ، يتعبون بعد دقيقتين ، لأن نفسهم قصير ومشوارهم أيضاً .

ربع ساعة ، ولم يتعب تجاوز الجامعة وغابتها

ولم يكن ثمة إشارات ضوئية أيامها كلما وصلت الإشارات الضوئية إلى مكان ما ، أحسست بأن المدينة أصبحت أضيق

إنحدرت السيارة باتجاه (صويلح) ترقَّبَ بفارغ الصبر الثواني القليلة الحاسمة

أخذ السائق يمينه ، منحدراً نحو (البقعة)

أيقن أن البشر لم يتوصلوا إلى حكمتهم ، تلك ، عبثاً

في التأني السلامة وفي العجلة الندامة

وخشي أنهم لا يخترعون حِكَمَهُم إلا لينسوها

لو تمهل قليلا ليقرأ ما هو مكتوب على باب السيارة قبل أن يصعد ، لما حدث ما حدث

إن أسوأ معاناة يمكن أن تعصف بالمرء أن يجد نفسه في مركبة لا يعرف الوجهة التي تقصدها

حاذت السيارة (مخيم البقعة) ، فأدار عنقه نحوه ، حيث أتاحت له هذه الحركة أن يرى وجه الفتاة الجميلة جداً ، وأن يتمعَّن فيه ما استطاع

ليس ثمة مكان بعيد ما دُمتُ أجلس إلى جوارها !!!!

إنتهى سيل البيوت ، وبدأت السيارة بالصعود ، ولم يثنه ذلك عن تصميمه وثقته بما توصّل إليه من يقين ؛ فأعاد

: ليس ثمة مكان بعيد ما دُمتُ أجلس إلى جوارها

بعد أقل من دقيقة ، تلاشت فرحته ، حين سمع شخير الرجل الخمسيني

ما دام يستطيع النوم مطمئناً بكل هذا العمق ، فمعنى ذلك أنه يقصد مكانا بعيداً

ولأول مرة ، فكّر أن يطلب من السائق أن يتوقف وأن يُنزله لكنه رأى في ذلك إحراجاً ما بعده إحراج ثم أنه يعرف عصبية السائقين

سيصرخ به ، وربما يستلّ هراوة من تحت المقعد وينهال بها عليه أمام الفتاة الجميلة جداً ، إذا ما فكّر أن يرد الصرخة بمثلها

تلاشى سحر الفتاة الجالسة إلى جانبه ، فلم تعد أكثر من فتاة جميلة فقط

بلا جداً

وإذا ما أراد التعبير بلغة الحديث السابق ، فإنه كان إلى جانبها شبه حيوان وحيد الخلية ، لا أكثر

أدرك أن عدم وجود فرصة للفت إنتباهها قبل أن تستقل السيارة ، أفقدته الوسيلة التي يثبت من خلالها حجم تعلّقه بها ، وهو يتبعها إلى جهة غير معلومة ، وبعيدة إلى هذا الحد

كل ما في الأمر أنه صعد الدرج الذي يصل ساحة أمانة العاصمة بشارع الشابسوغ ، وأوشك أن يصطدم بها ، فأبصر جمالاً لم يره من قبل ، فتبعها محموماً فإذا بالسائق يلقي به إلى جوف السيارة ، والسيارة تصعد طلعة جبل الحسين ، تتجاوز مدينة الحسين الرياضية ، الجامعة الأردنية ، تنعطف باتجاه مخيم البقعة ، تتسلّق صعود جرش ، وهو يفكر بأن يطلب من السائق أن يتوقف لينزله ، فالفتاة لم تره ولم يخطر ببالها قصده الشريف

سأهبط في جرش ، أزور عمتي فيها ، ثم من هناك ، أستطيع العودة بسهولة إلى عمان ، حيث السيارات متوافرة ، بدل أن أنزل هنا ، وأجد نفسي مقطوعاً بين الجبال

***

قبل الوصول إلى جرش ، إلتفتَتْ الفتاة نحوه

فأكدت لي ، بعيدا عن أي مجال للشك ، أنني لا أنتمي إلى فئة الكائنات وحيدة الخلية

ليس هذا فقط ، بل وكلّمَتْهُ ببساطة شديدة أربكته . .

ـ عمّان مدينة جميلة ، لكن المشكلة هي الطريق !!

هزَّ رأسه موافقاً ؛ حاول ابتلاع ريقه الناشف ، والبحث عن بقايا مفردة في حنجرته ، لم يجد ، خاصة عندما رأى النظرة الحمراء في عيني السائق ، النظرة التي أضاءت مرآته الأمامية ، وهو يدّعي تعديل جلسته .وعادت الفتاة الجميلة جدا إلى انشغالها بمراقبة الأشجار الباسقة في مدخل جرش ، حين لم يعرها الإهتمام الكافي!!

لكن إهتمامه في الحقيقة تضاعف ، إذ تبخّرت تماما فكرة النزول في جرش والعودة إلى عمان وقرر ألا يتركها وحيدة بين أربعة رجال ، غرباء لا يعرفهم ، حتى لو تجاوز أحدهم الخمسين

وفي بحثه عن وسيلة يثبت لها من خلالها أنها تعنيه ، راح يراقب الأشجار الباسقة مثلما تراقبها التقت أعينهما لحظة فهز رأسه دلالة الإعجاب الشديد بالمشهد ، وأغمض عينيه نصف إغماضة ومنحها ربع ابتسامة

لن نطيل

بدأ بمراقبة الإشارات المعززة بأسهم تشير إلى الطرق المؤدية للمدن والقرى المتناثرة على الطريق ، بمجرد أن راحت السيارة تصعد طلعة جرش الثانية

تعبت السيارة ، ولم تظهر على السائق أي علامة تعب ، فأحسست أن الأمر جديّ أكثر من اللازم

وحين حاذت السيارة السهم الوحيد المرسوم بالأسود ، الذي يشير إلى (إربد) ، أصبح على يقين بأنه قد تلقى ضربة قوية تحت الحزام

ولحسن الحظ

وهنا يمكن أن أُشيد بالدور الذي لعبته حكمة أبي المتعلقة بالمصروف ، فلولاها لما كانت جيوبي عامرة بما يزيد على عشرة دنانير ، وللدقة ، أربعة عشر ديناراً بالتمام والكمال وفوقها بعض (الفكة) .

على الأقل لن يتعرض إلى أي إحراج أمام الفتاة الجميلة جداً على الأقل سيجد ما يواجه به السائق حين يقول بصوت عال ،كما لو ان الركاب كلهم طرشان

الأجرة ياشباب

وقد قالها

ـ الأجرة يا أخوان

من فوق كتفي السائق لاحت مدينة (الرمثا) ، ففرح كثيراً كانت بالنسبة إليه أشبه ما تكون

بالفردوس المفقود ، كما في فيلم (عالم المياه)

إلا أن السائق المنشغل بجمع النقود ،لم يهدئ سرعة السيارة ، رغم الإشارات الكثيرة التي تطالبه بذلك ،ليس هذا فقط ، بل إنه أدار وجهه دون أن يخفّض السرعة وقال

ـ الأجرة يا أخ !

ولم يكن يعرف كم عليه أن يدفع ،لذا امتدت يده إلى جيبه وأخرج ورقة الدنانير العشرة الزرقاء وناوله إياها

ـ ما في فراطة ؟!!

هز رأسه نافياً ، وحين انشغل السائق بإرجاع الباقي له ، انشغل هو بتأنيب نفسه لأنه كذب

ـ إذا سمحت تصحيلي الأخ النايم

كان الرجل الخمسيني غارقاً في شخيره

لكزتُهُ برفق

أَفاق

ـ آه ، وصلنا ؟!!

كان ذلك أصعب سؤال يوجهه اليّ إنسان فلم أدر بماذا أجيب .وأجاب السائق بلهجة ساخرة ليس فيها أي إحترام لكبار السن

ـ لا ، ما وصلنا

واخترقت السيارة المدينة ، لتظهر إشارةٌ حَلُمَ بها ، لكنه ما كان يتوقع أن يصلها ذات يوم (الحدود السورية) !!!!!

عندها أوشكت أن ألقي بنفسي من السيارة

لقد فكر كثيراً بزيارة الشام ، إلا أن معارضة أبيه ، كانت السدَّ الذي لا يمكن تجاوزه

وما الذي يمكن أن تراه في الشام ؟ أنا نفسي لم أزرها ، ورغم هذا لم أزل حياً ، أليس في ذلك حكمة يمكن أن تفيدك ؟!!

أسباب كثيرة كانت تدفعه لأن يفكر بزيارتها ، وما دام الآن قد أصبح على عتباتها

أي حدودها

فسيعترف بأحد هذه الأسباب ، التي كانت تسكنه قبل قراره المتعلق بالتوقف عن الوقوع في حب ممثلات الدرجة الأولى

إعجابي الشديد بالممثلة صباح الجزائري ها قد قلتها

بل إنه يعترف بأكثر من ذلك

كان قبولي أول عرض للمشاركة في العمل المسرحي مردّه الأول ، أنني قد ألتقي بها في واحد من الأعمال الفنية المشتركة مستقبلا لكن خطتي فشلت ، فما كان يمكن لممثلة خارقة مثلها أن تقع في حب ممثل هجر المسرح كي يخرّ صريعا بعد عشر دقائق من بداية الحلقة الأولى في مسلسل محلي

لن نطيـل

مرة واحدة خامره الشك ، في قرار القبول بالعمل كمدقق ، وتساءل لليال طويلة ، فيما إذا كان قد تسرع في إعلان طلاقه للفن كمهنة

وذلك حين رآها في المسرحية الشهيرة (كاسك ياوطن) تؤرجح ساقيها

فوق السور وتقول

مخطوبة يا مختار

وقد ظل التلفزيون الأردني ، يعيد بث المسرحية دون كلل ، بمناسبة وبغير مناسبة ، ويُعمِّقُ إحساسه بالذنب ، كما لو انه يريد إغاظته شخصياً

أما الآن ، فهو يعترف ، ان مهنته قد ساعدته أيضاً على ردٍّ أي اعتداء تتعرض له أي ممثلة يحبها ، من قبل أولئك النقاد السينمائيين وغير السينمائيين الذين (لا يُعجبهم العجب ، ولا الصيام في رجب) كما كانت تقول الوالدة رحمها الله

توقفت السيارة فجأة

ـ الهويات يا أخوان ، الهوية يا أخت

ومن حسن حظه ، أن شهر العسل الأردني السوري كان في أوجه ، حيث باستطاعة مواطني البلدين التنقل بالهوية ، بعيداً عن علاقات جوازات السفر الرسمية وقد كانت هويته بالطبع ، دائماً ، في جيبه

إذا ساقَكَ القدر في اتجاه ما ، فلا تعارضه ، لأن الله يعرف مصلحتك أكثر منك

ناوله الهوية ، وناولتْه الهوية إستعاد لهجتها فوبخ نفسه

كيف لم أكتشف أنها شاميّة ؟!!

فجأة ، أحس برائحة صباح الجزائري تهب عليه ، لا بلِ أكثر من الرائحة وبدا متفائلا إلى درجة يحسده عليها المتفائلون تاريخياً

لن نطيـــل

بمجرد أن عبرت السيارة الحدود ، انطلق لسان الفتاة بصورة مدهشة ، تسأله

ـ ساكن في الشام ؟

لا

ـ زرتها أَبِـلْ هيك ؟

لا أول مرة

ـ راح تحبها كتير

وأوشك أن يقول

أحببتها قبل أن أراها

ولأنها جميلة جداً ، فقد أوشكت أن تصبح

جميلة جداً جداً

في كراجات الشام ، التفتت إليه وقالت بلطف ما بعده لطف

ـ حمدلله عا السلامة

الله يسلمك

واستدارت تعدو برشاقة نحو سيارة تاكسي متحفزة للإنطلاق

هكذا ، وجدتُ نفسي وحيداً في الشام ؛ ليل وشوارع لا أعرفها ،
وحين وصلت إلى عمّان في اليوم الثاني ، كانت الفاجعة في استقبالي

كان ذلك فصل

أسرار الحادثة التي أعتبرت فاتحة تحرشه بالحكومة

ويليه فصل

رحلة العودة . والأسئلةُ التي لا تُعجبها الإجابات!!

أمسك ضابط الحدود هويته بعناية ، تأملها ، كما لو أنه يريد أن يحفظ كل ما فيها من معلومات غيباً ، لكنه كان حريصاً على أن يُلقي عليه نظرة من نوع خاص

: ليس من الصعب على الإنسان أن يفهم معناها

رفع الضابط عينيه ، حدق في وجهه ، ثم حدق في الصورة الموجودة على البطاقة

وهزَّ رأسه

محاولة لمعرفة وزن الشخص الذي أمامه ؛ أعرف ، الأفلام تعج بهذا المشهد

تركه واقفا ، مضى بالهوية بعيداً ، انشغل بأكثر من سيارة تريد عبور الحدود باتجاه عمان ، ثم عاد ، مرّ بجانبه

كأنني لم أكن هناك

أقترب سائق السيارة منه ، السيارة التي يستقلّها ، وسأله

ـ شو ، في إلك مشاكل مع المخابرات ؟

انتفض

مخابرات!!

ولم يستطع أن يكمل

كيف يمكن له أن يتخيل شيئاً فظيعاً كهذا ؟ مخابرات !!

أحس السائق أنه بالغ إلى درجةٍ تحوّل فيها سؤاله إلى اتهام دون أن يدري

حاول أن يتذكر أي سوء تفاهم مع شرطة أمانة العاصمة ، أو موظف في سلطة المياه ، أو سلطة الكهرباء ، أو سلطة المصادر الطبيعية

الصفحة بيضاء ، وخالية من أي شيء يعكّرها ثم أن هذه مؤسسات كبيرة ، أهّلها حجمها لأن يُطلق عليها اسم (سلطة) ولو كانت أضعف من ذلك لسموها (شركة) مثلاً

لكن أفضل ما أسفر عنه استغرابه وهو ينطق كلمة (مخابرات) أن السائق ارتدّ إلى درجة لم يستطع معها العودة ثانية إليه ليسأله عن مجرى الأمور

نصف ساعة طويلة مرت ، والهوية في يد الضابط ، يتأملها بين حين وآخر ، كما لو أنه يبحث عن حل للغز ما ، أو يحاول الوصول إلى فكرة يعود بها ، ليستأنف الحوار معه

مربكة هذه الأشياء ، خاصة حينما تصدر عن ضابط شرطة

الشيء الذي حيره

: لماذا ضابط شرطة ، ما دام الأمر يتعلق بالمخابرات ؟!!

سؤال منطقي ـ همس لنفسه ـ لكنه لم يعثر على إجابة له

: لقد عشت عمري كله كي لا أحتك ، ولا أقول أصطدم بالحكومة لأجد نفسي معها ـ ودون أن أدري ـ وجهاً لوجه

تذكّر اعتصامات طلبة الكلية أيام حصار تل الزعتر
لم أشارك فيها
تذكر أمسيات الشعر الوطنية التي كان يدعى لاحيائها شعراء متهـورون
لم أحضرها
تذكر الاحتجاجات الصامتة ضد إدارة الكلية لأنها رفعت الأقساط فجأة
لم أشارك فيها
تذكر اعتراضات أبيه على إحدى فواتير المياه التي جاءت تحمل رقماً خيالياً ٥٠ ديناراً و ٢٥٧ فلساً فطلب منه أن يراجع (السلطة) كي يصححوا الرقم ، إذ لا يعقل أن تكون عائلة صغيرة قد استهلكت كمية من المياه بهذا المقدار
حملت الفاتورة ، وحين قرأتها قلت ما دامت الدقة قد وصلت لديهم إلى درجة عدم وضع ٢٦٠ فلساً ، مكان ٢٥٧ فلساً ، فمعنى ذلك أنهم أدق منا بكثير
لكنه حين سأل موظف السلطة هناك
إذا أراد أحد المواطنين أن يعترض على الفاتورة فماذا يفعل ؟
أجابه الموظف بمنتهى اللطف
ـ عليه أن يدفع أولاً ، ثم يعترض فيما بعد
دفع
وعندما سأله أبوه
ـ ما الذي حدث معك ؟
وقال له ، أن القاعدة واضحة لديهم
أدفع ثم اعترض
فوجئ أن أباه لم ينتفض في وجهه ، بل بدا متفهّماً للمسألة إلى

درجة لم يكن يحلم بها ، إذ قال
- إنس !!
وحين تجاوز برعونة دوره كإبن وسأل
لماذا ؟!
كان الجواب حاسماً
بدنا نعيش
وفكّر يومها طويلاً في قرار أبيه ، فتوصل إلى أن
الطاعة والاحترام كلٌ واحد لا يتجزأ
وإذا ما أردنا أن نكون أكثر دقة هنا فسندعه يقول
لقد أثر بي ذلك الدرس أيما تأثير ، ولولاه ، لربما كنت انزلقت نحو واحد من تلك الإعتصامات الصامتة أو المتكلمة أو الصارخة التي كانت تدور في فناء الكلية ، أو تلك التي تجرأ فيها الطلاب ووصلوا إلى رصيف الاوتستراد
كما تبين له ان جملة أبيه ، كانت تعني أيضاً
ان الموت على الجانب الآخر
ومن يومها بدأ يلاحظ ، انها اللازمة التي لا تفارق لسان الوالد ، وقد ظل يرددها إلى
أن مات رحمه الله
لكن الفرحة الأولى باكتشاف حكمة الأبِ المتمثلة في عبارة (بدنا نعيش) طارت ، بعد أن أدرك أنها نوع من الحكَم الجماعية المنتشرة ، إذ بدأ يلاحظ فيما بعد ، كيف أن الناس لا يكفون عن ترديدها ، وبعد تأمل عميق ، توصل
أننا شعب يحب الحياة فعلا

وماذا أيضاً ؛ حاول أن يتذكر علاقاته بالجيران ، بمن حوله من بشر ،

ولم يكن صعباً عليه أن يقول وجدتها ، لأن هنالك أشياء كثيرة يمكن أن تقال في هذا الموضوع

صاحب بقالة الأمل مثلاً ، ذهبت ذات يوم لأشتري منه علبة سمن ، ناولته خمسة دنانير ، فناولني العلبة ، ووضع الباقي فوقها دنانير ورقية وبعض القطع المعدنية وحين قمت بعدّها بعد مغادرة الدكان تبيّن لي أن المبلغ أقل من المفترض بدينار

تلك واحدة من المشاكل العويصة التي واجهها في حياته ، بل يمكن القول إنها لا تنسى

لا للشيء

إلا لأنني أصبحت بين نارين ، نار التشكيك في الرجل النزيه الصالح ، ونار وضع نفسي موضع شكّ إذا ما عدتُ إليه

بعد تفكير عميق ، قرر أن يتجاوز الأمر ، وأن يكون في المرات المقبلة أكثر انتباها ، كي لا يقع في فخ كهذا يُطبق على رقبة الطريدة والصياد في آن لكن ، ورغم كل هذا الحرص ، سيقع هو وأبوه في فخ أكثر قسوة وتعقيداً فيما بعد ، وسنتوقف عنده طويلاً حين يجيء وقته

***

حتى تلك اللحظة ، لم يكن يجرؤ على أن يفكر في وقع تغيّبه على أبيه وأمه وأخته ، لكنه لو فكر في ما يعنيه غيابه عن البيت ، قليلاً ، لتوصل إلى أن ما حدث

: ليس أقل من التورط مع المخابرات

ومع هذا الخوف ، همس لنفسه

اليوم خمر وغداً أمر

وتبين له أن المثل ليس في محله ، إلا أنه قبل به على علاته .

اقترب ضابط الشرطة منه وسأله

ـ متى ذهبت إلى الشام؟

أمس

ـ يبدو أنك لم تحبها

من هي ؟

ـ الشام ؟

لماذا ؟

ـ لأنك لم تحتملها أكثر من ليلة واحدة !!

أدرك أن للحكومة أساليبها الخاصة في التحقيق . لقد رأى الكثير من هذه الجلسات ، حتى تعب ، إذ لا يخلو فيلم من أفلام الحرب ، أو أفلام الجاسوسية من مشهد قوي

ـ إذهب إلى تلك الغرفة

قال له ضابط الشرطة

الموت أهون من لحظة كهذه أهون مئة مرة ، ألف مرة

أحس بدرجة حرارته ترتفع ، نبضات قلبه واضحة ، باغته هدير الدم في شرايينه وسيول العرق المندفعة من جبينه ، تحت أذنيه ، وبين اليتيه

أحسست بأنني أُشوى

وتذكر مشاهد العجول في أفلام الكاوبوي ، ودورانها البطيء فوق النيران

وصل باب الغرفة ، دخل

ـ إذا سمحت ، إنتظر في الخارج

طمأنته الرقة التي قال بها الرجل جملته ، وطمأنه أكثر أنه شاب ، مثله ، والشباب يفهمون بعضهم

كنت أعتقد دائماً أن من يتولّون مثل هذه المهمات ، رجال غلاظ لا يبتسمون حتى لرغيف الخبز الساخن كل الأفلام العربية تقول لنا ذلك

إنتظرَ

كـان ثمـة رجل في الداخل يجيب على أسـئلة غـامـضـة ، فـيعطي إجابات غامضة

لم أفهم شيئاً ، لكن الشاب اللطيف فقدَ أعصابه فجأة ، فصرخ في الرجل صرخة مرعبة

ـ ما بدك تعترف ، إتفضل إرجع من محل ما جيت

إلا هذه ما الذي يمكن أن أفعله في الشام إن أعادوني إليها ؟!!

تضاعف خوفه ، بدأ يفكر في الطريقة التي يخبر فيها أمه وأباه وأخته ، بأنه في الشام ، وأن ما حدث كان قدراً

بل قضاء وقدراً

وأنه سيعود لهم قريباً

مـرَّت هويتـه أمـامـه ، عـرفـهـا في يد الشـرطي ، دخلت قـبله ، وخـرج الشرطي ثانية وبيده الرجل الذي كان في الغرفة أمامه ، باتجاه عربة كحلية متوقفة في طرف الساحة ، زجه فيها ، أقفل الباب الحديدي عليه وعاد وقال له الشاب اللطيف

ـ إتفضل يا أخ

إلا أنه لم يسمع

فصرخ

ـ إتفضل يا أخ ، بدك أفرشلك سجاد أحمر حتى تدخل

أحس بخطورة الأمـر ، فـالسـجـاد الأحـمـر لا يفـرش لأي أحـد هكذا ، ولولا أنها فقعتْ معه ـ كما يقال ـ لما صرخ صرخته

دخلَ

تأمله الشاب اللطيف في عتمة الغرفة الشاحبة وهو يتمتم

ـ لن ينقضي اليوم على خير ، آه ، ما قصتك ؟

متعباً كان

حتى أنني أشفقت عليه :

تخيّل صعوبة الطريق ومشاق السفر التي يتعرض لها الشاب إذا كان من سكان عمان مثلاً ، ومن أجل ماذا

لقمة الخبز !!

وعاد الشاب اللطيف يسألة

- ما قصتك ؟

لا أعرف

- لا تعرف ؟

نعم ، لا أعرف ، الضابط أخذ هويتي وطلب مني أن أحضر إليك

- أين كنت ؟

في الشام

- كم يوماً بقيت هناك؟

ليلة واحدة

- ليلة واحدة ؟!! كان الأمر مستعجَلاً إذن ؟

لم يجد جواباً على تعليق كهذا

- وماذا فعلت في الشام ؟

لا شيء

- لا أحد يزور الشام بلا سبب ، وأن يزورها أربعاً وعشرين ساعة ويعود ، فمعنى هذا أن هناك سبباً مهماً ، ألست معي في ذلك

طبعاً معك !!

ما الذي يمكن أن يقوله لشاب لطيف يسأله مثل هذا السؤال ؟ هل يقول له

أنت غلطان

مستحيل ، لذلك أجاب

طبعاً معك !!

- وما هو السبب القوي الذي جعلك تزور الشام ؟

ارتبك ، أيقول
لقد أُعجبتُ بفتاة شامية في عمان فتبعتها حتى الشام
سيبدو الأمر سخرية قاسية ، لن يحتملها الشاب اللطيف ، بل ربما تجعله إجابة كهذه
يخرج عن لطفه
هكذا وجد نفسه مضطراً لأن يكذب حتى لا يجرح شعوره
كنت أحلم دائماً أن أزور الشام ، وهكذا ذهبت وزرتها ليس أكثر من هذا !!
ـ شبعت منها بسرعة !
ولأنه لمّاح ، استطاع أن يلتقط المعنى الكامن في تعليق الشاب اللطيف ، فقال
لم يكن معي الكثير من المال لأبقى طويلاً
لذا ، وجد الشاب اللطيف نفسه مضطراً لأن يطلب منه
ـ اخرج كل ما في جيوبك ، وضعْه على الطاولة هنا
ولم يكن في جيوبه الشيء الكثير الذي يمكن أن يمضي وقتاً طويلاً في إخراجه
قال الشاب اللطيف وهو يلقى نظرة على ما أمامه من أشياء
ـ كل ما في جيوبك !!
والنقود أيضاً ؟
ـ والنقود أيضاً
أخرج بضع أوراق خضراء ، وبضع قطع معدنية
ـ أهذا كل ما لديك ؟
هز رأسه
ـ لأْ ، شاطر !
لم يفهم جملة الشاب اللطيف هذه المرة ، فظل صامتاً .

ـ أتريد أن تقنعني انك أنفقت كل ما لديك هناك ؟ أين سهرت ؟

في الشارع

ـ في الشارع !! في أي فندق نزلت ؟

لم أنزل في فندق

ـ عند مَنْ إذن بتّ ليلتك ؟

ليس عند أحد

ـ إلعب غيرها

نعم ؟

ـ هل تسخر مني ؟

لا ، لا سمح الله

ـ إذن أين أمضيت ليلتك ؟

في الشارع

ـ ولماذا في الشارع ؟

اعتقدت أن ما معي من نقود لا يكفي لأنام في فندق

ـ ولذلك عدت سريعاً ؟

نعم

ـ رغم أنك كنت تحلم بزيارة الشام ماذا تعمل ؟

عاطل عن العمل

ـ ما هي المهمة السرية التي كُلِّفتَ بها ؟

مهمة سرية ، أي مهمة سرية ؟!!

ـ لا يزور أحد الشام ويعود بهذه السرعة ، إلا وتكون هناك مهمة سرية أين حقيبتك ؟

ليس معي حقيبة

ـ تزور الشام وليس معك حقيبة ، هل أوصلت رسالة مكتوبة ، أم رسالة شفهية ؟

لمن ؟

ـ أنت ستقول لي لمن

فاجأه أن الشاب اللطيف ، قد فَقَدَ لطفَهُ مع تسارع وتيرة الحوار

ـ هل تعتقد أني غبي لأُصدّقَ قصة غبية إلى هذا الحد

تأزم الموقف ، إلى درجة التفكير بقول كل شيء دفعة واحدة ، وقد فعل

تبعتُ فتاة ، لم أعتقد أنها شامية ، ركبت سيارة الاجرة معها ، دون أن أنتبه ، وإذا بالسيارة ذاهبة إلى الشام ، والفتاة شامية

ـ نعم ؟! وما اسم الفتاة ؟

لا أعرف

ـ لا تعرف تبعت فتاةً حتى دمشق ولا تعرف اسمها

ولأنه قال الحقيقة ، أحس بالثقل الذي كان يطأ صدره ينزاح فبدا مرتاحاً ، كما لو ان اعترافه سيمحو ذنوبه كلها

نعم ، لم أعرف اسمها

ـ لا بد أنك أحببتها إذن ؟

نعم

ـ ومن أول نظرة ؟

من أول نظرة

ـ هل أنت متزوج ؟

طبعاً لا ، كيف سأحبها لو كنت متزوجاً

أسند الشاب اللطيف ظهره إلى كرسيه ، ودفع قدميه إلى الأمام فتحرك الكرسي فوق عجلاته إلى الوراء يحمله ، وقال كلمة واحدة

ـ هَزُلَتْ

وبعد صمت طويل ، تأمله خلاله إلى درجة كافية ، قال .

ـ لم تعد لنا هيبةٌ أمام الناس

وامتـدت يده إلى رزمـة أوراق ، تناول إحـداها ، كـتب عليـها بضع كلمات وناوله إياها

ـ بتراجعْ بكره (الدائرة) في عمان إتفضل !!

أشار له الشاب اللطيف أن يأخذ أشياءه

دنانيره ، وعدداً من المناديل الورقية المستخدمة وعندما لمست أصابعه بطاقة الهوية ، قال له الشاب اللطيف الذي فقد لطفه

ـ هذه اتركها تأخذها من (هناك) غداً ، إذا اعترفت

لم يحـدِّثه ، أو يلتفت إليه أحد ، حينما أقبل نحو السيـارة ، وسأله السائق بنزق

ـ إنتهيت ؟!!

فأجابه

إنتهيت

وطوال الطريق ، إنشغلوا عنه بكل ما صادفهم بقرة تعبر الشارع ، بائع خس ، بائع باذنجان ، أغنية

دزِّني واعرف مرامي صادوني صيد الحمام

وبعدها أغنية يا عنيِّدْ يا يابا

وأوقفتـــهم دورية جـــمارك ، فتشت الصنـدوق ، وطـــلبت الهويات والجوازات ، فـقال ، هويتي أخذوها ، وناولـهم ورقة المراجـعة فـهزّوا رؤوسهم

ـ آه ، حضرتك منهم ؟!!

وطارت السيارة

كما لو أن السـائق يريد أن يتخلص مني بأسرع وقت ممكن

أطل مخيـم البقعة ، ولاحت (صويلح) من بعيـد ، كـما لو انها مـدينة جبلية على شاطئ البحر تتلألأ أنوارها

ها هو يعود إلى جوهره الحقيقي
رجلاً لا يفقد الأمل ويتمتع بنقطة ضعف وحيدة هي الجمال
دائماً كان يرى صويلح ، ويتخيلها هكذا ، كلما أبصرها ليلاً وهو عائد من بيت عمته الوحيدة التي تسكن جرش

تجاوزت السيارة صويلح ، انعطفت نحو شارع الجامعة ، الجامعة جرارات كاتربلر ، مدينة الحسين ، جبل الحسين ، ثم شارع الشابسوغ

همس أكثر من راكب الحمد الله على السلامة فأحس أنه مستثنى ومطرود خارج تهنئتهم ترجلوا من السيارة ، فاندفعت الأغنيات من محلات بيع الاشرطة

(الليل ، الليل ، الليل ، الليل
الليل موال العشاق)
وفكّر

معه حق كيف يمكن أن يُصدّق قصةً كقصتي ، لو كنت مكانه لما صدقت !!

(شفت القمر على طلعتك
بالي إنشرح
وقلت إمتى في رجعتك
يجي الفرح)

(عمّان هلالك طالع فوق الجبال)
تأمل السماء ، متتبعاً كلمات الأغنية ، لم ير الهلال ، لكنه أحس بوجوده ، وغمره شوق عميق لإحتضان مدينته ، وتمنى لو ينطلق صوت العندليب الأسمر عبد الحليم فجأة ، ليغني معه أغنيته الشهيرة
(يا صحابي يا أهلي ياجيراني
أنا عايز أخدكوا بأحضاني)

وأعلن أمام نفسه في واحدة من لحظات الصدق الرائعة ، أنه لن يغادر عمّان ثانية

ومهما كانت الأسباب قوية

كان ذلك فصل

رحلة العودة والأسئلة التي لا تُعجبها الإجابات !!

ويليه فصل

فن الإنتصار على الخصم بالهزيمة أمامه !!

ها هي عمّان الآن ،كلها هنا ،لي وحدي ، ولا أعرف ماذا يمكن أن أفعل بها ، أسير ، وأخشى على ما أتركه خلفي منها ، ولا أعرف ما الذي يخبئه لي ما هو أمامي

ولم يعد مطمئناً سوى لنقطة الصفر ، تلك التي تحتلها قدماه حدة نظره لم تعد تنفعه في شيء ، إنه الآن ليس أكثر من خُلْد

حاول أن يسترجع مسار رحلته من حلْق (وادي الرمم) حتى مبنى البنك المركزي ، فأحس بأنه لم يعبر سوى دهاليز مظلمة

ما معنى أن تكون مبصراً ولا ترى شيئاً ؟

فكّر في ذلك

القطّة ، القطة وهْمٌ ، ولو كانت أكثر من ذلك لأطلّتْ ثانية .

وانتابه حس عميق بالهزيمة أمام ما يدور

أو ما لا يدور :

حين وصل إلى هذه النقطة ، انبثق ضوء في داخله ، أضاء دهاليزه ، وانتشله من إحساسه العابر ذاك بكونه خُلداً لا أكثر

منذ زمن طويل ، اكتشف أن الهزيمة هي الحل

لا ، ليس ذلك محاولة للنيل من أي شعار من تلك الشعارات التي دققتها في الجريدة ، ورفرفت فوق رأسي في ذهابي وإيابي ، إليها ومنها ، أيام الانتخابات أستغفر الله لكنه حقيقة واسمحوا لي أن أكون صريحاً ما دمت أتحدث مع نفسي أسمحوا لي أن أقول :إن الهزيمة مفتاح النصر ولكون عمان خالية فإن بامكاني أن أجاهر برأيي من دون أن أخشى اتهام أحد لي بالخيانة والإنهزامية المجانية

تجربته الطويلة ، أهّلته للوصول إلى نتائج لا يشكّ كثيراً في دقتها ، خاصة وأن أفكاره

نضجت على نار هادئة جداً في الداخل

لكن هذه الأفكار ، لم تكن معزولةً في أي يوم عن روافدها الواقعية ، بل والواقعية الصّعبة

ويمكن أن يبدأ من تلك النقطة التي كان فيها طفلاً

ضخماً كان مما يجعله يبدو واحداً من الأولاد الذين هم أكبر منه عمراً بثلاث سنوات ؛ وثمة دائما عدد وافر من طلاب الصف الصغار الباحثين عن حماية

في عمق غابات التربية والتعليم

هؤلاء كانوا يتقربون منه بكل الوسائل المتاحة وغير المتاحة

هذا يطعمني نصف ما معه من أشياء لذيذة ، وذاك يصر على مرافقتي بعد انتهاء الدروس ، ويرجوني أن أوصله لبيته غير البعيد عن بيتي

لزمن طويل ، لم يدرك ما يدور حوله ، إلى أن اكتشف أن الأولاد يحتمون به ، بمحاولة تصويره على أنه الصديق الوفي لهم ، حتى لا

يتطاول عليهم ذلك الصنف من الطلبة الأشرار ، فقد كان منظره كافيا لصد أي فكرة باغية ؛ لكن ذلك لم يدم طويلا

في محاولتهم لاستفزازي ، بدأ الأشرار باستغلال غيابي لضرب أولاد الصف الذين ينعمون بحمايتي

وتفاقم الأمر إلى درجة قيام هؤلاء الأشرار ، بركل أحد الأولاد أو صفعه ، على مرأى منه

ولم أكن أرى في استفزازات صغيرة كهذه ما يستحق تدخلي

لكن ذلك لم يقف عند هذا الحد ، إذ وصلت التحرشات إلى ما يشبه اللكمات ، بل وسالت بعض الدماء أحياناً

إلا أنني - في كل مرة - كنت أُفوت عليهم فرص جرّي إلى معارك جانبية

ولم يتوقف الأمر ، حتى ضربوه شخصياً

عند ذلك ، فرحتُ ، وأيقنت أن أصدقائي سيلتقطون الدرس ، وفكرته الكبيرة عن النصر بوساطة الهزيمة

لم يكن بالطبع يجهل المثل القائل (إعرف حجمك)

كنت أعرف حجمي تماماً ، ولذا كان من الغباء أن أتصدى كبطل لواحد من أولئك الذين هم أقل ضخامة مني ، أو من هم أقوى وأكبر عمراً ، فدائماً هناك من هو أقوى منك .كانت المسألة بسيطة ، لكن الوصول إليها لم يكن سهلاً

في البداية ، كان يدفعه أحد الأولاد ، فيردُّ الدفعة بمثلها ؛ عند ذلك ، يكون قد قدم المبرر الكافي للولد الأقوى كي يضربه بلا رحمة

ولأنه من يومه ، يبحث عن العبر الكامنة في الأقوال والاحداث ، فلم يكن صعباً عليه أن يكتشف أن دفاعه هو سبب هزيمته التي لن توصله إلى نصر

بعد تفكير طويل ، توصل إلى فكرته الاثيرة تلك

تحويل الهزيمة إلى نصر

وسنتركه هنا يختار المثال الذي يريد

يأتي ولد قوي ، ضخم ، يحاول التحرش بي ، يدفعني ، فيتوقع أن أقوم بدفعه ، لكنني أفاجئه بأنني لا أدفعه ، بل وأبقي يديّ وراء ظهري ، عندها يثور أكثر وقد أصبحت أعرف الطريق الذي تسلكه أحداثُ مثل هذه الواقعة يضربني عند هذه النقطة بالذات أفتح فمي وأقول له إضرب وبالطبع سيطيعني أول مرة - لاحظوا كيف يبدأ بالاستجابة لكل ما أطلبه منه - فيعود ويضربني ، فأفتح فمي للمرة الثانية وأقول له إضرب ، ولأنني أعرف مسار الأمور ، فإنه سيضرب ، لكنه لن يتجاوز حدود اللكمة الثالثة أو الصفعة الرابعة والآن ، ماذا يحدث؟ يكفي أن تنظروا إليه وأن تراقبوا ملامحه ، سيبدو مهزوماً إلى حدٍّ لا يمكن لأحد أن يتصوره ، فلا يملك إلا أن يجرَّ أذيال خيبته ويبتعد مقهوراً ، في حين أواصل الوقوف حيثما أقف بشموخ ، وأراقبه حتى يختفي قد يقول قائل

ولكنك دفعت الثمن غالياً ، صفعات ولكمات ، وهذا صحيح

لكن لا شيء يأتي بالمجان

اليوم يستطيع أن يتذكر بنشوة كبيرة ، كيف استطاع أن يقهر أعتى عتاة الحارة الأشرار ، دون أن ينساق ليكون واحداً منهم ، يمارس القهر على من هم أضعف منه

في احدى المرات ، لم يفهمني أحد أولئك الذين يفوقونني حجماً ، وهذا للحق آلمني كثيراً في البداية ؛ لكنه وصل إلى النهاية التي أريدها له ، لا تلك التي يريدها لنفسه

جاء الولد من بعيد ، بعد أن انكشفت استراتيجيتي المتمثلة في قهر الخصم بالهزيمة أمامه وقال لولد آخر هيا نتدرب

عندها أحسّ بأن المسألة تخرج عن حدودها التي طالما رسمها بدقة ، لأن المبالغة في قول ذلك الولد ، وفي عنفه فيما بعد ، كانا أكبر بكثير مما

تصوَّر

هزيمة ذلك (الملاكم) كـانت هي الأقـسى أمـامي   اندفع الدم من أنفي ، من حاجبي ، من فمي ، وبقيت شامخاً أحدق فيه   وحين أدرك ما فعلته يداه ، بدأ يبكي ، ويرجوني ألا أخبر أحداً ، أن أكذب وأقول إنني وقعت

مسألة كهذه محيرة ، خاصة لأن له موقفاً واضحاً من الكذب   لكن الولد توسَّل ، وبدا مهزوماً إلى درجة تستحق الشفقة

عندها انحنيت عليه وقلت له   جفف دموعك   وامضِ

لم يُصدق أذنيه

انتصب على قدميه بصعوبة ، كما لو أنني أنا الذي ضربته ، ربّتُّ على كتفه بحنان ، وقلت له ثانية   إمضِ   فمضى

حين يستعيد تلك الحادثة يقول

لم أبصر في حياتي أحداً مهزوماً مثل ذلك الولد ، كان يبتعد متعثراً ، كما لو ان قدميه الاثنتين محطمتين فعلاً

بعيداً أصبح ذلك الزمان

وأطلق تنهيدة عميقة

لم تعد المسألة مسألة ولد شرير وآخر طيب ، أصبحت أكبر بكثير ولكن ، مَن يجرؤ على التفكير في المسائل الكبيرة ، مَن ؟

لقد انتقل من الخاص إلى العام ، كما يقول الكُتّاب في مقالاتهم ، وفكّر

دون أن يلاحظ أحد أنني أُفكر   لا تستطيع أن تقف دائماً مكتوف الأيدي ، أقصد مكتوف العقل وأنت تدقق عناوين كبيرة بارزة ؛ لا تستطيع أن تكون حجراً فتعزل نفسك عما يدور حولك ، كما لو ان أمر الأمة لا يعنيك . لست حجراً ، ولا أتمنى أن أكون   وقبل أن أمضي قُدماً في

فكرتي ، سأقول إنني طوّرتُ أسلوبيَ الفريد ذاك ، ونقلته فيما بعد من الحارة إلى البيت ، ومن الحارة إلى المدرسة ، وقد كانت نتائجه مضمونة دائماً

يذكر الآن كيف استطاع أن يُربي مربي الصف بالطريقة نفسها التي ربى بها الملاكم

إنطلاقاً من الإحترام أولاً وأخيراً

واستطاع أن يربي أباه أيضاً ، حتى أنه لم يعد يقدر على رفع ذراعه ، أو النظر في عينيه

لكنني لم أُخطط لذلك كما فعلت مع الملاكم

وكان مغزى ذلك كله واضحاً ، كسيناريو محبوك بعناية

دعهم يشعرون أنهم أقوى منك كثيراً ، وأنك أضعف ، حتى ، من ربع قوتهم بهذه الطريقة ، ستزرع لديهم حساً عميقاً بالذنب ، حسّاً عميقاً بالشفقة عليك ، لا يلبث أن يتحول إلى خوف منك ، نعم من ضعفك ، فالإنسان هو الإنسان

وما دمنا وصلنا إلى هذه النقطة ، سنتركه يعبر عمّا في داخله حول مسائل أكبر بكثير

إسمحوا لي أن أصمت قليلاً ، حتى أثبت لكم بأنني فكّرت في الأمر مرتين ، رغم أنه لا يحتاج سوى مرة واحدة

ها قد صمتُّ سأتكلم الآن قلتُ سابقاً إن عمل الإنسان في جريدة يجعله في مركز الأحداث ، وهذا صحيح ، بإمكان زميل في قسم المحليات أن يدّعي أنه لم يقرأ خبراً أساسياً من الأخبار الدولية لأنه منشغل في محلياته ـ ولا أقول ذلك انتقاصاً ـ وبإمكان محرر الصفحة الرياضية أن يفعل الشيء ذاته ، لكن مدققاً محترفاً لا يستطيع أن يتذرع بأسباب من هذا النوع

لن أطيل

وجودي في مركز الحدث ـ صحيح أن الزملاء في أقسام التحرير هم الذين يعدوّن الطبخة ،لكنني أنا الذي أنقّيها من شوائبها لتُطل على القارئ في أفضل صورة ممكنة ـ أقول وجودي في مركز الحدث فرض عليَّ أن أفكر بصورة أعمق في هذا الكم العابر من العناوين ،لكي أخرج به من عبوره الزائل إلى أفقه العريض ، فأنت لا تستطيع أن تعزل فكرتك المستقبلية عن خبرتك الشخصية التي قطّرت حكمتَها في الماضي البعيد

لن أطيـــل

باختصار، معظم ما دققته من أخبار ، كان يدور حول محاولاتنا المستمرة للانتصار على (إسرائيل) ها أنا أنطق اسمها ـ بما أننا وصلنا إلى مرحلة السلام معها ـ غير خائف من أن يفسر ذلك على أنه نوع من العداء لها . لكن صلاحية فكرتي للاسف قد انتهت ، ولم يعد بإمكان أحد أن يستغلها

لقد كان يلزمنا ثلاث هزائم كبيرة أخرى ،كي نهزم إسرائيل إلى الأبد، ونجعلها تركع على ركبتيها مثل ذلك الملاكم ، طالبةً الغفران

طبعاً هذا كلام كبير ،ولا يجرؤ الإنسان على التفوّه به ،لو لم يكن يتحدث مع نفسه ،لكنني سأثبت لكم هذه النظرية ، التي أتواضع كعادتي وأسميها حكمة

تصوروا لو أننا هُزِمنا أمامها ـ لا أريد أن أواصل ترديد اسمها لأكثر من سبب ـ وتركناها تحشرنا في الزاوية مرة تلو أخرى ، في حروبنا الرعناء معها ـ صحيح أنها كانت هي التي تشن الحروب لكننا لم نستغل رعونتها ـ ما الذي كان يمكن أن يحدث؟ ستُلقي علينا عدداً من قنابلها الذرية في أسوأ الأحوال ، وأنا أعرف الكثير عن مفاعل (ديمونة) من خلال طبيعة عملي كمدقق

لن أطيل

النتيجة ستكون دماراً شاملاً ، لا يتيح لها فرصة أن تهزمنا مرة أخرى

. لكن ما حدث أننا لم تمكنها من الهزيمة تماما ولا من الإنتصار ، ولم نستطع حشرها في الزاوية ، فما الذي حدث مزيد من الحقد علينا ولحسن الحظ انهزمنا أمامها بصورة جيدة - أي بدأنا البداية شبه الصحيحة - لكننا لم نواصل ما بدأناه ، وإلا لكنا حولناهم كلهم إلى (حمائم) ، وهكذا كانت (الصقور) ، فانظروا اليوم بأم أعينكم ، ما الذي يفعلونه بنا

إن أكثر ما يحزنني أننا لم نعد نملك تلك الفرصة التي أضعناها ، ولن نملكها

اسمحوا لي أن أقول بصراحة إنني لهذا السبب أعارض اتفاقيات السلام

طبعاً ، نحن نعيش في مرحلة ديمقراطية ، وهناك كثيرون يعارضون اتفاقيات السلام لأسباب مختلفة تماماً عن أسبابي لكنني سأعيدها ألف مرة وأنا أدرك معناها كان يلزمنا ثلاث هزائم كبيرة أخرى (أمامها) كي نهزمها إلى الأبد إنتهيت

جملة أخيرة ، جملة أخيرة فقط
ما يطمئنني قليلاً ، أننا لم نستطع هزيمتهم تماماً في هذا السلام

كان ذلك فصل
فن الإنتصار على الخصم بالهزيمة أمامه
ويليه فصل
الأسباب الثلاثة الكافية لقتل إنسان

بعض ضربات القدر تكون تحت الحزام مباشرة
ودائماً كان يريد أن يسأل   لماذا ؟
لكنني لم أسأل
الشيخ الذي جلس يقرأ القرآن   قال له
وحِّد الله يا أخ
فوّحد الله ، هو الذي لم يفكر يوماً بأن لله شريكاً

حين صعد الطريق الترابي على يسار الشارع ، كان بامكانه أن يرى أي حشد ذاك الذي تغرقُ فيه الساحة أمام بيتهم   عتمة ، يبددها بصعوبة ضوء عدد من اللمبات الشاحبة ، وصمت كامل لا يقطعة سوى صوت الشيخ يقرأ القرآن

أدركت أنني قد متُّ ، وأنني آخر المعزِّين بوفاتي
أجواء كهذه ليست غريبة عليه ، يعرفها ، وهل ثمة شيء أكثر من

الموت في هذا العالم ؟
فجأة أصبحتُ متشائِماً
كان الضوء الشاحب يحاول مستميتاً أن يكشف قامته ، ويضيء ملامحه
بعد عشر خطوات سيفرُّون ، بعد عشر خطوات سيتأكدون أنني عدتُ من الموت وينفضُّونَ هاربين السينما مليئة بمثل هذه المشاهد وكذلك الأخبار التي جرت العادة على أن يطلق عليها صفة خفيفة ، وتنشر في الصفحة الأخيرة لفرفحة قلوب القراء
سيتحول موته وانبعاثه آخر الأمر إلى خبر خفيف !!
أين سأخبئ وجهي بعد هذا ؟
إحتمال أن يعزي بوفاته هذا العدد الهائل من الناس ، لم يخطر له ببال
ها انني أكثر أهمية مما كنت أعتقد
حاول أن يبحث عن وجه أبيه وسط حلقة الرجال ، لم يجده
ربما يواسي أمي في الداخل ، هي التي طالما تمنت أن يكون لها ولد آخر ، فإذا بها تفقد وحيدها
يتذكر صوتها بوضوح ، وهي تحاول إقناع أبيه
ـ خلينا نجيب ولد ثاني مثل هالوردة !!
وتشير إليه إليه هو !!
أمي رقيقةٌ من يومها
لكن أباه كان يرفض
ـ كيف سنطعم ثلاثة أفواه
فترد كلُّ الناس حوالينا ، مثلنا ، وأفقر منا ، وشوف قديش مخلفين اولاد
ولم يكن ذلك كله دقيقاً تماماً ، فهو يعرف أن بعض الأولاد كانوا يأتون

رغـمـاً عن آبائهم ، وأمـهـاتهم اللواتي يحـرصـن على تناول حـبـوب منع الحمل ولذلك ، كنَّ يسألن أمه

ـ كيف لا تحملين ؟

فترد بحسبْ الأيام صح ، وعمري ما غلطت

وتذهب أمه بعيداً في شرح طريقتها ـ التي تبهر الجارات ، خاصة وهن يخشين أخطار حبوب منع الحمل وما يمكن أن تسببه لهن ـ فيتَّبِعْنها

لكن النتيجة معروفة

يحملن !

وتبقى أمه فخورة بدقّة حساباتها

في أحد الأيام ، بعد سنوات طويلة ، عاد أبوه فَرِحَاً من عمله على غير عادته وقال

ـ الآن علينا أن ننجب ولداً آخر !!

لقـد تم ترفـيـعـه إلـى أدنى مـربوط الـدرجـة الـسـابعـة ، وبـذلك ازداد راتبـه ثلاثة دنانير كاملة

إنتظرا معاً ، الأم والأب ، بشـغـف ، تبرعمَ ثمرة رحـمـهـا ، إلا أن ذلك لم يتم ، وحين أوشـك على الـوصـول إلـى أعلى مـربوط الـدرجـة الـسـابعـة والوضع على ما هو عليه ، حَمَلَها إلى طبيبة نسائية في شارع المهاجرين ، بعد أن بدأ يشك في نفسـه فقالت لهـمـا يبـدو أن مضاعفات ما ، قد حدثت بعد ولادتها الأخيرة ، أدت إلى

ولم يدع الطبيبة تكمل

قال لها فهمت

وعاد بزوجته حزيناً

عجيبة هي الدنيا

فـالنسـاء اللواتي كن مـفـتـونات بقـدرتها الفـائقـة على الحسـاب ، رحن يسخرن منها .

ـ إحنا بنحبل وإنت بتحسبي !!

حين تعرَّف المعزّون على قامته ، انتصبوا على أرجلهم ، واقتربوا منه ساهمين

ـ البقية في حياتك

البقية في حياتك !!

لم يجرؤ أن يسألهم من الذي مات بعد أن تأكد انه ليس الفقيد ولم يكن عليه أن يبدي أي إمارة من إمارات الحزن ، فرحلة الشام كانت قد تركتْ على ملامحه حالة من البؤس تكفي لأكثر من عزاء

بحث بعينيه عن أبيه ، لم يره . وقال له أحد المُعزّين

ـ أُدخل شوف أمك

اتضحت الصورة

قبل أن يتجاوز العتبة ، قال له الرجل الصالح صاحب بقالة الأمل

ـ لا تؤاخذنا ، إكرام الميت دفنه ، ولم نكن نعرف أين أنت أو متى ستعود

بعيداً أصبح ذلك الزمان

وأطلق تنهيدة عميقة

ثلاثة أسباب على الأقل قتلت الوالد الطريقة التي تزوجت بها أختي المسألة المربكة المعقدة المتعلقة بمهرها ويأسه البالغ ، بعد أن أدرك أنه سيُحال على التقاعد قبل أن يبلغ الدرجة الرابعة

أمور كهذه حين تجتمع تقتل فيلاً ، أو جملاً كما قال

والآن

الآن في هذه الشوارع الخالية ، في المدينة الخالية حتى من بعوضة ، بإمكانه أن يكون صريحاً ، ويستعرض ما مرَّ ، حلقة بعد حلقة ، كما

يحدث في أي مسلسل

رغم أن أختــه لم تكن قـد تـجـاوزت الشامنة عـشـرة بأيام ، إلا أن اعتقاداً راسخاً سكنَ أمَّهُ بشأنها

ـ البنت عنّست ، ولسه ما أجاها عريس

وفي إجازته الأولى ، بعـد سنتين طويلتين من الغيـاب ، عاد أمـريكي على عجل من السعودية

حيث لم يكن يومها يملك أربع عجلات -لخطبة فتاة ، كان يعرف فيما يبدو من تكون

وفرح هو بشكل خاص ، أن هذه الفتـاة ، ليست سوى شـقيـقتـه فعلاقة الصداقة التاريخية بينهما كان يجب أن تتوج آخر الأمر برباط من هذا النوع . لكن ما أحزنه ، قيام أمريكي بتجاوزه ، وقد كان يمكن أن يطلبها منه ، قبل أن يرسل أُمه

بعـد يومين من زيارة والدة أمريكي الأولى ، جاءوا يطلبونها بصورة رسمية ، تسبقهم أغانيهم

فـرحنا ، إلا أن الزواج كـان حـزيناً لسـببين الأول ، انه وبعـد أن اتفقنا على مَهر مقداره ألفا دينار ، أخرجته أم (أمريكي) من عبّها ، وناولته لأبي ، وقالت بلطف شديد

ـ عِدْهِن يا حج

مع أنَ أباه لم يكن حاجاً

ورفض الوالد ذلك بإصرارٍ أكبرتُـه فيه

فقالت خلّي الولد يعدهنٍ

كانت تقصدني بكلمة (الولد) رغم أنني كنت أكبر من أختي التي ستتزوج بكثير ، وبعمر ابنها العريس الذي تحول بقدرة قادر إلى شاب خجول إلى جانبها

قال أبوه معاتباً المرأة

ـ ولو يا حجة ، أنا لا أعِدّ وراءكِ

واتفقوا على أن يذهبوا صبيحةَ اليوم التالي إلى المحكمة الشرعية في شارع مادبا

بعد مغادرة العريس وأمه البيت ، طلب منه أبوه أن يعد النقود

فانهمكتُ في عدّها منفعلاً ، حيث كان ذلك المبلغ أكبر مبلغ لمسته يداي حتى (هذا) اليوم ، ولا أقصد (ذلك اليوم فقط)

وللحظة أحس ، أن فرحته بوجود هذا المبلغ الكبير بين يديه ، هي السبب الذي جعله لا يتقن العد ، فقد توقف عند الرقم ١٥٠٠

تلفتُّ حولي خائفاً أن يصرخ بي أبي قائلاً

ـ من يومك خائب في (الحساب)

لكنه لم يصرخ

وتلاشى زهو أمه بنفسها ، حين لمحت الارتباك بادياً على وجه وحيدها وأصابعه المرتعشة

ـ شو في ؟

وانتبه الأب ، فسألة بدوره عن سبب ارتباكه وهنا يمكن أن نعود إلى سوء التفاهم الذي وقع بشأن علبة السمن وباقي الدنانير الخمسة الذي نقص ديناراً

المبلغ ألف وخمسمائه دينار فقط

قالها لأبيه مرتبكاً

فاختطف أبوه الأوراق النقدية من بين يديه ، وبدأ يعدها وما أن وصل إلى الورقة الأخيرة حتى شهق مصيبة

طبعاً ، بإمكانكم أن تقدروا أن المسألة أكبر بكثير من قضية علبة السمن فالأمر يتعلق هذه المرة بخمسمائة دينار ، لا بدينار واحد ، ويتعلق بعروس هي أختي وعريس هو صديق عمري

إذا كان لا بدّ من جملة يمكن أن تقال في هذا المقام ، فيمكنه أن يقول بالنيابة عن أبيه وبالأصالة عن نفسه

: لقد أُسقط في أيدينا

فلم يكن أمامهم إلا أن يبتلعوا الخنجر

ولأن أبي هو رب العائلة فقد ابتعله أولاً ، وكان حزيناً إلى درجة لم يتركنا معها نساعده في ابتلاعه . لكننا رحنا نواسيه طوال الوقت ونصرخ بصوت واحد يلعن أبو المصاري

كانت تلك ، أولى ضربات القدر التي زلزلت الأب

وزلزلتنا ، خاصة أختي ، التي أحست كما لو انها تزوجت في موسم تنزيلات تصل إلى ٢٥ ٪

الحادث الثاني كان قوياً أيضاً فحين ذهبوا إلى مبنى المحكمة ، قال لهم القاضي

ـ إنتظروا قليلاً ، سيأتي مأذون شرعي ، ويذهب لعقد القران في البيت ، إن كنتم تفضلون ذلك

فهز الجميع رؤوسهم وحين أطل المأذون برأسه ، أشار له القاضي ، وكان لبيباً إلى درجة أنه التقطها على (الطاير)

طلب منهم أن يتفضلوا ويتبعوه ، بعد أن سألهم عن موقع البيت فقالوا بصوت واحد في وادي الرمم

لكن المأذون ، بعد مغادرتهم المبنى كان عملياً إلى درجة لا تصدق

ـ إذا كنتم مستعجلين ، نعقد القران هنا

وأشار إلى سيارته (الأوبل ستيشن) الصفراء المتوقفة خلف المحكمة في ساحة ترابية تعج بالشاحنات

قال العريس

ـ أَريَح !!

: ولم يعترض أبي

الآن يدرك أن عدم اعتراض أبيه لم يكن رضى ، فبعد مصيبة الـمَهر لم تعد هناك مصيبة أكبر

أطلقت شاحنةٌ زامورها المتوحش ، فارتجت الساحة ، وانهالت مطرقة حداد على باب معدنيّ ضخم فصمّت الآذان ، ونادى بائع عربة متجول تُرمس وعلى الجانبين لاحت أسماء المحلات رديترات السلام نقليات الخليج شركة الشرق للاستيراد والتصدير

ـ هل توافقين على الزواج من

راح المأذون يسأل أخته وحين أجابت ، كان صوت المطارق في الساحة أعلى بكثير من صوت فتاة تهمس بخجل آه

فطلب منها أن ترفع صوتها ، فرفعته ، إلا أنه لم يسمع ، فأغلق باب سيارته الذي كان مشرعاً طوال الوقت كي يسمع ردها

وهكذا فعل مع العريس

شهر تموز في أوجه والغبار ينشد راحته في خيوط العرق على جباه الناس ، فيتحول إلى طين

وحين انتهوا من مراسيم عقد القران ، عادوا كما لو أنهم يغادرون ساحة مقبرة بعد أن واروا أحد أحب أحبائهم التراب

جملة واحدة قالها أبوه بعد ذلك فبدا طيباً كعادته

ـ كنت أتمنى لها عرساً أفضل من هذا

أما الحادثة الثالثة التي قسمت ظَهْرَ الوالد ، ولا أقول ظهر البعير ، إحتراماً ، فهي تلك المفاجأة التي زلزلت طموحه التاريخي وأعني ألا يتقاعد قبل بلوغه الدرجة الرابعة وقد أسرت لي الوالدة ـ رحمها الله ـ فيما بعد ، أنه قال ما يحزنني أن اللقمة كانت قريبة جداً من الفم

وبلغ به اليأس درجة خالَ معها ، أن الله سبحانه وتعالى لن يفتح له ابواب جنته ما دام لم يستطع الوصول إلى الدرجة الرابعة في وظيفته

المتواضعة تلك في الدنيا

رحمه الله كأنه لم يكن يعلم أن أصحاب الدرجة الأولى يموتون أيضاً ، وكذلك الخاصة

لكن موت الأب لم يتم كردٍّ فعل مباشرة على كل تلك المصائب

لقد خرجت روحه ـ رحمه الله ـ على أقل من مهلها

وإليكم التفاصيل

كان ذلك فصل

الأسباب الثلاثة الكافية لقتل إنسان

ويليه فصل

طريقــــةُ عمـلها !!

لأيام طويلة ، بقيت أشعر أنني قد أكون قتلته دون أن أدري ، وقلت لعله أحس بأنني قد تخليت عنه فأن أبيت ليلة خارج البيت ، لم يكن شيئاً مألوفاً ، وفي حالة كحالته ، كحالتنا ، يتعدى الأمر حدود العصيان

أمي قالت لي لقد تُوفى بعد آذان الفجر

فقلت هذا يعني أنه انتظرني ، وحين لم أعد مات

لكن أمي قالت بحزم غيابك مش هو السبب

كنت أعرف أن هنالك أسباباً أخرى ؛ لكنني لم أغفر لنفسي انني كنت غائباً حين صعدت روحه إلى بارئها ؛ ولو كنت أنا مكانه ، أقصد لو كنت أباً ، لأحببت أن يكون وحيدي إلى جانبي في لحظة كهذه

الحمد لله أن أمي كانت معه

الآن أقول : لولا تلك الحوادث المتتالية ـ وأعرف أن الأعمار بيد الله ـ

لكان أبي حياً يرزق ؛ فهو لم يكن يعاني من أي أمراض ، أو من أي ضعف بل انني أحس أنه لم يتغير منذ رأيته لأول مرة في حياتي وحتى اليوم الذي سبق وفاته

ربما كان علي أن أصدق المثلَ السائر (ضربتين في الرأس بوجعو) وألا أكتفي بذلك ، بل أطوِّره بما يلائم المقام فأقول (ثلاث ضربات في الرأس تقتل)

بعض المشاكل تُطل ، وتبدو للوهلة الأولى ، أنها بلا رأس ،ولكنها تتحول فيما بعد إلى رأس كبير ، بلا أطراف وبلا جسم

رأس يتدحرج ككرة الثلج ويجتاح كل ما أمامه

* * *

بعد أن تبين له ، ولنا ، أن مَهر أختي غير كامل ، واكتشفنا - بفعل خجلنا وأخلاقنا الرفيعة - أننا غير قادرين على فتح الموضوع ، قال بعد انتهاء المسلسل العربي ، الذي لم نفهم شيئاً من حلقتة الثالثة عشرة الأخيرة

- ريقي جاف

سمعته أختي فهبّتْ من فورها ، أحضرت له كوباً ، وعندما بدأت تصب الماء فيه ، اختطف الإبريق من يدها فتناثر الرذاذ ، وشرب كلٌ ما فيه

في لحظة كهذه يمكن أن يحس الإنسان بخطورة الوضع

وقد أحسست

إلا أنني لم أبالغ ، واعتبرت ما حدث ، نوعاً من التوتر العصبي بسبب ما جرى

وحين قررنا أن نختصر الأمر بالنوم ، باعتبار أن (الصباح رباح) كما أكدت لنا الوالدة ذلك مرارا أحسسنا أنه كان في إنتظار قرارنا هذا منذ زمن طويل ، وكأننا نحن رب الأسرة وهو أفرادها

إلا أن الإهتداء للحلٍ لم يكن حلاً ، لأن صوته بعد أقل من عشر دقائق عبر الظلام متشققاً !!

ـ أعطوني ميّ

وقد كانت أمي على درجة عالية من الإحساس بما يحدث ، حيث ذهبت وملأت الإبريق وجاءت إليه تحمله ، فأختصرت بذلك فصلَ شرٍّ كان يمكن أن يزيد ليلتنا سوءاً

دائماً كانت هكذا ؛ وكأن لها حاسة أضافية مخصصة لتفادي وقوع أي شجار ، عكس بنات هذه الأيام كما يهيأ لي !!

بعد الإبريق الخامس ، كانت مضطرة لأن تقول له

ـ راح تغرق من كثر ما شربت

لكنه ، وبهدوء رجل يُحتضر قال لها

ـ لا تخافي

فذهبت وملأت الإبريق السادس ، وفي طريقها إلى زير الماء ، التمعت دموعها ، ثم راحت تتساقط كالشهب في الإبريق

تلك الليلة ، لم ينم ، ولم ننم

فأسرّتْ أختي لأمها انها لن تتزوج ما دام أبوها منزعجاً إلى هذا الحد ، وانها مستعدة لأن تبيع الدنيا من أجله

فقلت في نفسي جملة فارغة ، عليها أن تملك الدنيا أولاً ليتسنى لها أن تبيعها فيما بعد

وقالت لها أمي وكأنها سمعتني

ـ ما راح تعنْسي في هاالبيت من شان خمسميت ليرة

وأعقبت جملتها تلك بتحذير شديد

ـ إنت إخرسي

تأملتُ وجه أختي فاذا به يحمرُّ كالتفاحة ، وإذا بها غير قادرة على أن تُخفي ابتسامة راحت تتفلّت من بين شفتيها

موهوبة هذه البنت
واليوم أقول : لو أنها عملت في المسرح لحققت المعجزات
بعينين حمراوين ، لم نرهما حتى في أقصى حالات غضبه أطلَّ علينا أبي صباح اليوم التالي ، الذي اعتقدنا انه (رباح)

وحين حدث ما حدث ، وعُقدَ القرانُ في الساحة الترابية داخل السيارة الأوبل استيشن الصفراء أَحسسنا أن الأمر يزداد تعقيداً وهذا ما كان

فقلنا ليت الحكاية انتهت عند إبريق الماء
لن أطيل
لم يعد بإمكان أبي أن ينام
أعني مُطلقاً
فقد أصابه أرق مزمن بعد ثلاثة أيام ، وبدأ ابريق الماء يفقد مفعوله ما أن أطلت الليلة الرابعة
ـ غيّروا لي الغطاء
راح يصرخ
فغيرنا له الغطاء
وفي ليلة أخرى ، صرخ
ـ غيروا لي الوسادة
فغيرنا له الوسادة
ولأن إجازة العريس كانت قصيرة ، فقد أقيم العرس في نهاية الأسبوع ، وكان باستطاعة كل من رأى أبي أن يقول
سيقتله فراقُ وحيدته
شبه مدمّر كان
عينان جمرتان ، وحولهما كومتان من الرماد الأزرق .

قلت : لو يدرون

وحين خرجت أختى من البيت ، ونحن نبكي ، كما لو انها لن تعود ، وأصبح البيت خالياً من صوت قبقابها بين المطبخ والغرفتين الوحيدتين مروراً بالساحة الإسمنتية الصغيرة ، أدركنا أي إنسان ذاك الذي فقدناه

ليلتها صرخ أبي بعد منتصف الليل بقليل

ـ لا أستطيع النوم غيّروا لي هذه الفرشة

فغيرناها

تأملتُ صبيحة اليوم التالي فراش أختى فوجدته فارغاً ، ولم أكن قد تعودت ذلك بعد ، ففرت دمعةٌ من عيني ، ورحت أتأمل الغرفة يائساً وحزيناً إلى أن انفتحت طاقة الأمل فجاة ، ما أن لمحتُ في الزاوية المظلمة ذلك الشيء العزيز

لقد نسيتْ قبقابَها

اندفعتُ اليه ، كما لو انه قشّةُ الغريق ، فحملته برفق ووضعته تحت سريري

لم يكن مطار عمان المدني في (ماركا) بعيداً عنّا ، فذهبنا وودعناها هناك ؛ كانت مثلنا تبكي ، ولم يبك أمريكي ، رغم أنه يودعني للمرة الثانية فقط

تلك الليلة صرخ أبي

ـ غيّروا لي هذا السرير

فغيرناه

ولكننا أخطأنا ، إذ أحضرنا له سرير أختي

فصرخ أريد سريراً غير هذا

فأعطيته سريري

ولم ينم

قال   افتحوا النافذة
فقلت   في هذه معه حق ، كيف أقفلناها في شهر لاهبٍ كهذا
ولم ينم
في ليلة أخرى ، وقد أصبحت كل الليالي متشابهة ، صرخ
ـ أفتحوا الباب
ففتحناه
وصباحاً ، رأيناه جالساً على حافة السرير ، يحدّق في النافذة ويلتفت إلينا
ـ النافذة ضيقة ، كيف يمكن للهواء أن يدخل منها ؟!!
فوسّعنا النافذة ، وتركناها مشرعةً ليل نهار
ولم ينم
ـ أريد سريراً غير هذا السرير المعدني
فأحضرنا له سريراً خشبياً
ولم ينم
صرخ   ما هذه الستارة ؟ ما هذا اللون ؟
غيرنا الستارة ، فتغير لونها
فقال   الجدران تلمع في الليل
غيرنا اللون الأزرق الذي يحتل الثلث الأسفل ، فأصبحت كلها بيضاء
بعد ذات منتصف ليل صرخ   كأنني في كفن
لن أطيـــل
قلنا له   قد تكون الغرفة الأخرى أفضل ، لأنها أكثر اتساعاً ، فأنتقل إليها
لكنه صرخ عند الفجر   أرضية هذه الغرفة مائلة
وفي الصباح قال ـ كما لو انه أحس فجأة بالعذاب الشديد الذي يسببه لنـا ـ : لكنها أفضل من الأولى !!

أحضرنا عمالاً اقتلعوا البلاط المهترئ القديم ، وقد لاحظتُ أنه كان مائلا بالفعل ، وعدّلوا الوضع على المسطرة وميزان الماء

لن أطيل

ذات يوم ونحن نتناول طعام الغداء ، نظر إلينا ، واللقمة لم تزل في فمه وقال السقف هو السبب ، يجب أن نرفع السقف

فأحضرنا عمالاً ، حوّلوا البيت إلى ورشة حقيقية ورفعوا السقف لكنه لم ينم

سنة كاملة مرت على هذا الحال ، ونحن معه

لا أستطيع الآن أن أقول لقد أتعبنا فكلام مثل هذا لا يقال عن الأب . لكنني لا أستطيع أن أنفي تماماً - ما دمت أتحدث مع نفسي - أن تلك الحالة قد تكون أعمتني ، إلى درجة أنني ركبتُ سيارة متوجهة إلى الشام دون أن أنتبه

حين سألتُ أمي بعد انتهاء أيام العزاء

هل طلب شيئاً في ليلته الأخيرة

هزت رأسها وبكت

قلت هل يعني هذا أنه طلب ، أم لم يطلب ؟

هزت رأسها ثانية ، ومن بين دموعها قالت طلب

فسألتها ماذا ؟

قالت إنغير البيت ، وخاف الله مات لأنه بعرف إنّا ما بنقدر على ها الطلب

إنتهيت

كان ذلك فصل

طريقة عمل الأسباب الثلاثة الكافية لقتل إنسان .

ويليه فصل
الأسباب الموجبة لهجاء الشعب والعتب على الحكومة

مرة واحدة في حياتي دخلت البنك المركزي

حين تسلَّم مكافأته ، التي لا يمكن أن نسميها أجراً ، بسبب ضآلتها بعد أن أدى دوره الشهير الذي وضعه في تاريخ المسلسل الأردني على رأس قائمة القتلى

دائماً ، حيرتني المسألة ؛ لماذا لا يحصل على شيء ذاك الذي يموت ، في حين يفوز الذي يعيش إلى نهاية المسلسل بكل شيء البطلة الجميلة ، الحياة الطويلة ، المنزل الذي يليق به كبطل ، والفِراش الوثير الذي يموت عليه أخيراً كما يموت البعير ، هذا إذا مات ، أما أمثالي الذين يدفعون الثمن غاليا في الدقائق العشر الأولى وتنفطرُ قلوبُ أمهاتهم حزناً عليهم ، فلا يحصلون إلا على مكافأة صغيرة ، يدفعونها لهم ، ويحاولون إذلالهم بها ، حين يطلبون منهم الذهاب لصرف الشيك من أكبر بنك ـ بنك الحكومة المركزي !!!

بعد مرور كل هذا الوقت أستطيع (أنا الراوي) القول أنني بدأت

أفهمه ، وإذا ما أردت أن أنطق جملته التالية بدلا عنه فسأقول

ـ الدنيا سينما

معك حق

ها هو قد وافقني

* * *

في المرّة الوحيدة التي وجدت نفسي فيها داخل قاعة البنك المركزي ، كان هناك رجال ينتظرون دورهم على خصورهم تتدلى مسدسات ، وفي أيديهم حقائب سفر كبيرة

لم يفهم الأمر ، إلا بعد أن أنحنى أحدهم وفتح إحدى الحقائب فظهرت كمية من المال لم ير مثيلاً لها حتى اليوم

لو كان (توم كروز) أردنياً ، والحدث يدور اليوم ، لقلت : ها قد جاء حراسه ، ومدير أعماله لوضع أجرته في البنك ، عن فيلمه الذي لم يؤهله للفوز بجائزة الأوسكار

لقد ظلت تشغله أجرة الممثلين الأمريكيين ، ولم يدّخر المحررون الفنيون في الصحيفة جهداً ، كي يرسلوا إليه بكل الأخبار المتعلقة بهذا الموضوع ليدققها ، كما لو انهم يناكفونه

توم هانكس ٢٠ مليوناً ، ستالوني ١٥ مليوناً ، شوارزنغر ١٥ مليوناً

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، لأنهم أرسلوا إليه تقريراً يتحدث عن عائدات مجمل أفلام الأبطال الكبار ؛ وعندها ، خطرت له فكرة غريبة من نوعها ، بعد أن (دقق) ما بين يديه ، ودمجه مع خبر آخر حول الديون الأردنية للبنك الدولي

لماذا لم يخطر ببال الحكومة الأردنية أن تتبنى توم هانكس ، أو توم كروز ، فعائدات أفلام كل منهما أكثر من ملياري دولار

وللحظة أحس أنه كممثل سابق قد خذل الحكومة ، حين لم يستطع أن يكون نجماً ، رغم أنه يكاد يكون بحجم سلفستر ستالوني ، وضعف توم

كروز وتوم هانكس

وبدأ يشعر ـ رغم تقديره العميق وحنانه الدافئ على الحكومة ـ أن الممثلين الأمريكيين أحن على بلدهم

ليس الممثلون فقط ، بل والمخرجون ؛ ولا أريد أن يعذرني ذاك المخرج الذي لم يستطع إلا أن يُتوِّجني قتيلاً في الدقائق العشر الأولى ويكسر قلب أمي ، حين ألقاني صريعاً على قارعة الحلقة الأولى من ذلك المسلسل ، بعد أن اقتلع جذوري من خشبة المسرح الآن ، اتمنى أن يكون موجوداً لأسأله هل تعتبر نفسك مخرجاً وطنياً ، أين أنتَ من سبلبيرغ الذي تدرُّ أفلامه المليارات ، أين مسلسلاتك من فيلم مثل E.T أو الحديقة الجوارسية ؟ أين أنت من صناعة النجوم ؟ ما الذي فعله بطلك المظفر الذي عاش حتى نهاية المسلسل ؟ ثم أين خيالك الذي يمكن أن يتنبأ بما يحدث اليوم هنا في عاصمتك ، عاصمة بلدك ، عمّان ؟ كان يجب أن تختفي أنت ومن معك منذ عشرين عاماً ، قبل أن تأتي ثانية لتعرض عليّ دوراً آخر ، محاولا أن ترشوني (من أجلك فقط ، أنا مستعد للقيام بمطِّ المسلسل بما يضمن لك العيش ربع ساعة كاملة على الشاشة الصغيرة) كنت أعرف أن ربع ساعة حياة ، شيء يستحق ولكن من يضمن لي كيف ستقتلني في المرة الثانية لا إذهب ومت وحدك

أخذ نفساً عميقاً ولعن الشيطان

إنفعلت !!

على يمينه قرأ اللوحة التي تحمل أسم متحف المسكوكات ، وبعد أقل من عشر خطوات رأى بوابة البنك المركزي مشرعةً الآن ،بعد أن أصبحت لديه تجربه في دخول البنوك ، أي بعد أن دخل مبنى البنك العربي

الملاصق لكشك (أبو علي)

أصبح بإمكانه أن يغدو أكثر جرأة ، ليدخل ، ويطمئن على أموال الحكومة ؛ خاصة ، وأن الجانب المقابل من الشارع خال من المخافر

دار دورتين في القاعة الواسعة ، إطمأن إلى أن كل شيء في مكانه الصحيح ، وبدا أنه أكثر إدراكاً لحجم المسؤولية الملقاة على عاتقه ، فأحس بارتفاع قامته إلى درجة أن هذا الاحساس دفعه لأن يحنيها وهو يغادر البنك حتى لا يصطدم رأسه بحديد البوابة العملاقة وبثقة عالية ، امتدت يده باصابعها الطويلة الغليظة واغلقت الباب خلفه

لكن ذلك الشعور الذي انتابه تطاير بعد لحظات ما الذي سيفعله إن بقي الأمر على ما هو عليه ؟!!!

فليس ثمة فتاة جميلة جداً جداً ، يمكن أن أواصل الحياة معها ـ كما يحدث في الأفلام ـ تساعدني في إنجاب شعب جديد ، جميل وهادئ وصابر لا يفقد الأمل بسهولة كالشعب الماضي

وطرأت على ذهنه فكرة خطيرة لم يستطع أن يبوح بها ، حتى وهو يتحدث مع نفسه ، سنقولها هنا ونتحمل مسؤولية ذلك

ماذا لو تحققت تلك المقولة المغرضة اللئيمة التي تتحدث عن شعب يترك البلد للحكومة ويهاجر ؟

لكنه لم يفكر بها طويلاً

لو كان الشعب يريد ذلك أو أراد ذلك فعلاً ، وفعلها ، فإنه سيكون قد وصل إلى درجة كبيرة من الغضب ، لا تجعله يترك البلد سيراً على الأقدام ، بل مستخدماً كل وسائل النقل الممكنة ، وها هي الباصات والسيارات تملأ الشوارع ثم ، هل يمكن أن يكون الشعب على درجة من ـ واسمحوا لي أن أقول ـ النذالة ليتركني وحدي ويرحل ، وقد كان بإمكان أي واحد من الجيران أن يطرق بابي من دون أن يخشى إزعاج الوالدة التي رحلت منذ سنين ، تاركة مصير طيور الفري ملقى على

كتفي ولنفترض أن الجيران يعرفون رأيي في الحكومة ـ الايجابي طبعاً ـ فقد كان يمكن أن يحاولوا رغم ذلك

وهنا ، وصل إلى نقطة حرجة ، تبين معها صدقُ حدسه الداخلي

ها هو الشعب لا يمنحك حرية الإختيار ، بعكس الحكومة ، التي قدّمتْ لنا الديمقراطية وحق الإختيار على طبق من فضة ، بل من ذهب

بعد قليل خفف من نقمته على الشعب

لا يمكن أن يكون قد فعل ذلك ، لسبب بسيط ، هو أن الحكومة ليست هنا أيضاً

أن تعيش وسط مجموعة من الناس يعني أن تقبل شروطهم قرأتُ مثل هذا الكلام ذات يوم ؛ لـمَن ؟ لعنَ الله الذاكرة ، لأنها مراوغة تسترجع ما تريد وتنسى ما تريد

واذا ما أخذ بمثال حول مسألة القبول بالشروط فسيقول

بيتنا يمكن أن يكون نموذجاً ، المدرسة أيضاً ، الشركة التي يمكن أن تعمل فيها ، الحكومة

هكذا ، كان يدعو دائماً إلى تبسيط الأمور وكمثال حي لا يموت ، يستعيد ما حدث معه بعد رحلته الشهيرة إلى الشام

هل كان يمكن أن ألوم الحكومة لأنها فتحت لي ملفاً ؟ سأجيب لا

واذا ما أراد أن يشرح أسباب جوابه هذا فإنه سيقول

غيابك عن البيت ليلة كاملة ، يجعل أهلك يملكون الأسباب الكافية ليسألوك (أين أمضيت ليلتك) ، وغيابك عن المدرسة سيدفع مربي الصف لأن يسألك عن سبب غيابك ـ إن لم يكن فطناً ـ وعن (أسباب) الغياب إن كان ذكياً

ولأنه لم يكن أطرش في أي يوم من الأيام ، بل إن أذنيـــه في دقـــة سمعهما تنافسان عينيه في دقة إبصارهما ، وهذا عائد لأمّه التي نصحته منذ صغره نصيحة لا ينساها ؛ حيث كانت تطلب منه كلما أرادت أن تقول له شيئاً مهماً

- حُطْ عجينة في ذانك الثانية

أي ، حتى لا يخرج الكلام الذي دخل من إحدى أذنيه من الفتحة المقابلة ، ويبقى في رأسه أمد الدهر

دائماً كانت العجينة في أذني . لكن أختي بالغت كثيراً حين وضعت عجينة في أذنيها الإثنتين ، كي لا تسمع الكلام وأشهد الآن أنها كانت مشاغبة ، آملاً ألا تعتبر ذلك - إذا كانت لم تزل على قيد الحياة ، هناك في أمريكا !!! حيث استقرت أخيراً - كلامي هذا ، نوعاً من الإستغابة

ها قد ابتعد قليلاً ، لكننا سنعيده إلى الموضوع

الملف ، أم العجينة ؟

- الملف أولاً

بالنسبة للملف !! ما كان يمكن له أن يكون لولا موضع الشّكّ الذي حشرتُ نفسي فيه ؛ صحيح عن غير قصد ، لكن ، وكما سمعت - وهذه لها علاقة بالعجينة - القانون لا يحمي المغفلين وفي كل المقاييس كنت مغفلاً ، رغم ما يمكن أن أبديه من تسامح مع قلبي الذي لم تزل نقطة ضعفه الجمال واسمحوا لي هنا ، أن أتحدث عن قضية الملف وقضية العجينة في آن ، فهما متداخلتان ، لقد سمعت الكثير حول الملفات ، لذا ، سأتجاوز هنا جلسات التحقيق القاسية والصفعتين اللتين تلقيتهما عن طيب خاطر وأنا أجيب على أسئلة المحقق الذي فتح الملف ، لأصل إلى نقطة حساسة قد لا تعجب البعض

- تفضل !!

أريد أن أؤكد أن الحكومة معذروة ، وسأدلل على نزاهتها هنا - وليس ثمة مبرر لأن أعود إلى مثال البيت أو المدرسة - فأقول يحمل رجلٌ فاضلٌ حقيبة السفر ويغيب عن البلد سنوات طويلة ، يمضيها في أمريكا أو في البرازيل ، ولاحظوا ليس في الشام التي هي أقرب إلينا من حبل الوريد ، فلا يسأله أحد أين كنت ؟ لماذا ؟ لأن أسباب رحلته معروفة أما أنا فإن أسباب رحلتي لم تكن معروفة بالنسبة للمحقق ، حتى لو قلت له ذلك ألف مرة ؛ وقد قلت له ذلك مئة مرة ومن هنا ، أُبرر لهم أن يفتحوا ملفاً لي ؛ صحيح أنهم جعلوا من رحلة الشام ، رحلة تاريخية ولكنها كذلك ، ولاحظوا كيف يلتقون مع التاريخ في مسألة كهذه

لن أطيــــل

لقد عايشت خلال السنوات الماضية أحداثاً كبيرة لكوني مدققاً ، ولاحظوا قرب إيقاع كلمة (مدقق) من كلمة (محقق) ، على الأقل ثلاثة أرباع أحرفهما متشابهات

أما فيما يتعلق باختفاء الناس ، فقد بات على يقين من أنه يستطيع القول

ليس ثمة أسباب كافية تجعل الناس يهربون تاركين البلد للحكومة

ويمكن أن أُذكركم بقضية السمنة الملوثة ، ويكاد العنوان بالخط العريض الاحمر يضيء أمام عيني (فحصت مخبرياً وثبت عدم صلاحيتها للاستهلاك البشري - مصادره ٣٤٥ طناً من الزيوت النباتية الفاسدة نقلت في صهاريج النضح) ؛ لقد غضب بعض الناس على الحكومة في تلك الأيام ، وقالوا كلاماً قاسياً متسرعاً ، لكنهم نسوا تماماً أن الحكومة هي التي ضبطت صهاريج النضح ، وهي التي فحصت السمن الموجود فيها ، وهي التي تأكدت أنها غير صالحة للاستهلاك البشري ، وهي ، نأخذ مثلاً آخر قضية الأعلاف (ضبط عمليات تلاعب ببيع وشراء آلاف

الأطنان من الأعــلاف) ، ولاحظوا هنا ، نقــاط التكامل بين الخــبــرين فالحكومة ليست معنيةً فقط بالمواطنين البشر ، بل أنها معنية أيضا ـ ويمكن أن أقول هنا على سبيل الفكاهة ـ بالمواطنين الحيوانات ، وهكذا فإن قلبها على درجة من الرقة لا تجعله يميز بين مخلوقات الله عكس برجيت باردو التي عذّبْتنا بجمالها أيام صباها ، وحين كبرت هاجمت المسلمين والعرب كرمى لعيون خراف الأعياد

لكن مـا ظلّ يريحني فعـلا ، تلك العـبارة المليئة بالتواضع التي كنت أسمعها كلازمة على ألْسنة الناس باستمرار بدنا نعيش وبهذه اللازمة وحدها استطاعوا تجاوز أكبر الأزمات

لن أطيل

ثم ان هنالك أشياء كانت تحدث بين فترة وأخرى ، كأن تكون الحكومة مضطرة لتحديد سعر اللحم البلغاري ، أي رفع سعـره ، ولكنهـا لا تحب هذه الكلمـة ، وقـد ثبت بالدليل القـاطع أن البلغـار هم السـبب ، لأ نهم رفعـوا سعـر اللحم في بلدهـم ، أي (بلد المنشـأ) ويمكن أن أورد أمثلــة أخرى ـ ، ولا أقـول (أضرب) ، وأستعيد فقط بعض العناوين (ادانة تجار بتهمة الغش ورفع الأسعار والإمتناع عن البيع) و(إغلاق آبار بعد ثبوت عدم صلاحية مياهها للإستهلاك البشري) و(بعد الشكاوى المتكررة للمواطنين من الأرز الفيتنامي ، طرح كميات كبيرة من الأرز الأمريكي في الاسواق) طبعاً في العنوان الأخير مفارقة من نوع ما ، لو كنت كاتباً لتناولتها في مقالة خفيفة الدم فالأمريكان لم يستطيعوا هزيمة الفيتناميين في فيتنام ، ولكن أرزهم استطاع هزيمة الأرز الفيتنامي على أرضنا والمفارقة هنا أن أرزهم أقوى من جيوشهم ، وإذا ما عدت إلى أفلام الفضاء وخاصة (يوم الاستهتار) فسأقول ـ مازحاً بالطبع ـ لو واجهوا الفضائيين بالأرز لكان انتصارهم المزعوم أكثر إقناعاً لنا

لن أطيل

قضية الخبز أيضاً ؛ لقد رفعت الحكومة سعره حين رفع العالم سعره ، وعادت وأنزلته حين انخفض سعر القمح في أسواق العالم

لكن بعض الناس كما لو انهم لا يعرفون حزم الحكومة حاولوا القيام بثورة خبز ، فماذا كانت النتيجة ؟ لقد بهدلوا أنفسهم بأنفسهم ، حين وضعوا رؤوسهم في فم الأسد وحين استيقظوا كانوا وراء القضبان لكن الحكومة بعد أن أعطتهم درسا - البعض قال أنه لا يُنسى - سامحتهم

وهكذا يمكن أن نتحدث عن البنزين والقهوة وأسعار الحليب وما أطلق عليهم إسم حيتان الدواء ، يمكن أن أتحدث عن الإشاعات المتعلقة بانتشار السرطان ، وكيف تمت مواجهتها بإنشاء مركز (الأمل) لمكافحته - ويكفي بالنسبة لي شخصياً ، أن يكون اسمه مركز الأمل ، لأنه يذكرني ببقالة الأمل في حارتنا وصاحبها الرجل الصالح يمكن أن أتحدث عن اكتشاف الحكومة للنسبة الكبيرة لمرضى السكري التي صارحتنا بها حين قالت إن هناك ٤٤٪ من الشعب مصابون به ، وكان يمكن أن تتكتم على نتائج البحث لو أرادت

بامكاني أن أتحدث عن خبر دققته حول ارتفاع نسبة إصابة الناس بالأمراض النفسية ، قيل ربع الشعب ، ولكن الحكومة افتتحت من قديم ، وقبل أن توجد هذه الأمراض مستشفى الفحيص للأمراض العقلية لأنها أدركت مبكراً أن درهم وقاية خير من قنطار علاج يمكن أن أتحدث

ولكن ليست هناك ضرورة ، فأنا متأكد من أن الناس نسيت مثل هذه القضايا أصلاً

كيف يهربون من الحكومة ما داموا لا يتذكرون ؟ هذا هو السؤال

إنتهيت

كان ذلك فصل
الأسباب الموجبة لهجاء الشعب
ويليه فصل
عودة أمريكي المظفرة بسيارة وولد

فوجئ تماماً بالمسافة التي قطعها صعوداً من مبنى البنك المركزي حتى
كراجات العبدلي ، حتى ليمكنه القول بجرأة
ثمَّ صحوت
وفكّر ، كيف يستطيع الإنسان قَطْعَ مسافة كهذه دون أن يدري ، كما لو
ان
مركبة فضائية صديقة حملته ، لتساعده على اختصار الطريق
هادئاً كان كل شيء ، ومطمئناً ، في مكانه المعهود حافلات
جرش ، أربد ، صويلح ، السَّلْط ، البقعة ، وكذلك صفوف سيارات
السرفيس ، وسيارات الشام ، وحافلات (أرابيلا)
على يسار ساحة الكراجات ، انتصب مبنى شرطة محافظة العاصمة
بسوره العالي وبوابته الواسعة من دون حرس فبدا
أعزلَ مثل ضابط كبير في رداء النوم أشفقت عليه وقلت أين
أيام عِـزّه ؟!

لكن المشهد ، وسط الأعلام المرفرفة ، كان أشبه ما يكون بساحة احتفال

هبت ريح ، ثار غبار ، وبدت الأعلام كما لو انها بحر طائر ، تخفق أمواجه في السماء الواسعة ، ودون أن يدري وجد نفسه ينظر إلى أعلى ، فقد أحس بقوة أن هذه الريح ما هبت هكذا لولا أن مركبة فضائية على وشك الهبوط

حدق في الزرقة المغبرة ، لا شيء

بعد لحظات ، ودون أن يدري ، وجد نفسه يبحث بين سيارات خط الشام عن سيارة أمريكي

متأكداً أن نهايتها ستكون هنا

يعرفها جيداً

رغم أن الزمن يغيِّر كلَّ شيء ، ليس البشر وحدهم ، ولكن السيارات أيضاً ، السيارات التي تقصف أرواحنا كما لو انها رُسُلُ الجحيم

أعجبه الوصف

ما كان يمكن أن أصف السيارات بهذه الدقة خارج التجربة

خلال وجوده في السعودية ، لم يتوقف أمريكي عن مراسلته ، أي مراسلة العائلة ، وفي الوقت الذي كانوا فيه متلهفين ، يسألونه بلا توقف عن أخبار وحيدتهم ، كانت رسائله تأتي محمَّلة بأخبار محاولاته العثور على سيارة أمريكية فاخرة ، مؤكداً لهم أنه ليس مستعجلاً ، لأن أمامه العام كله ومن يصبر عاماً بإمكانه أن يصبر عاما آخر

وكنتُ معه في الحكمة ، لكننا بدأنا نقلق

مقابل كل رسالة كان يرسلها ، يرسلون اثنتين ، وفي إحدى المرات خطر بباله ـ هو الذي يكتب الرسائل ـ أن أمريكي لا يقرأ ما يرسلونه إليه ،

أو أنه يهمله في غمرة بحثه
فبدأت بإرسال الرسالة نفسها مرتين ، في مغلّفين منفصلين
وحين لم تصل أخبار وحيدتهم ، رغم ذلك كله
رفعت عدد نسخ الرسالة إلى ثلاث ثم أربع نسخ
في آخر الأمر أطلتْ رسالة منه ، قبل أن يلقي فيها التحية ، زفَّ خبر شرائه لسيارة العمر فكتب في سبع صفحات واصفاً لونها ، زجاجها ، أجنحتها الأمامية والخلفية ، غطاء المحرك ، النوافذ الجانبية الصغيرة أيدي الأبواب ، الأضواء الأمامية ، ثم الخلفيّة ، الفَرْش الداخلي ، عجلة القيادة ، ذراع السرعة ، المسجل الكاترج ، المساند ، منافض السجائر ، ثم عداد السرعة ، عداد الوقود ، ميزان الحرارة ، ذراع الغمازات ، مسّاحتيّ الزجاج ، العجلات ، العادم وغطاء (النكل) الفضي في نهايته ، هيبة المحرك ، عدد البواجي (شمعات الإحتراق) قوة السيارة وتوقف عند قوتها طويلاً واصفاً إياها بأنها تملك قوة قطيع من الخيول ، وذكّره أمريكي بالقُطعان التي طالما شاهداها معاً في أفلام الكابوي ، حتى يُقَرِّب الصورة إليه وفي نهاية الرسالة أخبرهم بما لا يزيد على سطر يتيم أن زوجته قد أنجبت منذ ثلاثة أشهر ولداً ذكراً وأنها والمولود بخير وعزَّزَ الرسالةَ بثلاث صور بلورويد (فورية) ملونة للسيارة ، تظهر محاسنها من الخارج ، أماماً وخلفاً ، ومن الداخل
وحين بحثوا عن صورة الولد لم يجدوها
رحنا نبحث بين أرجلنا ، لعلّها سقطت ؛ وحين لم نعثر عليها قلنا لقد نسيَ أن يضعها وستصل في رسالة مقبلة !!
لكنها لم تصل !
فأرسلوا إليه يطلبونها في رسالة من نسختين
قلت بعد شراء السيارة ليس هناك مبرر لإرسال أربع أو خمس نسخ
فأرسل قائلاً أنه والعائلة سيصلون قريباً عن طريق البر ، دون أن يذكر

شيئاً عن الصورة

فانتظرنا ثلاثة أشهر حتى وصل

لكن وصوله ، حمل مفاجأة كبيرة ، بل ومؤثرة ؛ فحين سألوه عن اسم الولد ، سألهم بدوره ألا تعرفون ؟!!!!

فقالوا لا

فقال سميناه على اسم خاله !

فصرخ مذهولاً

على إسمي ؟!!!!!!!

فرد أمريكي ، الذي لم يكن اسمه أمريكي بعد ، بهزة رأس أعقبها بكلمة أجل

عند ذلك ، لم يتمالك الخال نفسه ، نَفَرَتْ من عينيه دمعتان صافيتان وامتدت يداه تحتضنان ابن أخته

كانت المرة الأولى التي أحتضن فيها رضيعاً فأحسست أنه أخي أيضاً ، أخي الذي حاولت أن أقنع أمي بأن تنجبه ، فلم تستطع ، وحاولت مقايضته بطائر جميل في قفص ، فلم استطع ، فسرتُ في هذه الدنيا وحيداً ، مضطراً أن أعتمد على نفسي ناولته لأمي

تأملته جدته فَرِحَةً ، ولثلاثة أيام كاملة لم تنحنِ على حوض البقدونس تسقيه ، حتى كاد يحترق في تموز ذلك العام

لكنها وقبل أن تعيده إلى وحيدتها التي كانت تبكي ـ لأنها تدخل الباب الذي خرج منه نعش أبيها ، لأول مرة ، بعد موته في غيابها قالت الخالق الناطق خاله !!

ومن بين دموعها ، قالت أم الصغير أوشك وزنه أن يكون ثمانية كيلو غرامات لو بقي ثلاثة أيام أخرى في بطني

*

أمي كانت فخورة أنها استطاعت أن تحمل مثل هذا الوزن في بطنها ،

وربما أكثر ؛ أي تحملني

فقد غدت قصة مولدِه ، بسبب الأخطاء الحسابية التي كانت تتقنها ، حديث الأحاديث وفاكهة المجالس ـ في ذلك الزمن الذي لا يشبه الفاكهة ـ منذ اللحظة الأولى

قبل أن يأتي وحيدها إلى الدنيا ؛ سكنها إعتقاد أن جنينها تجاوز المدة الطبيعية المخصصة له للبقاء في الرحم ولم تكن مدة بسيطة لأنها قاربت الثلاثة شهور . لذا ، كانت على يقين من أن ابنها سيكون أصيلاً

كالخيل تماماً

الخيل التي تبقى أجنتها في بطنها سنة كاملة !!

وحينما خرجت إلى حقل القمح في ذلك اليوم البعيد وحيدة كانت مطمئنة إلى أنه سيتفوق على الخيل في هذه المسألة وكانت ترى أن بقاءه في بطنها أفضل ، فليس هناك ما هو أحن من الرحم على قُرَّة العين

ولم يخطر ببالها يوماً ، أنها ستكون منذورة لسلسلة من المآسي التي ستقودها مكسورة إلى حوض بقدونس لا يكفُّ عن الإصفرار في حلْق (وادي الرم)

وجاءها المخاض .والصيف نار موقدة

التفتت حولها ، كانت وحيدة

حتى أن وحدتها لم تدفعها لأن تصرخ مثل بنات هذه الأيام اللواتي كلما انجبت واحدة منهن وليداً لا يتجاوز وزنه وزن دجاجة صغيرة من دجاج المزارع راحت تصرخ كما لو انها تُنجب عِجلاً

تحاملت على نفسها ، وسارت قليلاً ، لكنها أدركت

ربما بغريزتها !

أنها لا بدّ والدةً

فراحت تجمع سيقان القمح الجافة ، وتصنع منها ما يشبه الفِراش ، ثم

استلقتْ على ظهرها
فوقها السماء والشمس اللاهبة وحولها نهايات الحقول !!
ـ أعجبه الوصف ـ
لم تكن الوحيدة التي داهمها المخاض في السهول فعادت تحمل وليدها
نساء كثيرات حدث ذلك لهن
لكنها ستعترف فيما بعد كنت خايفة لأنك الأول !

اليوم ، يستطيع أن يفهم ما الذي تعنيه كلمة (الأول) ، صحيح أنه لم يحبل ولم يلد ولم يتزوج ويشهد ميلاد ابنه الأول ، إلا أنه عرف وخبر الحب الأول واليوم الأول في المدرسة واليوم الأول في العمل ، وجلسة التحقيق الأولى ، والصفعة الأولى ، ورهبة الدخول إلى الأستديو لأول مرة ، ومشاهدة نفسه قتيلاً بأمِّ عينيه وهو على قيد الحياة ، ثم الموعد الأول الذي حاولت الفتاة الجميلة التنصل منه فيما بعد

تلفَّتَتْ حولها ، بعيدةً كانت عن أقرب منزل ، بعيدةً عن أقرب خيمة ، وبعيدة عن أقرب قطيع من الأغنام
مادمت في وضع لا تستطيع فيه طلب مساعدة من أحد ، فإن عليك أن تساعد نفسك
لا بد أن أمه فكرت بهذه الطريقة ، لا غيرها ، لأنه نفسه ، يفكر بهذه الطريقة ، لا بغيرها ، حين يجد نفسه بين فكيٍّ كماشة ، وأكبر دليل على ذلك
هذا اليوم نفسه
ساعات طويلة دام المخاض ، دارت الشمس حولها مئات الدورات ، سطعتْ وانطفأت ، غربت وأشرقت ، تجمدتْ في منتصف السماء ، هوت

وارتفعت

: لكنها لم تصرخ.

ادَّخَرَتْ كلّ ما فيها من قوة للحظة الحاسمة التي تأخرت ، وكانت تدرك أن أحداً لن يفتقدها ، ما دام زوجها قد ذهب ليبحث عن عمل له منذ الصباح ، وقد لا يعود قبل يومين

لكن ، ومن حسن الحظ ، أن عملية الميلاد لا تستمر إلى الأبد

أطل رأسه ، وكانت شبه مخدرة ، لكنها ، مدركة لما يدور فيها وحولها ؛ وطويلاً هيئ لها أن بقية أعضائه لا تريد أن تتبع الرأس ، تبعته وحين أصبح بكامله خارج الرحم أطلق صرخته الأولى ، فكانت مجلجلة

أو أنها هكذا أحست بها

لكنها ستؤكد ، أنها أقوى صرخة سمعتها من طفل ، لا ، بل أقوى صرخة سمعتها لإنسان

وقد بتُّ أميل إلى رأيها بعد سنوات طويلة ، حين عملتُ في المسرح ، واكتشفتُ أن صرختي التي تحدثت عنها الوالدة ، هي التي دمرت صوتي ، وتركته رفيعاً مثل خيط الدمع ، غير متناسب مع جسدي

حين استعادت أنفاسها ، استندتْ إلى ذراعيها ، رفعتْ رأسها وبعينيها المتعبتين راحت تتأمل ذاك الذي بين ساقيها ، وعندها

صرختْ بدورها

كان أضخم طفل تراه في حياتها ، هناك ، يلهو ، وبيديه اللتين بدتا عملاقتين راح يشد حبل السرة كما لو أنه يحاول أن يقول لها هيا استيقظي !!

اعتدلتْ

أخذت نفساً عميقاً ، قبل أن تمتد يدها باحثة عن حجر ، وحين وجدته ، لم تستطع فكَّ قبضته عن حبل السرة كي تتمكن من قطعه ،

لأن تشبثه به ازداد

هل كانت تلك نبوءة حددت طبيعة العلاقة التي سترتبطني بأمي طوال حياتها رحمها الله ؟!! ربما

وأحست الأُم نفسها بذلك أيضاً

ـ ما كان حابب يتركني أبداً

تقول للجارات ، ولأم أمريكي ، التي غدت صديقتها الوحيدة بعد رحلة البحر الميت

لن نطيـــل

حين اهتدت إلى قدميها ، استجمعتْ قواها ، حاولت الوقوف وقفت انحنت

كما انحنت فيما بعد على حوض البقدونس

وامتدت يداها لترفعا وليدها ، إلا انها أدركت وقبل أن تلمسه

أنها ليست المرأة التي تستطيع زحزحة وليدٍ بهذا الحجم ، فما بالك أن تحمله

تلك ، كانت لحظة الصحو الكبرى نظرتْ حولها ، رأت الشمس تعدو نحو مغيبها ، وفي أطراف الحقل البعيدة لم يلح أحد لتشير إليه وقد كانت قد صممت أنها

لن تصرخ

فما دامت احتملت كل تلك الآلام ، طوال كل تلك الساعات ، فلن تفقد صمودها بصرخة رعناء

لن نطيـــل

راحت تبحث عن حجارة تصلح لبناء سنسلة دائرية حول وليدها ، وحين تم لها الأمر وأتمته ، سارت تتعثر نحو البيوت البعيدة ، وحينما وصلت إلى طرف الحقل ، أشارت للنساء الواتي رأتهن ، فجئن إليها راكضات ، وقبل أن يصلنها ، أدركن أنها ليست هي نفسها التي رأينها

في الصباح   مضت متعثرة أمامهن ، إلى أن وصلت ووصلن معها
على بساط القمح ذاك ، كان يتأمل أول نجوم الليل ، ويبتسم
سعيداً وممتلئاً بنفسه كان ، حتى ليمكنه النهوض ، وبدء مشوار الحياة
غير معتمد على أحد

أكانت تلك نبوءة أخرى؟ ربما

ـ خلاص راح إنسميه سعيد

فقالت إحدى النساء   لأ ، بهجت أحلى

سعيد ، بهجت ، سعيد بهجت ؟

إلى أن استقر القرار على (سعيد) ، ولم يحرموه بين حين وآخر من الخيار الثاني ، وهم ينادونه شوقا لتلك الحكاية ، في محاولة لاستعادة فصولها (بهجت)

لكن ما يحزنه الآن ، أن أمه ماتت ، ولن تعيد على مسامعه هذه القصة مرة أخرى

ألهذا السبب أعيدها ؟ وفاء لذاكرها ؟ ربما

في سنتك الأولى كنت طولي !!

هكذا كانت تقول له

استعاد جملتها ، تأمل قامته من الصدر حتى القدمين ، وواصل رحلة الواجب إلى مبنى الصحيفة

كان ذلك فصل
عودة أمريكي المظفرة بسيارة وولد
ويليه فصل
العودة إلى عادات ذَكَر الفرّي وما تسببه من إحراج

قال لي   ما رأيك أن نجرب السيارة على طريق الحزام الدائري ؟!

وأضاف   في الطرق القصيرة ، والطرق الضيقة ، لا تستطيع أن تعرف أي سيارة تلك التي لديك

وافقته ، مستنداً على إرث الصداقة التاريخية بيننا ؛ فما بيننا أكثر من الخبز والملح ، نعم ، بيننا أفلام كبيرة لا تنسى ، بيننا (أبي فوق الشجرة) ، بيننا (E .T) وحديث طويل لم يسفر عن شيء حول فيلم (خلي بالك من زوزو) ؛ وبيننا الآن أنه زوج أختي ووالد سميي

بامكانك أن ترفض له أي طلب ، إلا طلباً واحداً   أن يدعوك لجولة في السيارة وترفض

ـ هذه أهانة

أعرف أنه سيصرخ هكذا ، مع أنني لم أسمعه يصرخ هكذا

الان أعترف أنه عذبني كثيراً رحمه الله

في كل مرة كان يطلب مني الركوب إلى جانبه ، كنت ألقي نظرة على

ما ورائي وأودعه كان يطير ، وبإمكاني الان أن أقول ، كل شيء يغدو وراءٍ كلما لامستْ قدمه دواسة البنزين

أمي وأنا ، وكذلك أختي ، لم نتجرأ على أن نسأله متى ستعود إلى عملك ؟

ـ لماذا ؟!!

لأن ذلك يعني أننا لم نعد نحتمل سيارته التي وجدت مكاناً آمناً لها في حوشنا ، وكنا خائفين أن يفهم كلامنا من هذه الزاوية ، فلا يعود بعدها قادراً على احتمال وجود أختي في بيت أمه

واحدة بواحدة

طـــــار

تجرأت وقلت له تمهل وكنت أعرف جوابه

إطمئن هذه ليست أي سيارة هذه (أمريكي)

كل مرة كنت أجد نفسي فيها إلى جانبه أستعيد مشهد مقتلي في بداية المسلسل ، بل وأقول في المسلسل مت بعد عشر دقائق ، أما معه ، فلن أتم الدقائق العشر

يمر في شوارع ضيقة ، فأصرخ انتبه أولاد

وأندم أنني حذرته ، لأنه يستدير إلي بكامل وجهه مؤنباً

قلت لك ، هذه (أمريكي) !!

ويفرمل فجاة ، فيثور غبار ويعلو ، وترعد العجلات ، فأتذكر مشاهد الثيران الوحشية في أفلام الكابوي

مع فرامل كهذه لن أدعس حتى قطة

وتدور العجلات في مكانها ، قبل أن تُقلع السيارة من جديد ، ناثرة التراب والحجارة خلْفها

: لا أظن أن ركوب الطائرة سيخيفني كالركوب معه .

وتُحاذينا سيارة ، تسبقنا ، فيثور
هل تعتقد أنه يتحدانا ؟!!
فأردُّ
لا ، لا أظن ذلك
بل يتحدانا !!!
ويطير خلفه ، وحين يتجاوزه يلتفت إلي وابتسامة رضى على شفتيه
قلتُ لك (امريكي)

* * *

رحل الصيف ، وعاد المغتربون إلى غربتهم ، لكنه لم يعد
في مسألة الغربة رأيي واضح
مستعد للموت عشر مرات هنا ـ حتى قبل مقدمة المسلسل الكلامية ـ على أن أموت بعد خمس ساعات في مسلسل بعيد !!
ظل هذا رأيي الذي لم أتزحزح عنه ، رغم كل الأحداث التي مرت وجعلت الناس متذمرين ، بدءاً من تلوث المياه وانتهاء بصهاريج السّمنة وحيتان الدواء وأحداث الجنوب ورفع أسعار الخبز وذلك الشكّ الذي أبدته ربات البيوت تجاه الأرز الفيتنامي والسكر غير الناصع البياض ، السكر الأحمر ؛ وفي مسألة السُّكر هذه تساءلت لماذا يَشْكُونَ من كونه أحمر ، ما دمنا لا نشرب شاياً أخضر ؟!!
أعجبتني الفكرة
وفرحتُ لأن أمي لم تستغلّ صداقتها مع أم أمريكي لتسألها
هوّ الأولاد إمتى راح يسافروا ؟
لأن جواب أم أمريكي ـ حتماً ـ سيكون
علمي علمك !!
وللحق كنت أتعاطف معه أعني أمريكي ، لأنه تيتَّمَ قبلي بسنوات طويلة ، وحُرم من حنان الأبوة وللحق ، فقد اعتمد على نفسه واستطاع

أن يحقق ما حلم به

سيارة (بلايموثٍ) وزوجه مطيعة مدبِّرة وولد على إسمي

لو كان لدي نصف ما لديه لكنت أكثر سعادة مما أنا عليه الآن بالتأكيد

متأخراً ، بدأت ألاحظ ، أن أختي تمضي معظم أوقاتها في بيتنا ورغم أننا لم نكن لنسألها ـ فالسؤال غير معقول في أحوال كهذه ـ لماذا تقضين معظم وقتك في بيت أبيك ؟ إلا انها كانت تجيب على السؤال الذي لم نسأله

حوش الدار هنا ـ أي عندنا ـ (أفضى) و (أَنْشَعْ)

أي أن فيه من الهواء ما يفوق كمية الهواء الموجودة في حوش بيت أم زوجها ولست أدري إن كانت تلك الملاحظة ترقى إلى مرتبة العلم أم لا

لكنني لاحظت ـ وأرجو أن تسامحوني ـ أنها لا تُفَوِّتُ أوقات الأكل فقلت هذا لأن طبيخ أمي أطيب بالتأكيد ، رغم أن أمي نفسها كانت تردد باستمرار

من يوم ما مات أبوكو ما عاد للأكل طعم

أختي كانت تجده لذيذاً ، ولذلك تفسير مقنع في اعتقادي انها لم تحضر وفاة أبي ، أي انه لم يمت بين يديها ، كما مات بين يدي أمي رحمها الله وفي محاولة مني لأن أبدو وفياً لذكراه ، لم أكن أستطعم الأكل تماماً ، كنت أكتفي بنصف الإستطعام ، ولا أُصَرِّح بذلك حتى لا أجرح أمي ؛ فقد كنت نصف غائب على الأقل ، عندما صعدت روحه إلى بارئها رحمه الله

كانت الدنانير تتقافز فوق أصابع زوج أختي العشرة ، دنانير ، بمختلف الألوان ، ما خُمِّس منها وما عُشِّرٍ وما

فأدركت أن ليس العَوَز هو السبب في شبه إقامة أختي عندنا .

ولتبسيط الأمر قلت سأعتبرها سيارة أخرى . لكنني لم أعرف ماذا أعتبر ابنها الذي كان يلتهم كل ما في البيت بل ان طيور الفري لم تسلم منه ، حيث كان يندفع وراءها بهوج لا يتناسب مع براءة الأطفال التي تؤكدها الأغاني والقصائد ، فيجتاح حوض البقدونس وأواني المطبخ المتناثرة على المصطبة وهو يحبو محاولاً القبض عليها

بصراحة

كان يضايقني هذا كثيراً فقد كنت متعلقاً بطائريٌّ وبذريتهما وبذلك الوفاء الكبير الذي تُكنّه هذه المخلوقات الطيبة لي ، بعد أن خلصتها ، لا بدّ ، من نهاية حزينة كان يمكن أن تنتظرها في مكان آخر على أيدي أناس آخرين ، وأصبحت عاداتها موضوعاً محبباً لي ، وإن كان محرجاً أحياناً !!

فمثلاً - ولا حياء في الدين - كانت عادات الذَّكَر تغيظني ، ولا أراها تتناسب مع هيبته كرجل للقفص فما أن كنت أقترب صباحاً لتقديم الإفطار لهما في عشهما ، قبل أن يُنجبا ما أنجبا ، حتى يندفع الأُستاذ مُستغلاً انهماكها في التقاط حبّاب الفريكة - بسبب الجوع - ليقفز فوق ظهرها ويسافدها أمام عيني

أفهم أن الطيور لا تستطيع القيام بأشياء كهذه في الليل ، لكنِ من العيب أن يَستغلَّ كل انحناءة لها لاعتلائها كما لو أنني لست موجوداً

أما بالنسبة للأنثى ، فإن الشيء الذي لا أستطيع أن أنساه - إن كُتبت لي النجاة - فهو ذلك الغناء العذب العميق ، النافذ للقلب ، المؤثر الشجي ، الرخيم ، الذي كانت تطلقه كلما وضعت بيضة جديدة اللـــه !!

وللحق ، لم أكن أبالي كثيراً إذا ما نَتَف ابن أختي - سميي ، بعض ريش الذّكر ، لأنني كنت أرى في هذا انتقاما للمسكينة ، خاصة ، أنه ليس من المعقول أن أضع عقلي بعقله - أي الذّكَر - وأنزل لأنتقم منه

بنفسي

أما الأنثى فقد وفقت أكثر منه في الإهتداء إلى مخبأ يحميها ، حيث ما أن تسمع صوت سميي وتلحظه ، حتى تندفع برشاقة ساحرة نحو السيارة لتختبئ تحتها ، ووراءها تجري فراخها

هذا السبب ، كان يدفعني للحفاظ على (البلايموث) كما لو انها سيارتي وأكثر

أما أمي رحمها الله ، فكانت تتضايق ؛ لا ، ليس من حفيدها ، بل من طيور الفري التي تكاثرت ، وما نتج عن هذا التكاثر من (مخلفات) معروفة ، وقد بدا لي دائما ، أنها لم تسامح الأبوين اللذين لم يستجيبا لفكرتها بالطيران بعيدا ، نحو وجه ربهما . لكنني ما فتئتُ أحاول التخفيف من عتبها عليهما بالقول كيف يبتعد عن هذا البيت من ذاق طعم حنانك

عند ذلك ترد بخجل وهي تلتفت إلى أختي شوفي الولد ، أي والله تقولي شاعر!!

فقط لو كنت كاتباً

لكنني حتى اليوم ، لم أسامح نفسي ، حين قلت لها قبل موتها بأيام ، وقد دخلتُ البيت فرحاً كما لو أنني أحد الناجحين مرة أخرى (بالمترك) أو (بالتوجيهي) أو بالدبلوم اليوم أستطيع أن اقول أن طائري الفري لن يطيرا أبداً وحين سألتني رحمها الله ليش ؟

قلت لأنهما من طيور المزارع ، وليسا من طيور البر ؛ فقد ولِدَا في قفص وكبرا في قفص ، وأنجبا في قفص

فسألتْ زي جاج المزارع يعني ؟!!

فأجبت بالضبط

فقالت ما ظل إشي إلا وعملولوا مزارع حتى المريمية والزعتر !!

فقلت لها : هذا أفضل من أن يخرج الانسان للصيد ، وطوال اليوم لا

يستطيع اصطياد طائر فري واحد ، أو تخرج المرأة إلى الجبل وتبحث بين (النّتش) وتعود باصابع مجرّحة لا تضم أكثر من نصف وقية زعتر ، حين تجففها تصبح عشرة غرامات

لكنها ، بدت وكأنها جهزت جوابها سلفاً

ـ لكنْ كانْ في طعمْ للزعتر ، وطعمْ للجّاج ، وأكيد طعم لطيور الفري

أعرف ، لو أن أختي كانت هنا ، لما وافقتها الرأي ـ وهذا نوع من العقوق ، بل والبجاحة في إعتقادي ـ حيث ستقول بالتأكيد وما عيبه دجاج المزارع ؟

فترد أمي ، وأنا أتمنى ألا ترد ، لأنها ستوبخها أكثر لأنه زي التِّبن رحمها الله

بالنسبة لي ، تبدو دجاجة المزرعة مثيرة للشهية أكثر . ولم أكن أكف عن بلع ريقي كلما مررت أمام (مطعم السلام) ورأيتُ الدجاج يدور في المشواة بهدوء حول نفسه . وأعترف هنا ، أنني ما كنت أشم رائحته الشهية ، حتى أنسى للحظات الفتاة التي أتبعها ، أيا كان مستوى جمالها

لن أطيـــل

متــأخراً ، اكتشفنا ، أن أمريكي ينفق على السيارة أكثر مما ينفق على أختي وسميي ، لكنني لم أغضب بسبب ذلك ، وفرحتُ لأن أمي شاركتني عدم غضبي هذا ، وقد نطقناها معاً

نفترض أنها لم تتزوج !!

وبعد أن قلناها ، ورضينا بها نتيجة ، قلنا معاً أيضاً

ولكن ، ما كان يمكن عندها أن يكون لها ولد بهذا الحجم

فعتبنا على أمريكي

مرة قال لي ـ وهذا يدلل على أصالة معدنه ، ومعدن سيارته أيضاً ـ لو كنت تستطيع القيادة لأعطيتك السيارة لتقوم بمشاويرك الخاصة وغمزني فبها تستطيع أن تحقق المعجزات نسائياً

حين قال الكلمة الأخيرة إنقبض قلبي ـ لأكثر من سبب ـ

أولها أنني لم أكن أتصور زوج أختي ينطق كلمة معيبة كهذه ؛ وقد كان يمكن أن أحتملها لو قالها ـ وقد قالها ـ قبل زواجه

وثانيها ان شخصاً متزوجاً يقول عبارة كهذه لا يؤمن جانبه أُسرياً ، ومن يعرف ؟!! فأنا لست معه دائماً

وثالثها أنني اعتبرتُ الجزء الأخير من التعليق يتنافى مع نبالة الجزء الأول منه

ورابعها ما يحمله الجزء الأخير من تشكيك في قدراتي على هذا الصعيد العاطفي

وخامساً يبدو الأمر ، كما لو أن أي فتاة لا يمكن أن تنظر إليَّ لشخصي ، وأن ما يلزمني هو سيارة (بلايموث) على الأقل ولو كانت سيارته (فولكسفاجن) مثلاً ، لاعتبرتُ العبارة خالية من (المعاني) ربما

وسادسها انه ذكّرني بمرحلة انتهت تماماً بعد موت أبي رحمه الله

وسابعاً يكفي !

حين اصطحبني ، أو اصطحبته لمنطقة كراجات الشرق الأوسط ، وراح يفتش عن (جنطات) المنيوم للسيارة ، أدركت أنه مقيم هنا إلى الأبد وأنه لن يعود إلى السعودية

قلت لأمي ذلك ، فحمدت الله أنني على درجة من الذكاء أعفتها من حرج السؤال عن نواياه تجاه العودة إلى هناك ، وكان إستنتاجي في محله

لو أراد العودة لأشتراها من هناك لأنها حتماً ـ وفي حتم الحتم أيضاً ـ أرخص بكثير

لا يمكن لأحد أن يتصور فرحة أمي بي في تلك اللحظة ، فرحتها التي أنستها القضية التي تشغلها من ألفها إلى يائها ، أو من ألفها إلى قافها على الأقل ولم يخطر ببالينا في ذلك الوقت ، أن فرحتها ستطير لأن مصيبة أُخرى ستقع على رأس الجميع وستبقى آثارها واضحة إلى جوار آثار المصائب الأخرى

كان ذلك فصل

العودة إلى عادات ذَكَر الفرّي وما تسببه من إحراج

ويليه فصل

فتنة النجاح الإجباري والمشاجرة التي سبقت الكارثة

لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يهتف ما أن شاهد المبنى ، ولاحظ التغييرات القائمة على يمينه وشماله

الله ، وزارة التربية !! كأنني لم أرها منذ ربع قرن أكان لا بد من يوم كهذا كي أرى .كي تتاح لي الفرصة لأن أتأمل وأُحب أكثر

وللحظة بدا ممتناً لسكان عمان انهم زينوا له المدينة ، كما لو انه عريس ، والمدينة عروسه ، وتركوه وحده (يسحُّ ويُربع) كما يقال وأحس أيضا أنه ممتن لسكان الفضاء إن كانوا هم السبب في ذلك الغياب

ما الذي يمكن أن يفعله سكان الفضاء بسكان مدينة صغيرة ، لا تكاد تبصرها إذا ما حدقت في خارطة العالم ؟ إن أقصى ما يمكن أن يفعلوه إستخدامهم في أحد أفلامهم هناك ، وإعادتهم ثانية

واثقاً كان ، ولأكثر من سبب ، أن سكان الفضاء لا يقدمون على عمل ما لمجرد اللهو ، وقد خطر له أن أحد الأسباب يمكن أن يكون أيضاً .

: أنهم اكتشفوا معجزة ما في سكان عمان

لم يكتشفها هو الذي عاش وترعرع بينهم وشاركهم الهواء ، والماء والسمن ، والدواء ، أحياناً

أنا فخور بصحتي على هذا الصعيد

إن لهم حكمتهم ، هذا واضح ، لكنه لم يستطع الإهتداء إلى تلك الحكمة

الأسباب شيء ، والحكمة التي نستخلصها منها شيء أخر

ورأى نفسه يصعد الدرجات المؤدية إلى باحة الوزراة في ذلك اليوم الذي مضى فيه مزهواً لتصديق شهادته الثانوية وكشف علاماته

كنت أقول دائماً إن النجاح ، كما يمكن أن يناله المرء بارادته ، يمكن أن يفرض عليه

- كالفشل تماماً ؟!!

أجل كالفشل تماماً

وفي محاولته لإزالة الإلتباس عن فكرته أضاف

بعض البشر يفشلون في النجاح بسبب إصرارهم على الفشل ، من خلال يأسهم مثلاً ، خوفهم ، عدم رغبتهم في عمل أي شيء ، إنتظارهم وصول اللقمة إلى أفواههم دون أن يحركوا أيديهم ، أو - اسمحوا لي أن أقول - مؤخراتهم والنجاح كائن حيوي يفرض نفسه على الإنسان ، إما بارادته هو أو بارادة الآخرين ، وإما لظروف خارجية

لقد ، حُكمتْ حياته مثلاً بمجموعة من النجاحات الإجبارية

نعم وللحكومة فضلها في هذا المجال ، فضلها الذي لا يُنسى

حين يبدأ بعرض قائمة نجاحاته يقول

النجاح في المرحلة الابتدائية كان إجبارياً ، إلغاء امتحان الشهادة الإعدادية في تلك الأيام ، كان بمثابة إنجاح إجباري ، إعادة النظر في أسئلة الإنجليزي والرياضيات والعلوم في امتحان الشهادة الثانوية ، كان بمثابة إنجاح إجباري ، والتقاط الحكومة لمشكلتي العويصة التي زلزلت

حياتي تماما ، بسماحها للقطاع الخاص بإنشاء كليات مجتمع متوسطة بعد أربع سنوات عانيت فيها الأمرّين من رفض الكليات الرسمية قبولي فيها طالبا بسبب إنخفاض معدلي ، إنجاح إجباري ، ـ اليوم سمحت بإقامة جامعات أهلية ـ ثم إن قيام الحكومة بغض الطرف عن الكليات المتوسطة ، فيما بعد ، ساعد بالتأكيد على أن ننجح إجبارياً ؛ وللحق ، لم يسقط في الامتحانات أي طالب ؛ مما جعل الطلبة يلتقطون هذه اللفتة الكريمة ، ويرفعون شعاراً بالغ الدقة أكل ونوم ودبلوم

وحين يأتي إلى دور الحكومة خارج التعليم ، لا يجد النتيجة مختلفة فالحكومة التي حرصت دائماً على أن يظل طعم النجاح تحت أسناننا ، أي أسناني ، فاجأتني دفعة واحدة ، وكأنها تقول لي والآن عليك أن تعتمد على نفسك وماذا كنت سأقول لها لن أعتمد ؟! لا ذلك مستحيل هكذا ، وجدت نفسي مُلقى في خضم التجربة ، أي الحياة ، كما لو أن الحكومة تقول لي لقد علمناك لدرجة تكفل لك أن تعوم في بحرها ولم تكن موجة التعويم قد وصلت

بغير هذه الطريقة ، ما كان له أن يتذوق طعم الدنيا ، ولحكمة يرددها دائما

وجدتُ نفسي بلا وظيفة نعم ، كثير من النجاح ، بل النجاحات ، لكنها لا تؤدي إلى وظيفة

ولذلك ، لا يستطيع ألا أن يعلن الآن ، وأمام مبنى الوزارة ، صادقاً ، تحت هذه الأعلام ، وعلى رؤوس الشهود ، غائبين كانوا أم حاضرين

انني لو وجدت وظيفة بانتظاري ، ما كنت سأكون ذلك الإنسان الذي أنا عليه اليوم

يبتسم ، حين يتذكر ذلك البحث المضني عن عمل ، يبتسم حين يتذكر سعيه الدؤوب من أجل العثور على شريكة عمر في شوارع عمان بل ودمشق ، يبتسم حين يتذكر أي خبرة عظيمة تلك التي استقاها من

خشبة المسرح ، يبتسم حين يتذكر كيف هتف ـ متجاوزاً المسرح والتلفزيون معاً ـ بعد ذلك

الدنيا سينما

يبتسم حين رماه القدر بين يدي ذلك المخرج اللعين ، الذي تَـوَّجَهُ أهم قتيل في تاريخ الدراما الأردنية

ذكريـــات

يبتسم حين يتذكر صرخة بطلة المسلسل وهي تبكي بحرقة ، وتتخيل مشيته في الحلقة السابعة وقد بُعث حياً لمدة خمس ثوان ، في مشهد (فلاش باك) يا ويلي ذبحوا زينة شباب البلد وإنتو قاعدين

حيث كانت تحضُّ أخوتها على الأخذ بثأره . وقد أيقن بعدها أنه لو عاش لاحبته ، وإلا ، لماذا صرخت تلك الصرخة

يبتسم حين يتذكر الفتاة الجميلة جداً جداً ، رغم المرارة التي خلَّفها غيابها

كيف كان يمكن أن ألقاها وأنعم برؤية وجهها ، لو لم أُلق في نار التجربة؟

ولملم ابتسامته ما أن عبرت ملامح أمريكي ضبابيةً ، كما لو انه لم يره سوى مرة واحدة في حلم غامض ، ينتمي إلى زمن بعيد

عندما ، أدركت العائلةُ ، أن أمريكي لن يعود ، قررت أن تفرض عليه النجاح ، قبل أَن يفرض الفشلَ على نفسه وحين أتحدث عن العائلة ، أقصد نفسي بشكل خاص

لم يخطر بباله حل ، سوى ذلك الذي ما كان يمكن أن يصل إليه لولا خبرته التي كدَّ طويلاً حتى يُقَطِّرَها من بحر الحياة

ما دمت قررت البقاء هنا ، فلماذا لا تفكر بتحويل سيارتك إلى سيارة أجرة ؟

وليته لم يجد الحل

ثار أمريكي ، ثار وانفعل إلى درجة أدركتُ معها أنني سأُرَمِّلُ أختي

راح يصرخ فاقداً طلاقة لسانه المعروفة ، فأذا به شخص يتأتئ

ـ أتريدني بعد أن فعلت ما فعلت من أجل الحصول على السيارة ، أن أترك أي غريب يركبها لمجرد أنه سيدفع بضعة قروش ؟!! أتريدني أن أُقَوِّدَ على سيارتي ، أتريدني أن أكون ـ أنا نفسي ـ قوّاداً

وللحق ارتبكتُ ، فلم تكن مثل هذه الأفكار المعيبة ، قادرة على أن تطرق بالي ذات يوم

لذلك ، حاول تخفيف وقع اقتراحه عليه وعلى سيارته ما استطاع

لا أقصد أن تُحوّلها إلى سيارة سرفيس على خط البلد ـ المحطة ، أو البلد ـ الوحدات ، أقصد ، بإمكانك أن تُشغّلها على خط عمان ـ الشام وبالعكس !!

ـ شو ؟!!! شو ؟!!! أتريد أن أُقوّد عليها في بلدين ، هنا وهناك؟! هل فكرت في كلماتك قبل أن تقولها

فجأة ، تحوّل أمريكي إلى شخص آخر

كأنني لم أعرفه ، كأنني لم أُزوجه أختي ، ولم أمازحه حين أفشيت له رقمَ حذائها

ـ أريدك أن تعتذر ، أن تعتذر الآن

هكذا راح يطلب منه

وأحسستُ أن الأمر على درجة من الجدية ، لا تسمح لي إلا بشيء واحد ، هوالإعتذار ، وقد كان يمسكني من يدي التي توجعني أختي وابنها سريعاً فكرت ووبخت نفسي أتريد أن تُيتم ابن أختك ؟! فقلت له أعتذر فأخذ نفساً عميقاً ، خلْتُ معه انه لم يترك لي هواء أتنفسه لمدة يومين ، أو ثلاثة أيام ، إلى أن هدأ

وراح يفكر في الأمر
كان يعتقد أنه هزمني ، لا بدَّ ، ولكنه لم يهزم غير نفسه

لثلاثة أيام ، اختفت السيارة من الحوش ، واختفى معها

فأحسست أنني أفتقدها ، وأصبح بإمكان ابن أختي أن يُطبق على أُنثى طائر الفري التي لم تعد تجد ملجأ تلجأ إليه ، وفراخها اشتقتُ لانعكاس الشمس في العاشرة صباحاً على هيكل الـ (البلايموث) المنساب ، والتماع بريق لونها المنعكس على الحائط الذي لم يزل في الظلّ ، اشتقت لجملته التي كان يرددها كلما رآها تلمع (كنتُ موفقاً في اختيار اللون الذي يبقى نظيفاً) ، ووجدت نفسي أشد على قطعة القماش التي كنتُ أُنظّفُ بها السيارة ، كما تشد امرأة على منديلها الذي يقطر دمعاً في محطة قطار ، في واحد من الأفلام الكبيرة وقلقتْ أختي ، فنظر الجميع إلي ، فأحسست أنهم سيهبّونَ في وجهي (وين ودّيت الولد) وقلت إذا حدث له شيء ، سأكون المسؤول عن ذلك أمام عيني ابنه وأسئلة الحكومة ولوعة قلب أمه ، وشعر أختي الممزق بفعل يديها ، وقبل ذلك أمام الله

لكنه عاد

فأعاد الهواء إلى رئتي بعد ثلاثة أيام طويلة أمضيتها بلا هواء ورقيقاً كان

- هل قلقتم عليّ ؟!! سامحوني

مد يده إلي وصافحني ولم يكتف بذلك ، شدَّ يدي باتجاهه وعانقني ، وقال لي

- إشتقت اليك (أميغو)

وكانت كلمة (أميغو) وحدها ، كافية لكي تعيد كل شيء إلى مجراه ، فالكلمة لها مذاقها ، الذي صاغ تاريخنا المشترك ، أيام أفلام

الكابوي ، أيام (الدولار الفضي) و(غضبة السماء) و(من أجل حفنة دولارات) أيام (المسدس الذهبي) وأفلام فرانكو نيرو ، وليفان كليف وجوليانو جيما ومارك دايمون وغيرهم وغيرهم !!!

بعد أيام قال له أمريكي

ـ ما الذي تتوقعه مني ؟! لا يحقق الإنسان حلم حياته كي يعيره للآخرين

أعجبتني الفكرة ، فهززتُ رأسي مرتين ، الأولى إعجاباً ، والثانية اقتناعاً . وقلت لتخرب الدنيا !! لن أغضبه ثانية

وقال له أمريكي أثناء جولة ترضية في شوارع عمّان الغربية

التي لم تكن غربية إلى تلك الدرجة التي هي عليها اليوم

ـ الحلم الذي تحققه ، يجب أن تبذل كلَّ ما في وسعك من أجل أن يظل جميلاً

فأدرك أن أمريكي قبل المشاجرة ، غيرُ أمريكي الذي بعدها وأدهشه

أنه بدأ يرق إلى هذا الحد فخفت عليه

لقد سمع الكثير من القصص حول اللحظات ، أو الأيام التي تسبق موت البشر ، كيف يرقّون ، وكيف يبدأون بتذكر أشياء لم تكن تخطر ببالهم ، كيف تنهال مطالبهم الصغيرة الحميمة الغريبة ، وكيف يشتهون الأشياء في غير مواسمها

أمي قالت لي ، إن جدتي طلبت قبل موتها عنباً في شهر كانون أول ولم تكن جدتي بالمرأة الساذجة التي لا تفهم الدوالي ، لتطلب طلباً مثل هذا في عزِّ الثلج والصقيع

هو يعرف ذلك كله ، حتى قبل أن يعمل في الصحيفة ، وحين دقق بعض المقالات والقصص التي تناولت الموضوع أحس بأنه

: قادر على كتابة عدة صفحات لإغناء الموضوع أكثر .

ـ لن أبخل عليها   قال أمريكي
ـ سأبقيها ـ كما جاءت من مصانع بلادها ـ مُسَتَّتَةً ومحترمة ، لا ينقصها شيء

لم يكن أمريكي يكتم غضبه ، كلما كان يرى سيارة جديدة ، وقد حُوِّلَتْ لسيارة سرفيس أو أجرة

أتعلم ماذا يعني ذلك ، انه يشبه إجبار فتاة ابنة أصول على العمل كخادمة ، بل وأسوأ من خادمة

وحاول إيجاد مثل ، إيجاد مَخرَج يرد به على أمريكي ، فلم يجد شيئاً سوى

ان السيارات شيء آخر ، وليست بشراً ، ويوماً ما ستصبح سيارتك قديمة

فـرد أمريكي   قديمـة ؟! لا هـذه لن تصبح قديمة ، لن أوافق على أن تصبح قديمة ، وإذا أصبحت قديمة في نظري فهذا يعني أنني لم أعد أحمي حلمي وأحافظ عليه كما يجب!!

كان يمكن أن يكون كاتباً أمريكي هذا

همس لنفسه ، وأسعده إلى درجة كان يمكن أن يحوِّل معها اسمه من سعيد إلى أسعد ، حين اكتشف تلك النبالة في صديق عمره الوحيد

ـ قدرنا بات واحداً ، أنا والـ (بلايموث)   قال أمريكي   وسأل   لم تقل لي ، كيف ترى جنطات الألمنيوم ؟!!!

رائعة

ابتسم أمريكي ، وأطلق نظره بعيداً باتجاه الشمس الغاربة فوق حقول تمتد بلا نهاية

فقلت له ، لماذا نتحدث عن أحلام حياتنا بكل هذا الحزن ؟!!

فأجاب   هذا لأننا لا نصدّق ولن نصدّق أننا حققناها !

أعجبتني الفكرة

وحين عادا للبيت

كالعادة ، نزلت من السيارة كي افتح له باب الكراج

فقال لا تفتحه سأقوم بجولة أخرى

أرجع السيارة للخلف ، وهو ينظر في المرآة ، وكان يمكن أن يرجعها وهو مغمض العينين وتتبعت صوتها وهو يختفي

تلك الليلة ، قلق على صديقه ، وترك أذنيه ترصدان صوت محرك بات يحفظه غيباً ، فلم يسمع غير ململة طيور الفري وغلبه النعاس ، فنام صباحاً استيقظ على طَرقات قوية على الباب

فلمتُ نفسي لأن النوم غلبها ، وقد كنت أعتقد أن لا شيء يغلبها في ساعات الواجب

فتح الباب ، وإذا برجلي شرطة يسألان عن بيت (أمريكي)

قلت هذا بيته ، وما كان يمكن أن أشير إلى بيت أمه وأقول

ذاك بيته ، لأن بيت صديقك بيتك ، والعكس صحيح

قالوا أنت أخوه ؟

فقلت نعم ، وهو زوج أختي

فنظر الشرطيان إلى بعضهما باستغراب

لم يفهما

وصاغ الجواب ثانية بما يكفل إزالة الإلتباس

أنه صديق عمري ، أي أخي

سارا به إلى سيارة متوقفة بعيدا عن باب البيت وكان يريد أن يسألهما ما الأمر ؟!!

لكنني رأيت في ذلك تطاولاً على ممثلي الحكومة في ذلك الصباح فليس من اللائق أن نوجه أسئلة إلى الحكومة ، لأنها هي التي تسأل وظلا منطلقين إلى أن وصلا مخفر (ناعور) ، وهناك ، لمحت سيارة أمريكي

في الفناء وحيدة فقلت ها هو يحرجني ويجرجرني إلى المخافر آخر عمري!!

كانت أشعة الشمس منعكسة على مقدمتها وزجاجها الأمامي ، كما لم تكن ذات يوم

فقلت لعله قرر أن يقوم بتنظيفها بنفسه ، وفعل ذلك طوال الليل ، تحت ضوء أحد أعمدة الكهرباء في شارع (مأدبا)

وقلت إذا فعل ذلك ، فإنه يطعنني في عمق صداقتي له وصداقته لي

قاده الشرطيان إلى داخل المخفر ، طلبا منه الجلوس على أحد المقاعد الخشبية الطويلة ، وغاب أحدهما بضع ثوان ، وحينما عاد ، طلب منه أن يتبعه ، فتبعه

كان أحد الضباط في انتظاره

ـ يا أخ شد حيلك

انتظرت أن يوضح الأمر ، وألاّ يضطرني أن أسألة ماذا حدث؟

عندها التقط موجة أفكاري قيل لي انك صديقه وانه زوج اختك

فأجبت نعم سيدي

فقال للأسف ، أعطاك عمره !!

مات !!

وخشيتُ أن يفهم الكلمة على أنها سؤال

ـ نعم مات ، حادث سيارة ، تجاوز حافة الشارع ، وطارت به السيارة إلى عمق الوادي

: لقد رأيت السيارة ، لا شيء فيها

ـ الأمر لا يصدق فعلاً ؛ السيارة سليمة تماماً ، وإذا كان هناك خدوش فيها فإنها بسبب اضطرارنا لسحبها من الوادي فقط

وصمت الضابط قليلاً ثم قال يمكنك أن تراه أيضاً ، لا قطرة دم ولا

أي كدمات

وللحظة ، أحسبت بأن سيارته كانت وفيّةً له كما كان وفياً لها فأوشكت أن اغادر الغرفة لأُلقي عليها نظرة امتنان

ـ فقط ، كُسِر عنقُه قال له الضابط

في فناء المخفر

شعرت بيدي تغادرني مبتعدة وتربت على حديدها ، وأنا أتخيل همسته التي كان يمكن أن يهمسها ، وهمسها تلك اللحظة مستخدماً لساني

ـ قلت لك ، لا تخش شيئاً ، هذه (امريكي) !!

عندها ، فاض سيل الدمع بصمت فوق وجهه ، وقال

إنتهى

كان ذلك فصل

فتنة النجاح الإجباري والمشاجرة التي سبقت الكارثة

ويليه فصل

الإكتشاف المتأخر لدروب الفراشات

العالم غريب   توصلت إلى هذه النتيجة بنفسي ، دون أن يقولها لي أحد

تأمل السماء الزرقاء ، وراقب غيمة صغيرة تبتعد بسرعة لم تكن مألوفة

لم تكن غيمة الصباح

عبرتْ الجهة اليسرى لفضاء الشارع ، وانطلقتْ ، كما لو انها هو نفسه ، حين يضطر لعبور أوتستراد يفيض بجنون السيارات

ولأسباب كثيرة ، راح يبحث بعينيه عن فراشة ، بعد أن وجد أن البحث عن حيوان وحيد الخلية لا يليق به ؛ بعد أن فقد الأمل في أن يرى القطة مرة أخرى

نعم فراشة

فحين يستعيد الرحلة اليتيمة ـ المعززة بأخته ووحيدها ـ مع أمه وأم

أمريكي إلى البحر الميت ، يحاول أن يستبعد أمراً واحداً لا غير ، أفسد الرحلة ، وجعلها حزينة إلى حد بعيد بالنسبة إليه ، أما الآخرون ، فلم ينتبهوا لذلك الأمر أبداً

وما كنت غراباً لأَجرَّهم من قمم بهجتهم ليلاحظوا أن ثمة أمراً حزيناً يجري أمام أعينهم ولا يبصرونه

حين يستعيد شريط حياته ، كفيلم سينمائي

وهو يصلح تماماً لأن يكون فيلماً !

يتذكر أنه لم يحاول أن يجرَّ إنساناً من نعيم بهجته ليريه الشقاء الكامن فيه أو في بهجته نفسها ، ولا يراه ذلك الإنسان

: لستُ مُفْسدَ أفراح

أما الآن ، فبإمكانه أن يتذكر دون يجرح أحداً ، خاصة ، بعد رحيل

أمي رحمها الله

ورحيل أمريكي

رحمه اللـه

ورحيل أخته ووحيدها إلى بلاد لم يكن يتخيل أن يصلها بنفسه

فإذا بأختي ووحيدها يصلانها !

كانت الـ (بلايموث) منطلقة

كسرير مائي على عجلات !

ـ أعجبه الوصف ـ

حين توصلتُ يومها إلى أن كل سيارة هي في الحقيقة سيارتان !

كيف؟ حين تجلس داخلها تكون سيارة ، وحين تضطر للمرور من أمامها تكون سيارة أخرى

ذلك اليوم ، لا ينفي أنه كان داخل سيارة معتبرة .

أجل معتبرة
إلا أن الأفراح لا تكتمل
دائماً !!!
ويمكن أن يثبت كلمة (دائماً) هذه ، بإيراد عشرات الأسباب التي لم تخطر ببال أحد
أو بال كثيرين
منذ أيام ، كان يدقق أحد الأخبار الخفيفة للصفحة الأخيرة
الخفيفة ؟!!
فأحس بوخزة قوية ، قوية جداً ، كما لو ان أحدهم وخزه بمسلة بصورة مفاجئة
لذلك ، ودون أن أدري قفزت مذعوراً ، إلى درجة ارتفعتُ معها عن الكرسي أكثر من ثلاثة أشبار ، وهويت
فالتفت إليه زميله ، ذاك الذي قال قولته المشهورة حول المواطن ، وسأله
ـ ماذا ؟!!
مجرد وخزة
فسأله
ـ أين ؟
فأجابه
لا أدري !!
ـ كيف لا تحس بموقع الوخزة ، وقد أطارتك في الهواء أربعة أشبار؟!!
أربعة أشبار ؟!!
ـ نعم أجابه زميله أربعة أشبار
كنت أعتقد أنها ثلاثة أشبار لا أكثر
ـ لا ، بل أربعة أشبار
أصدقك قال لزميله :

فعاد زميله ، وسأله
ـ ولكن ، ألا تتذكر موقع الوخزة أبداً ؟!!
فأجابه لا
عاد زميله قانطاً ، إلى الخبر الذي كان يعمل عليه ، دون أن يدرك أن وخزة كتلك لا يمكن البوح بموقعها ، لأنها كانت ، هناك ، عميقة جداً جداً
في الضمير !!
قد يظن البعض ، انه أوقع نفسه الآن ، وضُبِطَ مُتلبساً ، هو الذي تباهى دائماً ، أن ضميره غير مثقل بأي ذنب
وهذا صحيح ، إلا أن مشكلتي أن ضميري يُثقل أحيانا بذنوب الآخرين

كان الأربعة الآخرون ، يتأملون زهور الربيع عبر النوافذ ، والهواء القوي يغسل وجوههم !
ووجهي أيضاً
ويهتفون ، كلما أبصروا وردة
اللـــه !!!!!!
في لحظة ما يتحول البشر إلى شعراء ، لكنها لحظة عابرة للأسف:
لم يكن يراقب الورد ، أو يحاول تنصيب نفسه شاعراً ، من خلال رحلة وحيدة ، فهو يعرف تماماً أن الشعراء لا يصبحون شعراء
لمجرد قيامهم برحلة واحدة في ربيع كل عام لرؤية أزهار بلادهم
ليس هذا فقط
بل إن الشاعر لا يستطيع أن يراقب الأزهار من نافذة سيارة تشبه سريراً مائياً على عجلات ، ويدّعي أنه يعرف الأزهار
لحسن الحظ ، لقد دقق الكثير من الموضوعات عن حياة الأدباء ـ

الأدباء ، والشعراء ـ الشعراء

واسمحوا لي أن أقول إن الأمر مختلف ، مختلف تماماً ، وأرجو ألاّ يُفهم كلامي على أنه محاولة للنيل من سمعة أي أديب في هذا البلد صحيح أنهم لا يكفّون عن الشكوى من سوء أوضاعهم ، ويلومون الحكومة على ذلك ، إلا أنني أرى أنهم لو كانوا أدباءً ـ أدباء ، أو شعراءً ـ شعراء ، لأنصفتهم الحكومة كما أنصفت المتقاعدين العسكريين ، وعمال المياومة في أمانة عمان الكبرى ، وأطباء القطاع العام و

إبتعدنا قليلاً

كانت الأزهار منتشرة إلى درجة لا يمكن للمرء إلا أن يراها

وعلى جانبي الطريق !

أما أمام النافذة الواسعة ، فقد كان الأمر مختلفاً

مئات الفراشات كانت تعبر الشارع

ولا تجد في انتظارها

إلا الموت

ترتطم بالزجاج ، فتلتصق أجنحتها به

وأنظر خلف العربة ، فأرى بعضها يرفُّ بأجنحة مكسّرة

وعلى مسافة ممتدة عشرات الكيلو مترات

لم تُوقف الفراشات محاولاتها لعبور الشارع باتجاه الشرق ، باتجاه عمان

فقال

فراشات لا تستطيع تدبير أمورها هنا ، كيف ستتدبر أمورها هناك ؟!!

وقال

حكمة الله في خلقه

ولكي يبدو الأمر كما لو انه دعوة لهم للتمتع بالأزهار أكثر ، اقترح

على أمريكي أن

يخفف السرعة

بعد أن أدرك أن ذلك سيساعد الفراشات أكثر على النجاة بل انه تجرأ وهتف مبتهجاً

هل ترون الفَراش ؟!!!!

ـ الفَراش ؟ أي فراش . سأل أمريكي

الفراش الذي يعبر الشارع أجابه

لكن أمريكي لم يفكر للحظة بتخفيف الضغط عن (دواسة البنزين)

عندما أدرك أن خطته قد فشلت ، تجرأ بعد دقائق وقال

أرجو أن تتوقف خلف تلك الشجرات !!

فسأله أمريكي (مزنوق) ؟

فأجاب بخجل كثيراً

وكان يخشي أن يقول صديق عمره

لا عليك ، يمكن أن تقضي حاجتك هنا ، فهذه (امريكي) !

لم يقلها

ربما لان أُمَّيْنا معنا

نزوله من السيارة ، أراح ضميره قليلاً ، وقد أدهشه ذلك

لأنني عشتُ إلى زمان بات على المرء فيه أن يريح ضميره بالطريقة نفسها التي يقضي بها حاجته

لقد فكرّ

إن نزوله من السيارة سيساعد مئات الفراشات على الوصول إلى بر النجاة ، وإن لم يكن مطمئناً إلى أن ثمة برّ نجاة

الأوربيون سبقونا في هذا المجال

فالخبر الذي سبب له الوخزة القوية ، كان يتحدث عن قيامهم هناك ، بفتح طرق للفراشات عبر الغابات ، عن طريق إزالة الأعشاب

المجنونة ،لتسهيل عبورها إلى حيث تريد

ألقى نظرة أخرى إلى السماء ، فرأى غيمة أخرى تعبر مسرعة فهمس

الغيمة تشبه الفراشة إلى حد بعيد ، أقصد برقتها ، لكنها ليست مضطرة أن تعبر مسرعة هكذا

ثم قال لعلها تعبر هي الأخرى طريقاً مخصصاً للطائرات !

لن يطيـــل

اليوم ، تغير معنى الأشياء ، لأن الطُّرق كلها خالية تماماً

وصالحة لمرور الفَراش

لكن ، ليس ثمة فراشة واحدة في عمان كلّها

سواي!!

هل تكون معجزة كاملة قد تحققت ، من أجله وحده ؟

ربما

هل هي مكافأته على تلك الوخزة المؤلمة ؟

طبعاً لا ، لأن هناك دائماً أكثر من سبب

لكنه ، لا يستطيع ، رغم تفاؤله التاريخي ، أن ينفي أنه حزين

فقد كان بإمكان الفَراشات أن تفعـــل ما تريد في يوم كهذا

لكنهـا غير موجودة ، وغائبة عن اللحظة اللائقة بها

وفكر في أن سكان عمان لا يستغلون الفرص الملائمة أبداً

هكذا كانوا طوال أعمارهم !!

وإن كانوا الآن في هذا اليوم ، قد أصبحوا غير مرئيين

وهذا احتمال آخر

فإنهم بالتأكيد ليسوا في الشارع

: بل في بيوتهم ، خائفين من أن يعرف أحد أنهم غير مرئيين !

وفكّر أيضاً

إذا كان الفراش يتجه نحو الضوء ، فليس عبثاً أنه في ذلك اليوم البعيد كان يرحل للشرق !

ولأسباب ما ، خفية لا يستطيع التكهن بها ، أحس أن رحلته اليوم هي

رحلة كشف

وأن طريقه سينتهي حتماً

بالضوء

أدرك أن اليوم هو يوم عمره ، يوم حياته وأنه سيتشبث به

بإرادة حديدية حتى النهاية بل حتى البداية

لقد كان على يقين دائماً بأنه ـ رغم كل شيء ـ إنسان محظوظ ، لكنه لم يعرف أبداً أنه كان محظوظاً إلى هذا الحد

ثمة معجزات تمهد لي الدرب ، وتشقه ، مطوّحة بكل ما يعيق تقدمي معجزات لا أستطيع القول إنني أدركها ، ولكنني أستطيع القول انني أحس بها تماماً معجزات لي وحدي ، من دون خلق الله في هذه المدينة ، معجزات سأمضي معها ، أقودها وتقودني وأشق لها الدروب مثلما تشق هي الدروب لي ، دروب الفراشات هل كان لأحد من سكان عمان مثل هذا اليوم في حياته ؟!!!

عاد من خطبته الطويلة إلى نفسه حزيناً

لقد شطحتُ ، فما الذي يمكن أن أفعله وحدي هنا ؟

صعّد نظره إلى السماء ، باحثاً عن غيمته ، عبر فسحة محاصرة بين بنايتين عاليتين وأعلام كثيرة ، لم ير أثراً لها

إلهي ما الذي يحدث الأن ؟

سار خطوات أخرى ، خطوات قليلة ، عاد إليه بعدها اطمئنانه
لم يتخل الله عني قديماً ، ليتخلّ عني اليوم
وعاد ليتأمل العالم من جديد بقرون استشعار فراشة جذلة

كان ذلك فصل
الإكتشاف المتأخر لدروب الفراشات
ويليه فصل
الأسباب الكامنة وراء اقتياده لمحاضرة بعنوان (الوسائل المثلى لتفعيل العضو)

حين همس لي زميلي مؤكداً ضرورة حضوري الندوة التي يعقدها حزبه ـ الذي كان من أوائل الأحزاب التي أعلنت عن ولوجها بوابة الحياة الديمقراطية ـ أحسست بأن همسته لم تكن دعوةً بقدر ما هي أمر فلبيتها دون مناقشة ، ولم تكن شروحاته التي قدمها لي باستفاضة تليق به كشخص له حضوره الذي يتجاوز مبنى صحيفتنا بالتأكيد

حدد لي مكان الندوة ـ قاعة أحد فنادق الدرجة الأولى ؛ لن أسميه ، حتى لا يفهم من ذلك انني أقوم بالدعاية له من وراء ظهر الجريدة كنت أرى الفندق باستمرار من نافذة الحافلة أثناء مرورها اليومي من جانبه ولم أكن لأجرؤ على دخوله لو لم أكن معززاً ذلك النهار بدعوة ، ودعوني أقول (رسمية) وعلى هذا المستوى

إلاّ أن ما حيرني فيما بعد ، نص الاعلان الذي دفع به إلى طاولتي لأقوم بتدقيقه بعد أن دققه بنفسه

قلت : الاحتياط واجب

ولوهلة اعتبرته أكثر الاعلانات جرأة في تاريخ الصحافة الأردنية وفكرت لقد وضعتَ نفسكَ في ورطة كنتَ في غنى عنها إلاّ أن التراجع عن أمر كبير لم يكن ذات يوم من شيمي

ليلة كاملة أمضيتها في تقليب الموضوع داخلٍ جمجمتي ، إلى درجة أن جسمي كله انشغل أيضا ، فأمضى الليل يتقلّب هوالآخر ، لكن الأكثر عجبا ، إحساسي بأن جسمي ليس لي ، بل لسواي ، لشخص آخر قلق لا يستطيع أن ينام ، أو يترك غيره ينام

قلت كأنني إثنين في واحد

واستعدت أبحاثا كثيرة كنت دققتها للصفحة العلمية ، وأخرى كانت تتسلل بين فترة وأخرى إلى الصفحات الأدبية ، وأعني بها تلك المتعلقة بما يطلقون عليه إسم الفصام وبحزن أدركت تلك الليلة أنني قد فصمت بلا رحمة ، وهكذا رحت أحاول ما استطعت جمعَ شمل نفسي ، مستخدما كل الوسائل والحيل التي قد توصلني إلى غايتي ، ولكن ، دون جدوى

لم أفهم كيف يبدأ حزب ـ مدعوم بلا شك ـ مسيرته بنشاط مثير من هذا النوع

وقلت ما كان هذا ليتحقق لأي حزب آخر ، لو لم يكن مدعوما

وقلت ما الذي ستتركه الأحزاب ـ إذا ما انطلقت بهذه القوة للأطباء النفسانيين ودور السينما (إيّاها) ، ولا حياء في الدين للزوجات ايضا ؟

لن أطيل

كان عنوان المحاضرة هو (الوسائل المثلى لتفعيل العضو) ، هكذا ، ودون مقدمات ، في مجتمع يراعي تماما حرمة الأعضاء ، ما ظهر منها وما استتر

التراجع عن قبول الدعوة لم يكن بالأمر الوارد أبدا ، فبعد الموافقة ، ليس ثمة حجة يمكن اللجوء إليها لتبرير الغياب . ومن يدرِ ، لعل الأمر

كله لا يعدو محاولة للاختبار ، ليس إلاّ ، لمعرفة أكثر القضايا إلحاحا على عقل مواطن ما بعد الديمقراطية ، وأستطيع القول هنا إن المسألة سياسيا لا تعنيني ، لأنني - وعلى هذا المستوى - لم أكن ذلك الشخص الذي يقبل القسمة على إثنين ، فلم تكن الديمقراطية ذلك الشيء الذي سيقلب موازين حياتي رأسا على عقب ،كما يقال ، وكنت أرى أن أعظم ما يمكن أن يتحقق ، هو إتلاف ذلك الملف الذي كنت السبب في وجوده من خلال تلك الرحلة المشبوهة إلى برّ الشام سوى ذلك ، فإنني لا أنتمي لتلك الفئة التي لا تكفّ عن المطالبة بالأشياء في غير أوانها - وأرجو ألاّ يفهم من هذا الكلام انني أغمز في قناة أمي رحمها الله التي طلبت العنب كجدتي ، في غير أوانه قبل وفاتها - ، فالذين طالبوا بهذه الأشياء تسرعوا في اعتقادي ، وشككوا في نوايا الحكومة تجاهنا ، كما لو أن لديها ما نشتهيه ولكنها تضن به علينا

ما الذي أريد أن أقوله من وراء هذا الكلام ؟

لا شيء كثير ، لا شيء سوى أن أوضح مسألة غائبة - حتى عن بال الحكومة نفسها ربما - ألا وهي ان الذين يعملون فيها ولها ومعها ليسوا وحدهم المخلصين لأفكارها

لن أطيـــل

لأسباب كثيرة تكاد لا تفهم

كان وقت الاجتماع مناسبا ، بحيث اعتقدت انه رُتِّب ليتوافق تماما مع لحظة خروجي ومعي زميلي من مبنى الصحيفة ، وقلت لعل ذلك عائد لحظ جميل طالما كان يشق لي الدرب قبل وصولي ، مع أنني أهيىء النفس دائما كما لو انه سينسى موعده معي ذات يوم ولا يجيء

كالعادة عملت المستحيل ألا أخرج وزميلي إلى الشارع في اللحظة نفسها ، وقد نجحت في البداية ، إلا ان صوته استطاع اللحاق بي على بعد أمتار قليلة من البوابة الخارجية للمبنى

ـ لا يعقل أن تسبقني إلى اجتماع أنا الذي دعوتك إليه

قال لي ذلك بمجرد أن وصل ثم وضع ذراعه في ذراعي كما لو اننا شخصان تجمعهما فكرة الشك بنوايا المواطن

ليس ثمة مبرر هنا كي أعيد ، أو أعدد الاسباب التي تدفعني لعدم القبول بنظرية زميلي المتعلقة بنوايا المواطن ـ التي يمكن أن تكون جائرة في حالات كثيرة أولها أنا شخصيا ـ والحقيقة أنني كنت أحسب له أكثر من حساب ، خاصة بعد أن باح ـ ولا أعرف إن كان ذاك البوح عفويا أم مقصودا تماما ـ ببعض أسرار مهنته ، حين أستخدم لغة الصحافة وهو يتحدث ضاحكا عن تقاريره التي رفعها الى أعلى

بعض التقارير كان ينتمي إلى الفئة الدُّنيا ، وهذه كان يطلق عليها إسم (الْـمفْرِد) ، أما الأكثر خطورة فقد كان يطلق عليها اسم (العمودين) ، في حين أنه لم يكن يتحدث عن تقارير من نوع أخطر والحق ان انتماءه ، أو احتمال انتمائه لهذه الفئة من كتاب التقارير حنّن قلبي عليه كثيراً ، إلاّ أنني ـ واسمحوا لي أن أكون صريحا ما دمت أتحدث مع نفسي ـ أرى بأن الحكومة لم تعمل بما فيه الكفاية لتحويل كل مواطن إلى شخص شبيه بزميلي ـ ، ولو نجحت تماما على هذا الصعيد لخففت من أعباء كثيرة ترهق ميزانيتنا دون شك ؛ راجياً ألاّ يعتبر البعض كلامي هذا من فئة الكلام الذي يمكن أن يصنف في خانة المعارضة ؛ أرجو ذلك صادقا ، لأن أسوأ ما يمكن أن يحدث لإنسان أن يذهب ضحية حسن نواياه

لن أطيـل

سيارته ، كانت السيارة الأهم التي أستقلها في حياتي بعد سيارة أمريكي رحمه الله ، كنت أراه كثيرا يترجل منها ، أو ينطلق بها جذلا إلاّ أنني لم أتخيل نفسي لحظةً ، أقاسمه متعته الأزلية التي لم تكن تفارق ملامحه ، بمجرد أن يأخذ مكانه خلف المقود

يعدل جلسته ، تمتد يده إلى المسجل ، وغالبا مايكون الشريط الذي

يريد سماعه لحظة الإنطلاق جاهزاً

في أواسط الثمانينات ، عندما دخلت السيارة حياته ، لعامين متتاليين كانت أغنيته المفضلة ، التي يحبها أكثر من كل الأغاني الرائجة حينها ، هي أغنية المرحوم فريد الأطرش (دايماً معاك دايماً) ، والحقيقة أنني لم أقم بتفسير الأغنية على أي نحو من الممكن أن يسيء إلى معانيها النبيلة التي دفعت المرحوم لغنائها بكل تلك الحرقة ، لأنني أصبحت أرى فيها مرحلة شبابي كاملة ما أن يتجاوز المرحوم كلماتها الثلاث الأولى

دايماً معاك دايماً
أتبع خطاك دايماً
واعشق هواك دايماً
وراك وراك دايماً

ولأيام طويلة بعد ذلك ، انتابني قلق خلت معه ان الأغنية موجهة لي بشكل شخصي ، إلاّ أن الأيام والشهور اللاحقة ، أثبتت سوء ظني ، فالحوارات المختلسة التي كنا نجريها في فترة ما بين تدقيق خبرين ، أكدت لي انه يحب الأغنية فعلا ، وقد لمت نفسي لأنني لم أكن على درجة من الفطنة تؤهلني لاكتشاف المعاني العظيمة فيها ، والتي كان يمكن ان تحولها في ذاك الزمان إلى نشيد خاص ، يمنحني القوة اللازمة ، لتحقيق أحلامي في العثور على ابنة الحلال

لن أطيل

تأخُّرُ اكتشافي لهذه الأغنية في الوقت المناسب ، ربما يكون أحد الأسباب الكامنة وراء تأخر نمو علاقتنا بصورة تتلاءم والعشْرَة الطويلة ، وهموم العالم التي كنا نتجرعها ، أو على الأقل أتجرعها شخصيا ، قبل أن يتذوق البشر مراراتها

أرجو ألاّ يفهم من كلامي هذا ، أنني أريد التعرض لحساسية الزميل الفائقة التي كان يبديها أحيانا تجاه بعض أحداث العالم وللتاريخ ، كنا

كثيراً ما نتبادل قرون استشعارنا ؛ فهناك دائما أخبار مربكة ، مقالات مربكة ، قصائد مربكة ، قصص مربكة ، ولم يكن بإمكاننا أن نواجه مقاصدها البعيدة إلاّ مُتَّحدِّين

هل كان الدافع وراء ذلك خوفنا على لقمة العيش ، أم أن الأسباب أعمق بكثير ؟

سؤال لم يخطر بالبال أيامها ، لكنه بالتأكيد كان يطوف حولنا يراقبنا ، وينتظر

اليوم أقول إن الذي اخترع الرمزية عذَّبنا ؛ ليس نحن فقط ، بل كل أولئك الذين وجدوا أنفسهم يكابدون مرارات هذه المهنة

لن أطيـــل

حين نشرت الصحف ان أحد رؤساء التحرير تورَّط في قضية أكبر منه بكثير ، وقد كان يمكن ألاّ يعاني ما عاناه بسببها لو انه كلف نفسه شراء تذكرة قيمتها ثلاثة دنانير لا أكثر ، وتنازل عن ساعتين من وقته الثمين وذهب لمشاهدة فيلم عادل إمام ـ الذي كان يعرض أيامها ولم يتنبه سيادته اليه ـ ولا أعني هنا سوى فيلم (اللعب مع الكبار) ، لكان أراح واستراح ، لكنه لم يشاهد الفيلم ليدرك أن الدنيا ليست سوى سينما في آخر الأمر

القضية لا تكمن في كونه شاهد الفيلم أم لم يشاهده ـ على أهميتها ـ القضية في حجم الراتب الذي كان يتقاضاه مقابل عمله المباشر مع الكبار ، والذي كان أقل من خُمس راتبي ـ أنا المدقق ـ .

لا ، ليست هذه محاولة للتباهي بحجم راتبي الذي استطعت الحصول عليه بعد جهد جهيد كما يقال ، ولكنني لأسباب لا تحصى أورد هذه الحكاية

أولها ، لأشير إلى أن زميلي ، الذي كنت أعتقد أن بإمكانه التخلي عن عمله في الصحيفة غير نادم ، ما كان في الحقيقة قادرا على ارتكاب

مغامرة بمثل هذا الحجم وثانيها ، اننا نعتمد على الراتب الذي نتقاضاه من الصحيفة ـ مع فارق ليس بسيطا ، لأنه يعاني من نصف دزينة أولاد ، في حين أن راتبي ـ بعد وفاة أمي رحمها الله ـ كان يكفينا كلينا ويفيض عن حاجتنا ، أنـا والسينما ، ولم تكن طيور الفري ترهق ميزانيتي بحيث أدعي أن جزءا من الراتب مخصص لها أما السبب الثالث ، فلا أستطيع البوح به رغم انني أتحدث الآن مع نفسي ؛ وآمل أن تفهموني

لن أطيـل

كل هذه الأسباب وغيرها ، جعلتنا نحكم الحصار جيدا على خناق الرمزية وألاعيبها الخفية

لن أطيـل

ما كان يمكن لعلاقتنا في واقع الأمر أن تظل في منأى عن الأحداث الكبيرة التي ترفع حرارة الجو داخل الصحيفة وخارجها ، وإذا ما أردت استعارة جملة شهيرة ما انفكّ الكتّابُ يرددونها منذ أول يوم وطأت فيه قدماي بلاط الصحيفة فسأقول الانسان إبن شروطه الاجتماعية وسواها

لن أتوقف عند بعض الأحداث الخارجية التي تبادلنا فيها الصمت ، أكثر مما تبادلنا فيها الكلام ، مثل حصار بيروت وقصف المفاعل الذري العراقي والغارة على فندق سلوى وحرب المخيمات والانتفاضة ومذبحة الأقصى ومذبحة الخليل ومؤتمر مدريد وأتفاقيات أوسلو ، حتى لايعتبر هذا تدخلا في شؤون دول عربية أحبها وأكن لها الاحترام منذ نعومة اظفاري ، ولن أتحدث عن معاهدة السلام الأردنية الاسرائيلية لأن حديثا من هذا النوع تدخل في شؤون نصف طرفي المعادلة ، لكنني سأتوقف تحت ـ ولا أقول عند ـ تلك الغيمة التي أفسدت أجواء علاقتنا لمدة طويلة في نهاية الثمانينات ، ولا أعني هنا سوى ما تعارف الجميع على تسميته بالمرحلة الديمقراطية .

بطريقة أو بأخرى بدأ يحسب حسابا لي ، كما لو أنني مرتبط بعلاقة مشبوهة مع الشعب ، كما لو انني سأرفع تقريراً فيه إلى مصدر السلطات كما لو انني سأخون الأخبار المحلية والعالمية التي بيننا - ولا أقول أخون الخبز والملح ، لأن الأكل في الجريدة كان ممنوعا في واقع الأمر - وبعد أن كان يصول ويجول وكأنه السيد رئيس القسم ، أصبح يستشيرني في أي مفردة من شأنها أن تجرح إحساس المواطنين

هل أقول بأنني كنت مرتبكا أكثر منه ؟

لا

لأن ذلك سيعني أنني أقل من مستوى المسؤولية التي ألقيت فجأة على عاتقي

وسأعترف بشيء لم يسبق أن فكرت الاعتراف به - فلم يكن وقت إعلانه قبل اليوم قد حان - وهو ينبع من حس عميق اكتسبته من معايشتي الطويلة لأفلام الخيال العلمي ، تلك التي محورها المستقبل واحتمالاته التي لا يمكن أن تخطر ببال أولئك الذين لا يجدون بيتا يندسون فيه إلاّ الماضي ؛ ما سأعترف به بسيط - رغم أنه كان يحتاج الى تلك المقدمة - ألا وهو ان عدم ارتباكي أمام الأخبار والمقالات في المرحلة الجديدة ، عائد إلى أن الحكومة نفسها هي التي سمحت بدخول الديمقراطية إلى أراضي البلاد ، وهي بالتالي التي قالت - لكل أولئك الذين يدّعون أنهم لا يجدون الكمية الكافية من الهواء لتنفُّسِهم تفضلوا وتنفسوا

وطويلا بقيت الأمور هكذا ، مع انني لم أدخر وسعاً كي أجعله يفهم ما يدور ، على طريقتي ولولا خوفي من أن يعتبر المسألة مساساً بذكائه ، لأوضحت له كل شيء دفعة واحدة وأرحته واسترحت

لن أطيـل

أكبر خطأ يمكن أن يرتكبه الانسان ، هو التيقن في لحظة ما ، أن الواقع

لن يتغير

وذلك كان خطأ زميلي الذي لا أقبل الوقوع فيه

هكذا ، لم أعمل على استغلال الظرف الطارىء ، الذي ظنه خالدا لفترة طويلة وحسنا فعلت

لا أعيد نجاحي في مجال حسّاس على هذا المستوى ، إلى فطنة فطرية لدي فقط ، لأنه في الحقيقة زبدة حياة طويلة عشتها واستمعت فيها بانتباه إلى تلك الوصايا الحكيمة للمرحومَين الحبيبين الوالد والوالدة اللذيْن لم يدخرا نصيحة ثمينة إلاّ وأغدقا بها علي ، كما لو كانا رحمهما الله على يقين من انهما سيرحلان قبلي

وقد أثبتت الأيام ، أنني كنت عند حسن ظن زميلي بي ، وحسن ظني به ، وإلاّ ، لما كان فكر أن يرد لي الجميل بدعوتي لحضور اجتماع على هذا المستوى

لقد أطلت !

دورك !!!

كان ذلك فصل

الأسباب الكامنة وراء اقتياده لمحاضرة بعنوان (الوسائل المثلى لتفعيل العضو)

ويليه فصل

العودة إلى النسيان الذي كانت فيه نجاته ، حين لم يتذكر سوى نصف اسمه

لم يتبادلا الكثير من الكلام في السيارة

ليس بسبب وجود توتر في علاقتنا لاسمح الله ، بل بسبب قصر المسافة التي تفصل الصحيفة عن مكان الإجتماع

وكل ما استطاع إنجازه خلال تلك الرحلة ، تأمّل تفاصيل السيارة الكثيرة التي يحتاج الالمام بها الى رحلة أطول من ذلك وعلى الرغم من أن حدثاً عادياً يتمثل في دعوة زميل لزميله لركوب سيارة ، لا يعتبر من الاحداث الكبيرة التي يمكن التحدث فيها

إلاّ ان الأمر لم يكن يخلو من رهبة ما

لماذا ؟ لأنها المرة الأولى التي يستقل فيها سيارة حكومية

أو نصف حكومية على الأقل

وما كان زميله ـ كما اتضح له بعد ذلك ـ أقل ارتباكا منه ، فقد أمضى ثلثي المسافة باحثاً عن الشريط المناسب للرحلة

وقد تمنيت أن يعثر على شريط المرحوم فريد الأطرش ـ إن لم يكن :

أتلفه بسبب سماعه المتكرر له ـ ليسمعني ذلك المقطع العظيم ، المقطع الذي لا ينسى

تطلع لسّما أطلعلك

تنزل م السّما أنزلك

لكنه لم يجد شريطا يزجه في المسجل ، سوى واحد من تلك الأشرطة التي جرى التعارف عليها بأنها تنتمي إلى أغاني الشباب

وقد كانت نقطة ضعفي جليّة هنا

انطلقت الأغنية من منتصف مقطعها الأول ، يرفعها إلى ذراها صوت قوي لمغن شاب بالتأكيد

ما فيك إطّيري لبعيد

خيطك مربوط إبكفي

ارتبك الزميل ، وكان ذلك واضحا ، فهمس متلعثماً

ـ لا بد أنه من أشرطة الأولاد

فأحس بأن يده ستمتد رغما عنه ، لتربت على كتف زميل العمر ، وتهمس له لا عليك

أخيرا ، استطاع بصعوبة كبح تيار انفعال صاخب ، كان يمكن أن يدفعه لتجاوز الحدود المرسومة بدقة بينهما ، وهو يرى مسحة الخجل التي فاضت وشوّشتْ صوت الزميل

إلاّ انني لم أغفر لنفسي ، ذلك الجهل ، في ظاهرة تهم أكثر من ثلاثة أرباع المجتمع ، ولا أعني هنا سوى أغاني الشباب

لن نطيل

بجرأة نادرة طمأنَ زميله

لا عليك ، أتركها ، دعنا نحسُّ لحظة بأننا لم نزل ننتمي إلى فئة الشباب!!

عندها تنفس زميله الصعداء وبعد أقل من دقيقة صمت ـ تخللتها

الأغنية ـ اعترف بعض أغاني الشباب تُحب أليس كذلك ؟
ولأنه لم يكن يوما من أولئك الأشخاص الذين يفتقدون صفة التهذيب أجاب دون تردد

معك حق

فأحس بزميله ينتشي ، وخدوده تتورد

إنها المرة الأولى التي أراه في النور

وللحظة جدٌّ قصيرة ، لم يغفر للصحيفة حشرها لهما في شبه القبو المعتم ذاك

ولولا ثقته بحكمة الحكومة وحنكتها

لقلت ، لقد كان يمكن أن تستفيد أكثر من وجوده في الطوابق العليا ولكن من أين لها أن تدرك ما أكنُّه لها من حب ، كي تعتمد علي ، ما دام زميلي لم يرفع ولو (مِفرداً) واحدا بهذا الخصوص هل يحق لي أن أعتب عليه أم لا ؟ وقد كان بإمكانه اختصار المسألة كلها بهذا المفرِدِ ؛ هو الذي لم يفوِّت فرصة للزهو بقرون استشعاره

يعترف بينه وبين نفسه أن الأمر جارح ، حينما يتعلق بنقطة حساسة جدا كهذه ، نقطة تمس جوهر وفائه التاريخي للحكومة أيا كان رئيسها ، وأيا كان الوزراء الذين يتحملون أعباء حمل حقائبها

لن نطيل

حين لاح مبنى الفندق من بعيد

بدا أن قلبي لا ينتمي إلي ، بقدر ما ينتمي إلى فصيلة من فصائل تلك الطبول العملاقة ، التي غالبا ما نراها ونسمعها تهدر في أغاني مطربة البادية السمراء سميرة توفيق

ولكي لا يفضحه قلبه في الإختبار الأول ، في المهمة الأولى ـ التي قد تكون نوقِشَتْ على أعلى المستويات ـ

: أحكمتُ إغلاق الجاكيت ؛ وزيادة في الاحتياط عقدتُ يديَّ بقوة

حول صدري ، وأرهفتُ السمعَ محاولا التأكُّد من أن أي نبضة لن تستطيع الإفلات

وصلا إلى بوابة الفندق ، طالعهما أحد العاملين فيه وهو يشير بيديه معلنا أن ليس ثمة مكان في الساحة المخصصة لوقوف السيارات ، اضطرا للدوران حول الفندق ، لم يعثرا على فسحة كافية ، أوقفاها بعيدا ، وعادا راجلين

كأنه يوم الحشر

التفت زميله اليه ، فخوراً كان

فهمتُ سر بهجته التي زادت وجهه توردا على تورد ندوة كهذه ما كان يجب أن تعقد إلا في ستاد وفرحت ، أن حزبا ينتمي إليه زميلي - رغم بعض التحفظات الشخصية حول هذا الزميل - استطاع تحقيق أكثر من هدف في مرمى الرياضة والرياضيين حين سرق جمهورهم

ثلاث مرات أضاعه ؛ طويلا ، بحث عنه في المرة الأولى وساعده امتداده ألاّ يفقده تماما في الثانية ، وفي الثالثة لم يكن بإمكان زميله الاختفاء عن ناظريه - حتى لوخطط لذلك - شبه منارة وسط الحشد كان ، عينان خبيرتان

ليس ثمة مبرر لأن أتحدث عن الكيفية التي اكتسبتا فيها هذه الخبرة؟

فارقه ارتباكه بعد عشر دقائق من وجوده في خضم الموج

وسط هذا البحر يمكن أن يضيع الجميع إلاّ أنت - أي أنا -

وفاجأه زميله ينبت بغتة إلى جانبه ، وهو يقول دون مقدمات

- ليس أعضاء حزبنا وحدهم الذين حضروا ، باستطاعتي القول ، لقد اخترقنا اليوم صفوف بقية الأحزاب

لن نطيل

بعد نصف ساعة بدأت الندوة ، بعد أن ظنٌ كثيرون

وأنـــا منهم

أن العـدد الهـائل للحـضـور سيـفـسـد كـل شيء ، وقـد تحقق أخيـرا من صدق القول العربي المأثور

ومن الحب ما قَتل

مـراهقـون كـانوا هناك ، رجـال جـاوزوا السـتين ، وآخـرون في ريعـان شبابهم بملامح غير يانعة

وأدهشني وجود عدد لا يستهان به من النساء ، فحزنت .كأن الزمان تغير ، إلى حدٍّ ما كان لي أن أتخيله لو لم أكن هنا

فتاة جميلة استرعت انتباهه ، استعاد زمناً بعيدا ، زمناً انطوى حيث كانت الشوارع له ، أطلق تنهيدة رفعته عالياً ، حوّمت به فوق أرض بعيدة ، وحين عاد ، لم تكن الفتاة الجميلة في المكان الذي تركها فيه

: لم يحدث معي أن أضعت فتاة في زحام ، كيف أضيّعُها اليوم هنا؟

أيكون قد فقد براعته التاريخية ، براعته التي طالما ارتفعت لتصل إلى مرتبة الموهبة عاد يبحث عنها بعناد

كان اختفاؤها مسألة كرامة

في سحابة الروائح ، روائح البشر وروائح روائحهم ، راح يبحث عنها ، وكأنها آخر بنات حواء

على هذه اليابسة

لكنه بدل أن يعثر عليها عثر على سواها

الفتاة الجميلة جداً جداً ، فتاتي ، نعم فتاتي

وباغته حضورها إلى درجة أنه لم يسأل نفسه ، ما الذي تفعله فتاته هنا في ندوة كهذه ؟

وأحسست أن ظهور الفتاة الأولى ليس إلاّ بداية الخيط الذي تتبعته حتى وصلت إلى ما حلمت الوصول اليه

وحين راح يقارن بين وجه الفتاة الأولى ، ووجه فتاته ، أدرك أنهما

كائن واحد ، كائنه الخاص

أراحني هذا ، لأنني أيقنت أن فتاة واحدة تستطيع أن تستلني من بين البشر في يوم مثل يوم الحشر هذا فتاتي أراحني أنني لم أزل بعد فتاها المخلص ، فتاها الذي ما كان بإمكانه أن يرى أبدا سواها

لكن صفير مكبرات الصوت الذي دوى فجأة ، وهزَّ أركان القاعة أمتصَّها من أمامه ، ورفعها عاليا ، قبل أن تتلاشى تماما

كما لو أن الأمر كله ليس أكثر من مشهد مألوف من مشاهد أفلام الفضاء

لم يخفف من وقع غيابها المفاجيء ، إلا حضورها المفاجيء ، حضورها الذي لا يمكن أن يقال فيه إلاّ أنه

أجمل هدايا السماء منذ زمن طويل

لن نطيــل

طارت السَّكْرَةُ وجاءت الفكرة

وأحس أنه قد جاء بقدميه إلى نهايته

أكان اختفاء الفتاة الجميلة جدا جدا اشارة تحذير ، ودعوة للاختفاء ، ليس إلاّ

فكَّر بحواسه التي لم تخنْه يوما ، حواسه التي أحس بأنها هرمت فجأة وشاخت ، حواسه التي ترهلت ، وقادته مثل أي مغفل إلى هذا المكان على رؤوس أصابعه راح يتسلل بعيدا باتجاه بوابة القاعة ، طاويا قامته ما استطاع ولم يعد بينه وبين فضاء الله الوفير خارج القاعة سوى بضعة أمتار ، حين سمع ذلك الصوت القاسي

ـ إلى أيــن ؟!!

إلى الحمَّام !!

ـ لا تتأخر !

هزّ رأسه ومضى

الآن أستطيع القول إن فطنتي انتشلتني من ورطة كان يمكن أن تودي بي ، إلى درجة لا تقاس مع تلك الورطة التي وجدت نفسي أخوّض فيها بعد ذلك بساعتين ، فمن يستطيع التنبؤ بما كان يمكن أن يفعله زميلي الذي بدا فجأة ، أنه لم يكن زميلاً لي في أي يوم من الأيام

الى الحمّام مضى ، من دون أن يعرف في أي اتجاه هو الحمام تبعه الصوت الصارم نفسه ، الصوت المفاجيء

ـ هناك !

التفت خلْفه ، تتبع حركة اليد التي تحولت فجأة إلى سهم ، إلى أن وجد نفسه داخل مساحة بيضاء شاسعة

تراجعتُ خطوتين لماذا ؟ لأن المكان كان يبدو صالحا لأي شيء ، إلاّ للتبول فيه

لكن يداً صارمة دفعته ثانية   انفتح الباب ، ووجد نفسه وسط البياض الناصع مرة أخرى على يساره مرايا لم يحلم بأن يرى نفسه فيها ذات يوم ، وعلى يمينه المباول ، وأمامه ابواب ستة حمامات مغلقة

انتظرتُ دقيقتين ، قبل أن أتجرأ وأطرق باب أحداها ، وأنا أتنحنح لم يأت صوت من الداخل ، دخلت

كانت الفرصة سانحة كي يفكر في طريقة للخروج من مأزقه ، بعد أن تبين له أن المحاضرة على درجة من الخطورة لا يستطيع احتمالها إلاّ أن خطورة الموقف لم تمنعه من أن يفكر في مسألة منذ زمن طويل لم تخطر له ببال

أي ممثل عظيم كان يمكن أن أكون ، لو أن صوت زميلي الذي سمعته اليوم ، هو صوتي ؟

لن نطيل

فرصة التسلل الى خارج الفندق ، التي فكر فيها طيلة وجوده داخل الحمام ، لم يجدها حين غادره على الباب كان زميله ينتظره .

ـ أطلت !!
وبأدب جم أجاب
: لم يكن الأمر بيدي !!
وأحس بأنه قال ، جملة ما كان عليه أن يقولها
أقصد
ـ لا عليك أجاب زميله وأضاف اتبعني
فتبعه
قبل أن يصلا البوابة الكبرى للقاعة ، هبت عاصفة من التصفيق ، فُتِحَ بعدها باب النقاش ، فراحت الأسئلة تنهال على المحاضر إلى درجة
أحسست معها استحالة الاجابة ، إن لم تمنح العناية الالهيةً المحاضر عمراً آخر
كانت الحزمة الأولى من الأسئلة ، مؤشراً واضحاً على ما يدور في أذهان الحضور من هواجس ملحّة
الطريقة المثلى لتفعيل العضو الحزبي في المجتمعات (النائمة) هكذا صاغ أحدهم سؤاله التربية الحديدية للعضو في المجتمعات الديمقراطية ومدى الخسائر التي يمكن أن تلحقها بالمسيرة على المدى الطويل الفرق بين العضو العامل والعضو المؤازر والمهمات الملقاة على كل منهما صحِّية السباق الذي تخوضه الأحزاب بصمت لضم أكبر عدد من الأعضاء ومدى الخطر المستقبلي الذي سينجم عن ذلك أي فئة اجتماعية يمكن أن يتوجه اليها الحزب لتجنيد أكبر عدد من الأعضاء هل يحق لأي مواطن يحمل الجنسية الأردنية الانضمام للحزب كعضو عامل ؟
وعشرات الأسئلة الأخرى
التي لم أستطع حفظها بدقة تتيح لي أن أعيدها بالأمانة العلمية التي أشتهيها
لن نطيـل

انتهت الندوة بالحماس نفسه الذي ابتدأت به ، وفُتِحَ بابُ الإلتحاق بالحزب

فدخله الناس زرافات ووحدانا

اقترب أحد أعضاء الحزب منه

وكان زميلي لم يزل منتصباً إلى جانبي

عرض عليه الدخول في الحزب عضوا عاملاً ، فالتفت إلى زميله مستغيثاً ، هز الزميل رأسه ، وكأنه يشجعه أن يدخل

لكنني لم أقرأ النظام الداخلي الذي تحدَّث المحاضر عنه

جملة ذكية كهذه ، كان يمكن أن تشكِّل ، دون ريب ، حبلَ النجاة

- تقرؤه فيما بعد أجابه الزميل واثقاً

أفلَت الحبلُ من يده

- لو لم يزكيكَ أخونا - وأشار إلى زميله - لما كان دخولك الحزب ليتم بهذا اليسر

قال له العضو الذي يتأبط الأستمارات

ثم سأله

- اسمك السباعي إذا سمحت

عاد حبل النجاة ثانية الى يده ، بعد أن ظنَّ أنه فارقها إلى الأبد

السباعي ؟!

- نعم ، السباعي

حاول أن يستعيد اسمه كاملا أدهشه أنه لم يستطع تجاوز الاسم الرابع

ألا يكفي الاسم الرباعي ؟

- بالطبع لا

يمكن أن أتذكر الاسم الخماسي إن منحتني فرصة لذلك .

- ما يلزمنا هو الاسم السباعي

قاطعةً جاءت الجملة ، فانتابه أكثر من خوف لأكثر من سبب

يمكن أن أعطيكَ اليـوم الاسم الرباعي ، وغـداً أحـضـر لك بقـيـة الإسم أعدك بهذا

وامتدت يد زميله إليه في اللحظة المناسبة

ـ لا عليك ، أنا أضمنه

ـ إذا كنت تضمنه ، فلا مشكلة ولكن غدا ، قال رجل الاستمارة

ـ غداً طمأنه الزميل

وبدا كمن يخوض مغامرة غير مأمونة العواقب

لن نطيـــل

لم يجد صعوبة في الافلات من زميله ، الذي بدا له أنه قـام بواجبه على أتم ما يرام تجـــاه حزبه ، بادخـــاله عضوا جديدا فيـه الزميل الذي تفهَّم جملته حين قال له

مضطر للذهاب ، أرجو أن تسمحا لي

فسمحا

***

عبر الشوارع ، وجد نفسه يهرول ، وهو يكاد يصرخ

قـبل أن يرفع أحـدهم تقـريرا حـول وجـودي في الإجتـمـاع ، سـأرفعـه بنفسي

كان ذلك فصل

العـودة إلى النسيـان الذي كـانت فـيه نجاته ، حين لم يتذكـر سوى نصف اسمـــه

ويليه فصل

العودة إلى النتائج غير المتوقعة للتقرير الذي رفعه عن نفسه .

أكان لا بد لـهذا العدد الهائل من الأحذية أن ينهال على رأسه ، كي يفهم الدنيا على حقيقتها ؟!

كان وأقولها بنفسي

ما حدث ، لم يكن ينتمي لتلك الحماقات التي تغتفر أحس بذلك ـ حتى قبل أن يفتح فمه ـ

فمي الذي سيغلق من هول المفاجأة مفاجأة أن أكون مغفلاً إلى هذا الحد ، وأنا لا أدري

ـ أتظننا نائمين على آذاننا ولا نعرف ما يدور في البلد ؟

سؤالهم القاطع ذاك بدا كافياً لبعثرته ، إلى حدٍّ أنه لن يستطيع أن يُجَمِّعَ شتات نفسه لأمد طويل

لا ، لا ، لا أظن أنكم

ـ لا تظن ، ثم تأتي محاولا أن تسبق الجميع ؟!

: خشيت أن تفهموا حضوري الاجتماع بطريقة أخرى .

ـ أوَ تظن أننا لانفهم الطريقة التي حضرت بها الاجتماع ؟

أقصد الطريقة التي أدخلوني فيها الحزب   أقسم أنهم أحرجوني

ـ أحرجوك ؟

نعم   ثم أنه لا يمكن اعتباري حتى الآن عضوا ، إنني أقل من عضو وأكثر من نصفه بقليل

ـ أقل من   وأكثر من نصفه ؟!

ولأن فطنته لا تفارقه عادة في المواقف الصعبة ، قال

حتى أنني لم أُعطهم إلاّ أربعة مقاطع لا غير من اسمي

ـ أربعة مقاطع لا غير !!

نعم ، أربعة مقاطع لا غير

ـ وكم مقطعا من اسمك كان يلزمهم كي يدخلوك ، في الحزب ؟!

سبعة مقاطع !

ـ هذا كثير أليس كذلك ؟

كثير جدا   حتى أنتم لم تطلبوا مني شيئاً كهذا بعد رحلة الشام!

ـ وكم مقطعا طلبنا منك أيامها ؟!

كالعادة ، أربعة مقاطع

حدق الثلاثة الذين يتحلقون حوله في وجوه بعضهم ، وأوشك أحدهم أن يسأل الآخرين سؤالا

خلت أنني عرفته

لكنه أطبق عليه في اللحظة الأخيرة   مما أتاح لأحدهم أن يسأله وهو يبتسم

ـ وهل تحفظ سيادتك اسمك السباعي ؟!

لا احفظه تماما ، ولكن

ـ ولكنك أوحيت لنا أنك لم تعطهم اسمك السباعي عن قصد .

نعم ، لا . .

يعترف أنهم واصلوا معاملته باحترام أجل يعترف ؛ وليس هناك دليل أكبر من كلمة (سيادتك) . لكن ما حدث بعد السؤالا الأخير

وأنا السبب ، أنا الأسباب ، يجعلني أتفهم ذلك الزّعل الشديد الذي انتابهم يجعلني أتفهم طول أيديهم يجعلني أتفهم دقة إصاباتها يجعلني أفهم كيف أحلتهم إلى مجرد أناس عاديين لا يعرفون الفرق بين الحرفة في عملهم والرعونة بالغة القبح في محاولتي الغبية يجعلني أتفهم حرقة سؤالهم وهم يطلقونه باتجاهي

ـ أوَ تعتقد أنك وأمثالك مستعدين لقول الحقيقة إذا ما ابتدأتم برفع التقارير عن أنفسكم ألا تلاحظ أنك مارست الكذب في تقريرك الأول؟ كيف يمكن أن تكون موضع ثقتنا فيما بعد ؟

كانوا تماما على حق كانوا مصابين بنوع من خيبة الأمل الشديدة ، التي عذبتني إلى درجة قاتلة تمنيت أن تنشق الأرض وتبتلعني تمنيت أن أذوب ـ كما ذاب سكان عمان بعد ذلك بزمن طويل

ـ هل تريد أن تحولنا إلى شكل آخر من موظفي ضريبة الدخل ـ مع احترامنا لهم ـ نجلس متثائبين في انتظار كشوف التقدير الذاتية التي سيتفضل المواطنون بتقديمها أواخر كل عام ؟ هذا إذا تفضلوا ثم ألا تدرك ـ كما تدرك دائرة ضريبة الدخل ذاتها ـ أن المواطنين الذين تستأمنهم على خزينة الدولة يخونونها ؟ هل تريدنا أن نكون غائبين إلى هذا الحد ؟

اسمحوا لي أن أقول . لقد كانت أسئلتهم في محلِّها

لذلك ، حين وجد القوة اللازمة كي ينهض من تحت ثقل الأسئلة التي انهالت عليه ، وتركته شبه محطم ، لم يجد عبارة واحدة تعبر عما بداخله غير عبارة زميله التاريخية التي طالما رددها على مسامعه بمناسبة وبغير مناسبة

نعم ، لا يستطيع أحد أن يأمن جانب المواطن

إنه أكبر أخطاء العمرِ
أكبرها على الاطلاق
أكان لا بد لـهذا العـدد الهـائل من الأحـذية أن ينهال على رأسـه كي يفهم الدنيا على حقيقتها ؟!
نعم
لو كان أبوه حيا ، لذهب إليه ورجاه أن يصفعه
كما لم يصفعني في حياته ـ رحمه الله ـ
لو كـانت أمـه على قـيـد الـحـيـاة ، لذهـب إليـهـا ورجـاها أن تُـهـيل تراب الحوْش على رأسه
كما ظلت تُهيله ـ رحمها الله ـ على رأسها أربعة أيام بلياليها ، بعد وفاة والدي ، قبل اهتدائها لحوض البقدونس
لو كانت الفتاة الجميلة جداً جداً على قيد الحياة
لو كان أمريكي
وراودته فكرة أكثر جرأة منه
أن أطلب من كل إنسان يصادفني ـ رجلا كان أم امرأة أم طفلا ـ أن يصفعني
لكنه لأسباب مبدئية لم يستطع
فطوال عـمـري لم أطلب شـيـئـا من الذين أعـرفـهم ، فكيف لي أن أطلب خدمة كبيرة كهذه من أناس لا أعرفهم؟
الآن ، باستطاعته أن يقول
لقد كان سكان عمان يستحقون أكثر من مجرد اختفاء ؛ لأنهم أقل جمالا من مدينتهم
وفجأة ، لمعت في مخيلته عناقيد الأحذية المتدليةِ من سقوف المحلات المنتشرةِ هنالك في المسافة المتراميةِ ، بدءاً من جسر المهاجرين وحتى

المبنى القديم لأمانة العاصمة ، فانطلق إليها خائفا أن تبلغها عقارب الساعة السابعة قبله فتغلقها

طوال عمري كنت أفضل ركوب الحافلة ـ لأسباب كثيرة ـ أما ذلك اليوم ، فقد وجدت نفسي أتجاوز سيارات السرفيس ، وأقفز إلى جوف أول سيارة تكسي تصادفني

أكان لا بد لهذا العدد من الأحذية أن ينهال على رأسه كي يفهم الدنيا على حقيقتها ؟!

نعم وها أنا أقولها للمرة الثالثة بلا تردد

مشاهدة ذلك العدد الهائل ، المتنوّع ، الغامض الأصول ، من أحذية الأمم الصديقة وغير الصديقة ، حوله إلى ما يشبه ثوراً هائجاً

اندفعتُ عبر أول بوابة محل صادفني ، وألقيت بنفسي فيه كما لو انه بحر ـ أنا الذي يغرق في شبر ماء ـ وتركت ما تبقّى للأحذية

لم يكن مضطرا أن يرفع رأسه ليصل إليها ، كان عليه أن ينحني أحيانا حتى لا يصطدم بالسقوف الخشبية التي تتدلى منها

ولحسن حظه ، كما يقول

لم يكن باستطاعة أي صاحب محل أن يفهم ما يدور قبل مغادرتي ، مخلِّفا من الفوضى ما يضيق به محله

بعد سبعة الى ثمانية محلات كانت الجمرة لما تزل مستعرة في القلب ، وقلوب أصحابها أيضا لكن خشيتهم منه ، من هيجانه ، من لون وجهه الذي راح يختفي تحت صبغات الأحذية ، ويتحول إلى وجه مقاتل في القوات الخاصة ، من أولئك الذين طالما رآهم في الأفلام ، لم يمنحهم الجرأة الكافية لتوجيه لكمة غاضبة جدا ، أو حتى صفعة إليه

حين رآه زميله ضحى اليوم التالي في مبنى الصحيفة ، لم يسأله

السؤال الذي يُســأَل في حالات واضحة كحالته   من الذي فعل بك هذا؟
ظلَ صامتا طوال اليومِ   وقبل انتهاء الدوام بقليل قال له معاتباً
ـ أَوَلم تثق بي بعد هذه العِشْرَة الطويلة ؟ أكان لا بد من أن تحرجني مع جماعتي فتصل إليهم قبلي ؟
لن نطيــل
العالم أكثر تعقيداً من السينما في بعض الأحيان

كان ذلك فصل
العودة إلى النتائج غير المتوقعة للتقرير الذي رفعه عن نفسه
ويليه فصل
الوسائل الكفيلة بإسعاد ممثلي الشعب ، بعد أن جار الزمان على ممثلي التلفزيون

كما لو ان الزمان توقف

أذكر الآن تماما (آلة الزمن)

حاول تحريك قدميه ،لم يستطع

مسماراً منغرساً في الأرض حتى الركبتين كنت

بحث عن يديه وجدهما هنالك كالعادة إلى جانبه لكنهما

شبه متيبستين

التفتَ إلى يده اليسرى ، كان يريد أن يعرف كم من الزمن مر عليه وهو على هذه الحالة ؛لم تستجب يده

استعدت كل تلك الأفلام التي كان موضوعها القوى الخارقة التي تكمن في اجسادنا ، نحن البشر

تتبع مصدر هذه القوة ، تلك التي بغيرها لا يستطيع أن يفعل شيئاً ، وجدها ، ، جمَّعها في رؤوس أصابعه وببطء راحت يده ترتفع ، ببطء شديد لاح طرف الساعة ، ساعته (الجوفيال) ، الهدية التي لاتنسى ،

من صديق العمر الوحيد (أمريكي) بعد عودته من السعودية

كـلانا حلمنا بامـتـلاك ذلك النوع من السـاعـات ، لكن حلمنا لم يتحقق إلاّ بعد أن فتحها الله عليه صحيح أن أنواعا جديدة كانت قد غـزت الأسـواق ، وتركـت (الجـوفيـال) وراءها شـبـه مـحطمـة ، لكنهـا لم تخـذلنا ، ويكفي انها عـاشت كل هذا العـمـر مـعي دون أن تجرني ولو مـرة واحدة نحو واحد من مصلحي الساعات ، يكفي أن أختها التي كانت في يده يوم الحـادث الأليم لم يصـبـهـا أي شيء ، ولم تثـبت أنهـا مـقـاومـة للصـدمات ، فـقط ، بل أثبـتت أن باب الأمل مفـتوح ، حينما رفـضت أن تتوقف

عادت قواه إلى جسده ، كما لو انّ التيار الكهربائي كان مقطوعا ، وفجأة راح يجري في عروقه من جديد

الواحـدة والنصف ! قفز من مكانه ، أراد أن يعدو ، لـم يستطع ، عاد يبحث عن قواه الخفية ، أحس بهديرها هذه المرة واضحاً ، حاذى مكاتب الملكيـة الأردنيـة ، هادئة كانت ، وعلى يساره انتصب هناك بجلال مبنى مجلس الأمة وسط حلقة عملاقة أنيقة ومهيوبة من الأعلام

كم مرة شاهده من نافذة الحافلة أثناء ذهابه إلى عمله وعودته منه آلاف المرات

كم مرة حاول أن يرسم صورة واضحة له من الداخل

متتبعا تقارير الزملاء التي تنحدر شلالاتٍ بعد كل جلسة ، خاصة تلك المخصصة لمناقشة الميزانية ، أو جلسات نيْـل الثقة

فلم يصل إلى شيء مما دفعه إلى مراقبة التلفزيون

ها هو الآن أمـامـه ، ليـقـول كلمـتـه فـيـه ، وخطابه الذي طالما حلم أن يلقيه من على منصته الكبرى

ما كان يمكن أن أضيِّع فرصة نادرة حلمت بها طويلا

عبر الشـارع باندفاع لـم يكـن يعتقـد أنه سيجرؤ عليه ، ولم يتنبه لذلك

إلاّ بعد أن أصبح على الرصيف المقابل

إنها معجزة أجل

وخشي أن يغدو التهوّر بعد حادثة كهذه ، سمة أساسية من سماته الشخصية التي طالما حرص على أن تظل خالية من الشوائب

أقلقني الأمر

إلى درجة شعر معها ، أنه سيبدأ فصلاً جديداً من فصول معاقبة نفسه

ولست أدري لماذا رحت أتلفت حولي خائفا أن يكون أحد قد رآني متلبسا في حالة من الطيش لا تُحمد عقباها

لم يكن يعنيه أن أحدا رآه فقط ، بل كان يعنيه أيضاً ذلك الشرخ الدقيق الذي يهدد نقاء الصورة الناصعة له

كشخص لا يقوم بممارسة شيء في السرِّ يخجل منه في العلن

لذلك أحس بأن ثلاثة أرباع فرحته بدخول مبنى المجلس قد طارت ، حتى ، قبل أن يدخل

بحث عن الكلمات التي طالما هيأها لمناسبة كان يظن أنها (رابع المستحيلات) ، فلم يجد كلماته ، كما لم يستطع أن يتذكر المستحيلات الثلاثة ، مما زاد الأمر سوءاً

بعينين زائغتين ، راح يحدق في السور الحجري للمبنى ، وشبك الحديد الأسود الفاحم الذي يعلوه

الله ، كم كان جميلا وهو يلتفُّ برقة أخاذة ، تاركاً للمبنى حرية الإندفاع بين الرايات بكامل هيبته نحو السماء التي تحولت فجأة إلى أزرق لم أره من قبل في حياتي

ولأسباب كثيرة ، وجد نفسه يسامح نفسه على رعونته

فقد ثبت بالدليل القاطع أن الجمال لم يزل نقطة ضعفي ، وكنت أظن أنني غدوت منذ مدة طويلة أعمى ؛ كما ثبت أنني لم أزل أحيا للمرة

الأولى أشياء لم أكن عشتها من قبل ، كزرقة السماء فوق المجلس

تجاوزَ البوابةَ الرئيسة ، أوغل في الرحابة الممتدة ، صعد الدرجات الخارجية ، شد قامته ، وقبل أن يلمس البوابة ، شعر بأنها تُشْرع والأضاءة تسطع ، فتسمر مبهوراً أمام جلال المشهد

بحث عن المنصة ، كانت هادئة هناك ، كما لو أنها تنتظره منذ زمن بعيد بحث عن مطلع قوي لخطبته ، مطلع طالما ترنَّم به في حالات وحدته وغَيَّر فيه وبدَّل ، كلما دقق خطابا لواحد من أعضاء المجلس وشعر بركاكته وبطعمه المرِّ تحت أسنانه ، أو رأى وسمع أحداً يلقي خطبة تنبىء كلماتها المرتجفة أن سواه قد كتبها له

إن الأمر الأكثر سوءاً من قيام شخص بوضع الطعام في فمك ، هو قيامه بوضع الكلام فيه !!

اللــه ، راح يهتف محاذرا ألاّ يبدو مختالا

ها أنتَ تتحول آخر الأمر إلى رجل حكيم !!

حين حددت الحكومة موعدا للإنتخابات ، وضع يده على قلبه ، فهو من أنصار ذلك القول المأثور الذي طالما رددته أمه رحمها الله ، إلى أن حفي لسانها

الطبخة إللي بكثروا طباخينها بتنحرق

أو كما قالت

وأحس أن أعداد النواب ، إذا ما أضيفت إلى أعداد الوزراء ، ووكلاء الوزارات ، ومديري المؤسسات العامة ، الكبيرة منها والصغيرة ، باختصار

ستخلط الحابلَ بالنابل

منذ مدة طويلة قال

وهذا ما حدث :

إلاّ أن الحماس العام للإنتخابات ، جعله يتراجع عن مخاوفه قليلاً ولأنه ، بتواضع شديد لم يعتبر نفسه في أي يوم من الأيام مركزاً للكون ، فقد قال

ما دام هذا العدد الكبير من الناس فرحين ، فلماذا لا أفرح معهم

بعد أن أدرك أن الحكومة تريد لهذا الشعب أن يفرح ، قبل أن يقول قائل

أما آن لهذا الشعب أن يفرح

***

الشيء الوحيد الذي لم يستطع القيام به ، هو استخراج بطاقة إنتخابية ، ومن ثم وضع صوته في صندوق

فطالما أحسست أن ليس هناك صندوق أضيق من الصندوق الذي يسكنه صوتي

وبدل أن ينشغل في مسألة قد تؤرق ضميره فيما بعد

ولا شيء لدي أفخر به أكثر من هذا الضمير

راح يرسم الخطط الكفيلة بإسعاد ممثلي الشعب ، بعد أن جار الزمان على ممثلي التلفزيون ، وسُدَّت في وجوههم قنوات الأرض وقنوات الفضاء ، منذ حرب الخليج الثانية

أحمد الله أنني غيَّرتُ مهنتي في الوقت المناسب ، وإلاّ لكنت الآن أعاني مما يعانون ، وأشرب كأس البطالة المر معهم كما يشربون ، وما كان سينقذني من ذلك شيء ، حتى لو تركني كاتب السيناريو والمخرج أعيش لكي أشهد بروحي نهاية المسلسل

لن نطيل

لقد سارت الأحداث كما لا تشتهي السفن

لم يصرح بذلك علانية ، فليس من المعقول أن يعتلي الواحد منا جبال عمان . .

وهي كثيرة والحمد لله
لكي يصرخ بملء صوته
أترون ، لقد احترقت الطبخة
وهكذا ، بدل أن يتحول إلى مجرد إنسان شامت وسلبي ، يمكن أن يقول في موقف كهذا
دعهم يتعلمون من تجاربهم
راح يحاول تحسين صورة الوضع القائم ، من خلال خطط مدروسة ترضي الجميع الحكومة والشعب وممثليه
أعترف الآن بأن الحكومة ـ ولا أشكُّ أن ثمة تخاطراً بيني وبينها ـ قد التقطتْ بعض أمواج تفكيري ، فعملت بها . لكن النتيجة ـ للأسف ـ كانت معاكسة ، على مستوى الشعب وعلى مستوى ممثليه أيضاً

إذا ما أراد تلخيص بعض أفكاره ، التي يعترف بأنها تطورت تدريجيا ،
فسيقول
لقد اختار الشعب ممثليه عن طيب خاطر ، أليس كذلك ؟ وهكذا حوّلهم إلى فئة مختارة
فكرته كانت بسيطة
ولكن لا ينقصها العمق لتبدأ الحكومة بتحسين الأمور ـ التي يقال انها غير مُسِرَّة ـ من خلال تحسين أحوال النواب رفع رواتبهم ، السماح لهم باقتناء سيارات جديدة فخمة تليق بهم وبالبشر الذين صوّتوا لهم تمهيداً لتحسين أوضاع الشعب كله لكن الناس لم تلتقط الفكرة فبدأوا ، واسمحوا لي أن أقول (بالنَّقِّ) ، مما أحرج الحكومة
إستنتاج كهذا ، لا يقوله جزافاً ، فقد دقق الكثير من أخبار المجلس كما أن بعض أحاديث الوزراء والنواب والقادة السياسيين ـ المعارضين وغير

المعارضين ، كان رذاذه يصل اليه في الطابق السفلي بطريقة أو بأخرى
وإذا كان لزميله من خصال حميدة

وليس ثمة إنسان إلا وفيه خصلة واحدة من هذا النوع ، على الأقل

فإن خصلة زميله

انه لم يكن يبخل عليَّ ببعض الأسرار الصغيرة

صحيح أن تلك الأسرار ، لم تكن تشكل جديداً لأمه ، منذ أن بدأ بنقلها إليها بصوت مهموس ، فقد كانت تقول له

ـ هوَّ في حدا ما بعرف هالحكي ؟!!! وتضيف لكن ما انت عارف ، بدنا إنعيش

لكنه ظلَّ يحفظ الجميل لزميله في هذا المجال ، لا لشيء ، إلاّ لأنه تكبَّد عناء قول هذه الأسرار الشائعة بنفسه

بعد زمن أدرك أن

رضى الناس غاية لا تُدرك فعلاً

معذباً نفسه راح يتساءل

لماذا لايحب هذا الشعب أن تنزل رحمة الله عليه أو على غيره ؟ رغم أن الحكومة بتحسينها لأوضاع تلك الفئة من أبناء الشعب ، إنما تقوم بعمل ذي دلالات كثيرة ؛ أولها لا يعقل أن يتمرمط ممثلو الشعب على خطوط السرفيس في ذهابهم وإيابهم من وإلى مجلسهم وثانيها لايعقل أن يصل نائب إلى موعد الجلسة والمياه تقطر من ثيابه ، في حين يأتي نائب آخر إلى موعد الجلسة ذاتها ، وكأن الشمس كانت مشرقة له وحده ، أو لمن هم مثله ، في الخارج وثالثها ـ وعلى الرغم من أنني أكره (الرمزية) ـ إلاّ ان المساواة بين النواب هي خطوة أولى للمساواة التي يقال انها غير متحققة بين أفراد الشعب ، شمال عمّان وجنوبها شرقها وغربها وما ينطبق عليها ، ينطبق على الوطن بأكمله .

باختصار ، الطريق المسدود التي وجدت الحكومة نفسها فيه
وجدت نفسي فيه أيضاً
لذلك ، بدأ بالتـراجع قليـلاً قليـلاً عن أفكاره التي لـم يبح بهـا ، أو التي
والحمد لله ، لم تلتقطها الحكومة
خاصة ، وأن النواب أنفسهم ، أو بعضهم على الأقل
لم يُقَدِّروا النعمة ، فواصلوا احتجاجاتهم كما لو أنهم لم يعرفوا بعد أنهم يعيشون زمن الديمقراطية
لقد أعدَّ خطة خمسية ، كان يظن أن تطبيقها سيحدث ثورة في عالم السياسة الدولية
أقولها بلا غرور
فبعد أن راقب الأمور عن كثب ، وجد أن حل كثير من المسائل التي تبدو عادة حساسة ، بل وعويصة ، أمرٌ هين ، يرضي الشعب ويرضي ممثليه ويريح رأس الحكومة
وكان أول شيء لاحظه
ذلك الإقبال من قبل المخرجين العالميين في السنوات الأخيرة ، على تصوير بعض مشاهد أفلامهم في منطقة البتراء ومنطقة وادي رم وهذه فرصة تحسدنا عليها بلدان كثيرة ، وفي حالة استغلالها ، يمكننا أن نحقق العجب العجاب على المستوى الداخلي وعلى المستوى الخارجي
ولأن الشعب ومجلسه كانا شغله الشاغل ، فقد ركز على المستوى الداخلي لأسباب كثيرة ، من بينها
تأتي ميشيل بيفيفر ـ مثلاً ـ لتصوير فيلم هنا ، وهذا شيء عظيم ، يتطلب طرح طابع تذكاري على الأقل ؛ ولكن ، بدل أن تأتي وتذهب تاركة خلفها الحسرة في قلوب الناس ، لأنهم لم يستطيعوا رؤيتها والتمتع بجمالها ، ينظِّم لقاءً لها مع ممثلي الشعب وبعض ممثلينا الذين جار عليهم

الزمن ، ولكي يظل الحديث موضوعياً وخالياً من المآرب الخاصة ، سأستثني نفسي من الدعوة ، رغم أن أحد المسلسلات لم ينهض على كتفي فقط ، بل على دمي ما الذي يعنيه هذا اللقاء ؟ يعني أن الناس كلهم سيشعرون انهم قابلوها شخصياً من خلال لقاء ممثل منطقتهم الانتخابية ومصافحته لها أما إذا تغيَّبَ ، فهذه مشكلته ، وسيكون للناس حسابهم الخاص معه في الانتخابات التالية

وما ينطبق على ميشيل بيفيفر ، ينطبق على نقائضها أيضاً

لقد قرأت وسمعت كلاماً حول قيام الحكومة بمنع شعراء وصحفيين عرب ومغنين مشاكسين من دخول البلد ؛ ولا أريد أن أقول معها حق أو ليس معها ، فرأيي معروف في هذا المجال ؛ ولكن فكرتي البسيطة تقول دعهم يأتون ويحلون ضيوفاً علينا ، ثم لنحاورهم بالحسنى كيف ؟ سنقول لهم أولاً أنتم تعرفون ، أن اللقاءات مع أبناء الشعب ، مهما كانت موسعة ، سيكون فيها إنصاف لبعض الناس وظلم لآخرين منهم وبالتالي ، ستكون لقاءات غير ديمقراطية في حقبة ديمقراطية وسيسألون والحل ؟ عندها - واسمحوا لي أن أستخدم هذه الكلمة لمرة واحدة لا غير - (سنضرب) ضربتنا ، ونقول إن فكرة العدل تدفعنا إلى تنظيم لقاء لكم مع ممثلي الشعب ، فبهذه الطريقة سيحس كل إنسان في بلدنا انه حضر اللقاء ، أو الحفلة الغنائية ، أو الأمسية الشعرية ولا أظنهم سيتطاولون على الفئة المختارة التي اصطفاها الشعب من بين صفوفه

هل أطلت ؟

!!

طارت الكلمات من رأسه ، حين وجد نفسه وحيداً في القاعة ، ما الذي يمكن أن يقوله الآن

وليس من أحد سوى الكراسي الفارغة هو الذي تمنى أن تراود الحكومة فكرة اختيار مواطن من بين جموع أبناء شعبها - ولو بالقرعة - بعد

كل دورة للمجلس ، ليقول رأي الشعب في مجلسه ، كما يقول النائب رأيه في الحكومة

بحزن ، استدار عائداً ، حيث الأزرق ، الذي غدا أقل زرقة ، وأقل بهاء مما رآه قبل دخوله ، وفي أعماقه صرخة تتململ ، غير قادرة على إعلان وجودها أين أنتم يا ممثلي الشعب ؟!!

وهمس لنفسه كأنني الممثل الوحيد

خلفه ، كانت هناك مئذنتا مسجد الملك عبدالله ، وأمامه وزارة الأشغال ، وفي البعيد سفريات (جت) ومكتبة الحجاوي ومبنى المستشفى الإسلامي ، وفي داخله ألم شديد

يبدو أن ليس للحكومة من أحد يفهمها سواي

كان ذلك فصل

الوسائل الكفيلة بإسعاد ممثلي الشعب ، بعد أن جار الزمان على ممثلي التلفزيون

ويليه فصل

كيف تزوجت أخته وعنَّست البلايموث وأثبتت السينما أنها الحل

قبل أن تنهي عدتها بأيام قليلة ، جاء لأختي من يخطبها

كانت أخبار امتلاكها لسيارة (البلايموث) قد انتشرت بما فيه الكفاية ، ليتقاطر العرسان الذين يرون في سيارة مثلها حلم حياتهم وما كان لذلك أن يتم ، لولا الشهامة التي أبدتها أم أمريكي رحمه الله ، حين قالت ما راح أسمح لحدا يقسّم تركة المرحوم ، ولا حتى أنا ، هذي السيارة لمرته وإبنه ، واللي بقول غير هيك يوريني عرض إكتافه

جملة قاطعة كهذه ، كانت كفيلة بأن تحسم الموقف تماما ، وما كنت أعتقد أن أم أمريكي على درجة من القوة تؤهلها لاتخاذ موقف حازم كهذا

الآن ، إذا ما عدت قليلاً للوراء !! فسأقول إن العلاقة القوية التي ربطت الأرملتين ، أعني والدتي ، رحمها الله ، وأم أمريكي ، أطال الله عمرها ، ربما تكون وراء ذلك الزهد الكبير ، خاصة وأن السيارة ، بجنطات الألمنيوم اللامعة التي لم يفرح بها بما فيه الكفاية قبل موته ، كانت جميلة ، بحيث يمكن أن تغوي حتى أولئك الذين لا يعتبرون السيارات

الفارهة جزءاً من أحلام حياتهم الكبرى

أعترف ، أننا كنا خائفين ، المرحومة وأنا ، من أن تُسَدَّ أبواب القسمة والنصيب في وجهها ، هي التي ابتليت بالتَّرَمُّلِ قبل أن تبلغ العشرين ولعل أفضل ما حدث ، أننا لم نجد أنفسنا مضطرين لتزويجها من أول عريس يدق باب البيت

هكذا بدأنا نختار على أقل من مهلنا ، بعد أن لحتُ في عيني أول طالب قُرْبٍ تلك النظرة الساهمة التي ألقاها على البلايموث الرابضة في فناء الدار

لن أطيل

إتفقت مع أمي أن نزوجها لأول شخص يعبر العتبة ويمر بالبلايموث وكأنها ليست هناك ولكي يكون الإختبار أشدّ وأقسى ، واصلتُ العمل بجهد أكبر ، تلميعا وعناية ، صبحاً ومساء وفي الحالات التي كان أحدهم يحدد موعداً للقاء بنا ، ظهراً أو عصراً ، كنت أقوم بتنظيفها قبل وصوله بقليل أيضاً

الشيء المريب الذي لاحظته بعد رحيل أمريكي كان ، ان أختي لم تعد تذهب إلى بيت أمه إلاّ لتُحْضِر بعض ملابس الولد وغياراته الداخلية ، وبعض ملابسها ؛ وحين تغسل ثيابها وثيابه ، لا تعيدها ، بل تحتفظ بها في البيت عندنا وتدريجياً ، غدت كل أشيائها في خزائننا وأدراجنا وتحت أسرَّتنا وفي زوايا حوشنا ، فلم تعد تغادر عتبتنا صاعدة الزقاقَ الضيّق إلى عتبة حماتها إلاّ زائرةً

كان يمكن أن أكون سيء الظن ، وأنا أعيد ترتيب الأحداث في أواخر كل ليلة ، بعد أن تَبادر لي ، ان هنالك صفقة غير معلنة ، ولها مغزاها العميق من يحتفظ بالسيارة ، يتكفّل بالأرملة الصغيرة وابنها

إلاّ أنني قتلت سوء الظنّ ذاك في مهده

لماذا ؟ لأننا ، للحق ، كنا أفضل حالاً منهم ، حتى لو لم تؤل السيارة

آخر الأمر لنا ثم أنه لا يعقل أن يأتي الناس لخطبتها من أم زوجها الراحل ـ هذا إذا ما جاءها خُطّابٌ ، في زمن تُعنِّس فيه أحلى الصبايا ـ لن أطيل

لم نظن لحظة أن البيت سيتحول إلى عش دبابير ، لأن الأيام الأولى كانت تمر ثقيلة ، كأنها شهور ، ومرَّ الشهرُ الأول كما لو انه سنة والثاني ، كما لو انه سنتين ، وحين أوشك السابع على الإنتهاء ، وبدأت أختي بعبور بر العام الأول بعد العشرين ، كنا بدأنا التفكير ببيع السيارة بدل أن نتركها حبيسة الحوش ؛ وحسناً أننا لم نفعل ؛ لأنها تحولت بقدرة قادر إلى حبل نجاة لأختي ووحيدها

خبرتي القديمة في ملاحقة الفتيات ، ومعرفتي الدقيقة لمغزى كل نظرة يمكن أن تطلقها عين ، حولّتْني إلى خبير من نوع خاص ، وهكذا استطعت بمساعدة أمي وبتفويض من أختي أن أفعل كل ما أستطيع للوصول إلى نهاية سعيدة لهذه الحكاية الحزينة

جاء مدرسون ، وعاطلون عن العمل موعودون بوظائف كبيرة عن قريب! وجاء صاحب سوبر ماركت ، اكتشفت أمي ـ التي كانت تتابع أدق تفاصيل الأحاديث أثناء انحنائها على حوض البقدونس ـ انه صاحب دكان لا غير ، وجاء مهندس ميكانيكي ، لم يكن أكثر من خريج معهد البوليتكنيك الذي يفتح أبوابه للطلبة الذين ينهون الثالث الإعداي بنجاح عسير ؛ توقف أمام السيارة وتأملها ، دار حولها مرات ومرات ، بل وطلب أن نفتح له بابها ليراها من الداخل ، وحين قلنا له

بعد أن تشرب القهوة

قال شاي إذا سمحتم !

وسألني إن كنا نُشَغِّل السيارة بين فترة وأخرى ، وحين قلت له :

لا ثار في وجهي كما لو انها لأبيه

ـ سيارة كهذه لا يُلقى بها هكذا

لقد جعلني أحس بأنني مقَصِّرٌ إلى درجة لا تغتفر ؛ لذا دفعت التهمة فوراً

هل ترى ذرَّةً واحدةً من الغبار عليها . لولاي ، لأكلها الصدأ

قصيراً كان ومفتول العضلات ، ومستديرا ككرة

ـ شهر آخر ، وتتحوَّل المحروسة إلى كتلة من الحديد لا غير

فكَّرتُ في المسألة ، وقلت معه حق ، فكَّرْنا بأختي إلى حدٍّ أننا نسينا التفكير بالسيارة كما يجب

فتحتُ له باب السيارة ، وأبقيت المفتاح في يدي

دخلها

ـ هل قَلَبَ العداد ؟ سألني

ماذا تعني ؟ سألته

ـ يُعطي الحَلَقَ لمن ليس له آذان !! سبحانه هل يعقل أن تكون جديدة إلى هذا الحد ؟

وماذا كنت تعتقد ؟!

ـ سبعة وثلاثون ألف كيلو متر فقط ، لم تزل في مرحلة التليين تقريباً

مرحلة ماذا ؟

ـ التليين ؟

لم أفهم الكلمة ، وفهمت مساوئ التخصص ـ أقصد تكريس العمر بشكل شبه كامل لملاحقة البنات ـ ولكي لا أُحرج نفسي ، قلت

أظنها كذلك

ـ تظنها كذلك !! هذا أكيد

فلم أخالفه

وطلب مني أن أناوله المفتاح ، ليرى إن كانت ستشتغل أم لا

ترددت

فأعاد الطلب ثانية

ـ المفتاح !

عندها ناولته إياه

إلى أين يمكن أن يذهب في حوش ضيق مغلق ؟ !

أدار المفتاح

لم يصدر أيُّ صوت عن المحرك . فحمدتُ الله ، لأنني تذكَّرت فجأة مشاهد من أفلام تتجاوز فيها السيارات البوابات المغلقة بجنون في حالات الهرب العنيفة

كانت أشبه بجثة جميلة هادئة ، لا حس ولا نس

صعَّدَ نظرة غاضبة إلي

ـ أرأيت ؟ !

رأيت ماذا ؟

ـ إنها لا تشتغل

وسمعت تكةً خفيفة ، فهمت منها انه فتح غطاء المحرك

ترجَّل ، تجاوزني ، وذهب إلى المقدمة رفع الغطاء ، وأطلق زفرة عميقة

ـ الحمد لله ، جئت في الوقت المناسب

والتفت إلي

ـ سأغيب قليلاً وأعود

وخرج وهو يطلق همهمات غامضة ، مما مكننا أنا والمرحومة وأختي من البوح بملاحظاتنا حوله

قالت أمي مدحبر مثل حبة الحمص

ففرحت أن إحساسنا به كان متقاربا ، مع فارق انني أعطيته أكبر من حجمه حين شبهته بالكرة

والتزمت أختي الصمت

فأدركت أنه من علامات الرضى

حين عاد كان يحمل بطارية بين يديه ، وضعها على الأرض ، أخرج طقم مفاتيح من جيبه الخلفي ، وبحركة ماهرة ، إنتزع البطارية الأصلية من مكانها ووضع الجديدة

طلب مني قطعة قماش يمسح بها يديه الملوثتين وهذا شيء أكبرته فيه ؛ وقد كنت أفكر في الطريقة التي يمكن أن أدعوه فيها إلى تنظيف يديه دون أن أُحرجه ، قبل عودته للجلوس في السيارة

بحثتُ عن قطعة كنت أستخدمها في التلميع ، ناولته إياها

- الآن سنسمع بآذاننا تغريد العروس

انقلبت فرحتي غمّاً ، وقلت

إذا كانت السيارة قد تحوّلتْ إلى عروس ، فماذا تبقّى لأختي ؟

لكنني كتمت غيظي

أشرت إليه أن يوقف المحرك ، فقال

- لا . دعنا نستمتع بسماع صوتها

وجاءت أمي بالقهوة ، فأدركت أنها لا تريده أن يشرب شاينا ، أو يرى وحيدتنا وضعتها على الأرض وابتعدت

- غداً سآتي بالوالد والوالدة ، ولكن ، حتى نكون على نور ، ما هو المَهْر المطلوب ؟ سألني

كنت أهم بأن أقول له لا عليك ، دع الأمور للغد خاصة بعد أن بذل كل ذلك الجهد كي يُشَغِّل السيارة إلاّ أن صوت أمي جاء من فوق حوض البقدونس قاطعاً وحاداً كما لم أسمعه في أي يوم من الأيام

- عشرة آلاف !

- عشرة ماذا ؟!!

- آلاف أعادت

- دينار ؟!!

- آه ، دينار

ـ ولكن ، هذا كثير ، فأنت تعرفين يا حجة
ـ آه بعرف
ـ البنت كانت
ـ كانت إيش ؟
ـ متزوجة ، ولديها طفل
ـ بعرف لأنها بنتي !
ـ وغير هيك ؟
ـ عشرة آلاف مقدم ، وخمسة متأخِر
ـ لكن هذا كثير

راح يتأمل السيارة بحزن شديد فحمدت الله أن نصف هذا الكلام لم توجهه لي أمي مرة ، وإلاّ لكنت متُّ ، أو ذبت أو تبخرت

ـ هذا اللي عنّا قالت له
ـ صحيح أن السيارة لها يا حجة ، لكن ، هذا كثير
ـ إلها ولإبنها

فجأة سرح ، فسمعتُ بعض أطراف أرقام

قلت ها هو يحسب

وهذا ما كان

ـ السيارة لا تستحق أكثر من ثلاثة آلاف
ـ لأ بتسوى أكثر قالت أمي من فوق حوض البقدونس
ـ شو يعني ؟
ـ يعني إشرب قهوتك والله يسهِّلْ عليك ، ما عنّا بنات بدنا نجوزهن

عندها هبَّ غاضباً توجه إلى السيارة ، أطفَأ المحرك ، نزل منها وراحت أصابعه تبحث داخل جيبه الخلفي ، أخرج عدة الشُّغل ، فكَّ البطارية التي أتى بها ، وحملها بين يديه

ـ لا ، هيك ما بتوفي

وخرج

الآن ، حين أتأمل ما حدث ، أقول أي امرأة قوية كانت أمي ذلك المساء

الآن ، أَحمدُ الله أنها كانت هناك ، وإلاّ ، وأمام إحساسي العميق بما قام به الرجل كي تشتغل السيارة ، لكنت مددت يدي إليه مصافحاً مبروك على بركة الله

بعدها أدركت أن الشعوب لا تُطْلِقُ أمثالَها جزافاً ، وقد كانت على حق حين قالت إللي أكبر منك بيوم أَفْهَم منك بسنة

***

وأخيراً جاء

قبل وصوله ، وصل أبوه وأمه وعدد من أقاربه ، رأوا العروس وابنها وغادروا على أن يعودوا مساء

قلت لن يعودوا

وقالت أمي قلبي حاسس إنه ها الناس طيبين وأوادم

فسكتُّ ، إذ ليس من المعقول أن أكذب قلب أمي

وقالت أختي ـ وكانت المرة الأولى التي أسمع فيها صوتها منذ سبعة أشهر عجاف ـ خلاص إزهقت ، نفسي نخلص من ها السيرة وشو ما صار يصير

وقد كنا كلنا على وشك إعلان يأسنا من هذه الدنيا وناسها ، حين بدأنا نفكر بأهون الشرور ، بعد أن بتنا على يقين من أن أحداً لا يمكن أن يقترن بامرأة لا تكون البلايموث في حقائب عرسها

وأخيراً جاء

خلف أمه العجوز ووالده كان يقف ، حين فتحنا الباب عبرا البوابة ، وكان يتبعهما لحظات ، ثم ما لبث أن تجاوز الجميع ، هاشاً باشاً ، كأنه أمضى ثلاثة أرباع عمره بيننا تلقَّف الصغير الذي كان اهتدى أيامها

لخطواته الأولى ، رفعه إلى أعلى ، تأمله بسعادة
ـ أهذا هو المحروس ؟
ـ آه
قلناها دهشين
ـ ما شاء الله ، ما شاء الله
لم يتركوا صغيرة أو كبيرة إلا وقالوها لنا عندما أتونا ضحى
ـ تزوج ، لم يرزقه الله أولاداً ، انفصل عن زوجته الأمريكية منذ عامين ، معه (الغرين كارد) ، وهذه هي السنة الثانية التي يأتي فيها للبحث عن بنت الحلال ، أوضاعه جيدة ولديه مشروع صغير ولكنه ناجح في لوس أنجلوس
قلت دهشاً قرب هوليوود !!
سألوني قرب ماذا ؟
قلت هوليوود !!
فغيروا الموضوع
ولم أتخيل أنني سأكون محظوظاً إلى درجة أن أختي إبنة وادي الرم ، ستكون جارة فاي دونواي وراكيل والش ، وجيسكا لانغ التي تنبأت لها بمستقبل باهر بعد أن شاهدتها في فيلم كينغ كونغ ، بل وقلت ها هي نجمتي المفضلة للسنوات العشر المقبلة لكنها فاجأتني حين أثبتت أنها قادرة على أن تظل مفضلة لدي عشرين سنة كاملة ، قبل أن أبكي علي شبابها في فيلمها الأخير
لن أطيل
لهذه الأسباب وغيرها ، قلت ضحىً بعد خروجهم لن يعودوا
صحيح انني من أصدقاء الأمل المخضرمين ، إلا أن ما تحقق لي ـ والحمد لله على كل شيء ـ ظل في خانة الأمنيات الصغيرة
فوجئت به وسيماً ، بصورة تتيح له أن يكون واحداً من نجوم السينما ،

وفوجئت بالولد يتضاحك بين يديه كما لم يتضاحك معي يوماً وأسباب ذلك معروفة ، وأولها ذلك العتاب الدائم له بسبب مطاردته الجسورة لطيريَّ الفري وذُريتهما التي ملأت بدورها البيت علينا فراخاً ؛ وما كنا نظنُّ أن طائرين يمكن أن ينجبا كل هذا العدد من الفراخ

ولكن

في أوج فرحتنا به وفرحته بالولد ، التفتَ إلى السيارة وقال

ـ جميلة جميلة فعلاً

فأوشك مشروع الزواج أن يتحطم ، وقلت في نفسي

واحد آخر

واتجهت أمي إلى حوض البقدونس ، بعد أن اربدَّ وجهها

لكنه لم يكن قد لاحظ شيئاً علينا بسبب انشغاله بمناغاة ابن أختي

ثم سألني سيارتك ؟

فلم أعرف بماذا أجيب

هززت رأسي ، وأنا لا أدري إن كان معنى هزة الرأس تلك ، نعم أم لا

ـ أتعرف ، عندي أختها ، لكن موديلها أحدث

قلت هل يريد زوجة له أم أختا لسيارته !!

وعاد إلى مناغاة الولد

بعد قليل قال سيارة مثلها ، تحتاج إلى عناية أكبر

فخشيت أن تكون أختي قد سمعت ما قاله ، بحيث تعتبرني أسباب عدم زواجها أَولَم يكفني تقريع (المهندس) لي على عدم تشغيلها ، كي يأتي من يغمز في قناة عنايتي الخارجية بها أيضاً

ـ إذا أردت أن تُعمِّر طويلا لديك ، فعليك أن تحميها من أشعة الشمس ، لأنها ليست أقل ضررا من الرطوبة ، وربما أكثر

عندها أدركتُ ، ومعي أمي ، انه يتحدث عن السيارة باعتبارها لي

ـ غطاء جيد يمكن أن يحل المشكلة تماما ، إذا كنت لا تريد أن تسقف

الكراج

عادت أمي من حوض البقدونس   نظرت إليه بمحبة نادرة ، وقالت

ـ الله يوفقك يا ابني

فوجيء هو الآخر   جاء دوره لكي يفاجأ مثلنا ، بل وارتبك

ـ شكراً يا حجة !

وغابت في الغرفة ، وحين عادت ، كانت أختي خلفها تكاد تقطر سعادة   ناولتهم القهوة ، وانحنت لتتناول الطفل من بين يدي العريس ، إلاّ أنه تشبث برقبته   فضحكنا في عبنا ، وأدركنا أن البنت صبرت ونالت

لن أطيل

رحنا في أحاديث طويلة عن السينما وهوليوود ، حتى أنني فوجئت بأختي تجر كرسياً من كراسي القش وتنهمك في سماعنا بانفعال   كانت من المعجبات بصوفيا لورين ، رغم أنها لم تشاهد لها سوى فيلم واحد بثه التلفزيون ذات يوم ، وحين عرضت سينما الخيّام فيلمها الكبير (عباد الشمس) مع الممثل المرحوم مارسيليو ماستورياني ، فكرت أن آخذها معي لتحضره ، إلا أنني فكّرت بردة فعل أبي ، وكان لم يزل ـ رحمه الله ـ بعد على قيد الحياة   ثم أنني لم أكن متأكدا مما إذا كان الفيلم يخلو من القبلات ، خاصة وأنني كنت أعتقد ، وما زلت ، أن فم صوفيا كان كبيراً ، مما يجعل القبلات في أي فيلم تقوم بدور البطولة فيه ، طـويلـــة

حدثنا كيف أنه رأى يول براينر أكثر من مرة ، وكيف دخل إلى أحد محلات السوبر ماركت الهائلة وفوجئ بنفسه وجها لوجه مع اليزابث تايلور ، وأفاض في حديثه عن العرض الأول لفيلم (حمى ليلة السبت) الذي حضره بطل الفيلم نفسه ـ جون ترافولتا   ولم يخف مشاعر الإحباط وهو يتحدث عن فيلمه الثاني (غريس)

باختصار ، كنا عائلة نموذجية ، أخذنا الحديث من تلابيب قلوبنا إلى

درجة أننا نسينا السبب الذي قدموا من أجله ، وحين التفتُّ لأمي وجدتها غارقة في الذي نحن فيه حديث طويل له أول وليس له آخر

حتى أننا حين اكتشفنا أن علينا الحديث في مسائل المَهْر آخر السهرة ، كنا جميعاً محرجين

تأملنا وجه الطفل الغافي على يديه ، تأملنا أنفسنا وحين تنبه أبوه بأن الوقت سرقنا ، قال هناك شيء واحد لم نتحدث فيه

فهمتُ قصده ، وفهمته قبلي أمي ، فقالت البنت بنتكو يا حج

فالتفتَ إلى ابنه وقال ونحن لن نُقَصِّرَ بعون الله

وهكذا ، بدأ فصل آخر من فصول حياتها ، وحياة وحيدها ، هناك جوار مدينة السينما وبدأ فصل آخر من حياتي

انتهيت

كان ذلك فصل

كيف تزوجت أخته وعنّست البلايموث وأثبتت السينما أنها الحل

ويليه فصل

العودة إلى تفاصيل ما جرى للوالدة والبداية التي توّجت إبن أخته قتيلا يملك المستقبل

ثلاثة أشهر كاملة ، تقلَّبَ في نار التجربة   الآن يستطيع أن يقول
ولم تكن المعركة سهلة

وحده في الحوش ، أمام ذلك السحر الفياض لسيارة البلايموث القابعة في هدوئها الواثق بسطوته

وكنت أَعْزَلَ ، أعزل تماماً

فبعد زواج أخته وخلو البيت من شقاوات وحيدها

الله كم أشتقت لتلك الشقاوات ـ وما كانت طيور الفري أقل حزنا مني ـ ما أن غادر ، ما أن وضع قدمه الصغيرة خارج العتبة ، فما عدت أراه بعد تلك الليلة اليتيمة التي أمضاها في حضن أمي ، الليلة الأخيرة ليلة الزواج

على خجل ، فكروا بمكان يمضي الصغير ليلته فيه ، لم يجدوا مكانا أفضل من بيت جدته   فما كان مناسباً أن يبدأ الطفل بالصراخ ، مطالبا

بوجود أمه إلى جانبه في ليلة عرسها أمر كهذا ، كانوا يدركون ،كاف لإفساد العرس ، العرس الذي صبروا طويلا حتى نالوه ، كما لو انه أمنية عمرهم الوحيدة

وأخيرا ، أنا الذي أبديتُ صلابةً فائقةً في كل الأختبارات التي حاكتها لي هذه الحياة ، وجدتُ إرثَ صلابتي على وشك التحطُّم على صخرة جمال البلايموث

وما كان يمكن لذلك إلا أن يحدث ، فالعشْرَةُ الطويلة ، وذلك الحدب والحنو البالغ عليها

تحوَّل مع الأيام إلى جزء أصيل من نفسي

وقد ضاعف من شدة الإختبار ، عوامل كثيرة في ذلك الزمان

البطالة التي الزمتني المكوث في البيت باستمرار ، وحاجة أمي لي بعد أن أقفر الحوش فجأة ، ولم يعد لها من شيء فيه سوى حوض البقدونس ، وقراري الذي لا رجعة عنه ، وأعني ، ذلك المتعلق بعدم العودة للشوارع ثانية لملاحقة الفتيات ، وجهلي بالأخطار التي يمكن أن تتسبب بها السيارات ، حيث كان موت أمريكي أيامها أقرب إلى مسألة القضاء والقدر ، منه ، إلى ظاهرة الوباء التي استفحلت بفعل تزايد أعداد السيارات في شوارعنا ، ولعل السبب الأقوى ، أنني لم أكن قد رأيت بأم عيني بعد ، النهاية الحزينة للفتاة الجميلة جداً جداً ، وفَرْدَة حذائها التي طارت في الهواء واستقرت إلى جانبي ، كما لو انها تريد أن تقول لي شيئاً لم تجرؤ صاحبتها على البوح به

لكن بعض العوامل كانت عوناً له ، وقد عَملَتْ على كبح جماح هيامه بالبلايموث ، إلى حد بعيد

أولها ـ ذلك الحس العميق بالعدل ، فبعد زواج أختي بالطريقة الجميلة التي تمَّ بها ، عادت البلايموث لتصبح مُلكاً للعائلتين ثانية خاصة وأن باب الفَرج قد أُشرع بعد سبعة أشهر إلا قليلا . أعترف أنهم ما

كان يمكن أن يطالبوا بحصتهم في السيارة أبداً ، إلا أننا لم نكن من أولئك الذين تُسوِّل لهم أنفسهم أكلَ أموال الناس بالباطل وثانيها ـ تلك التلمحات شبه الصريحة التي كانت تسرِّبها أمي في فترات الدعاية التي تتخلل المسلسل العربي ، وكلها متعلقة بأهمية الزواج ، واستحالة عيش الآباء والأمهات إلى الأبد لرعاية فلذات أكبادهم والسهر عليهم وثالثها ـ ان حصولي على رخصة القيادة ، كان يقتضي أخذ دروس تحتاج إلى وجود فائض مالي ليس في جيوبنا ؛ وما كان بإمكاني أن أُغامر بمدخراتي التي حافظت عليها وقاومت من أجلها صنوف الإغراءات كلها منذ أن أمسكت بيدي مصروف الجيب لأول مرة أعترف الآن ، أنني ضعفت كثيرا أمام السينما ، إلا أن ذلك الضعف أصبح سرَّ قوتي فيما بعد ورابعها ـ ان السيارة كالبشر تماما ، خروجها من البيت إلى الشارع لا يمكن أن يتم بلا نفقات ؛ لذلك كنا ، المرحومة وأنا ، لا نغادر البيت إلا إذا دُفعنا دفعاً وخامسها ـ ان نصف المبلغ الذي يمكن أن نحصل عليه بعد بيعها سيكون كافيا لتنشيط الدورة الدموية لاقتصاديات بيتنا المدمَّرة ، في ظل عدم وجود معونات خارجية ستبدأ وحيدتنا بارسالها من عاصمة السينما بعد أن تستقر تماما هناك وسادسها ـ

كل دراهم الوقاية تلك ، لم تنجح في النيل من سحر البلايموث فعززها بمحاولاته الدؤوبة لتقصي أخبار حوادث السير ، والمآسي التي تخلّفها وراءها وزيادة في الإحتياط ، قرر ألا يلمس المفتاح ، بل وطلب من الوالدة أن تحتفظ به في مكان لا يعرفه سواها

وهكذا ، بدأتُ باستعادة توازني كإنسان قادر على مواجهة رغبات النفس الأمَّارة بالسوء

مما مكّنه من تعميم خبر الرغبة في بيعها وقد كانت

بشهادة أهل الخير ، تستحق الثمن الذي طلبناه

إلاّ أن ذلك لم يمنع بعضهم من التقليل من شأنها ، بل والطعن في

ماضيها

إما بسبب عدم استخدامنا لها لفترة طويلة ، وإما بإعلان التشاؤم منها بإعتبارها مسؤولة عن موت رجل في ريعان شبابه ، وهذا فأل نحْس وما كان لسيارة جميلة إلى هذا الحد الصمود ، أمام هجمة كهذه لو لمّ أكن إلى جانبها

وقد كان سعيدا لأن أفكاراً من هذا النوع ، لم تطرق بال زوج أخته ، بإعتبار تلك الأخت أرملة شاب لم يفرح بحياته أو بزوجته أو بولده

ولولا أنني شخص علمي ، اكتسب علميته (هنا) على هذه الأرض لقلت إن سبب علمية زوج أختي أنه عاش (هناك)

فجأة عاد

المهندس الميكانيكي !!

وما أن أُشْرِعَ له الباب حتى قال مبروك !!

الله يبارك فيك !!

ـ سمعت أن البلايموث معروضة للبيع

وحاول أن يسترق النظر عبر فتحة الباب ليراها في الحوش

آ ، معروضة للبيع

ـ لا تتعبوني ، ولا أُتعبكم ، سأدفع ثلاثة آلاف قال المهندس الميكانيكي

ثلاثة آلاف وخمسمائة دينار

قالها بتصميم ، كما لو انه يريد الإنتقام من المهندس

بعد أخذ وردٍّ ، اتفقا على ثلاثة آلاف ومئتي دينار

وقد كنت لاحظت انه غارق في حبها ، بحيث يمكنني أن أطلب ما أريد ، وسيدفع أخيرا ، إلا انني اكتفيت ومعي أمي التي راحت تشير لي ـ من تحت لتحت ـ بثمنها الذي قيل لنا بأنها تستحقه

أربكه خلو الحوش منها ، كما لم يربكه خروج أخته ، ربما ، حتى أن

أيام ملاحقة الفتيات عادت تعن بباله ؛ وارتبكت طيور الفري أكثر من مرتين !!

أولها ، لأنها كانت تستظل بها وقت الظهيرة وثانيها ، لأن من كان يطاردها اختفى أيضا ، ولا أعني هنا سوى وحيد أختي - وحيدنا الذي آمل أن يكون الآن بخير ؛ فإذا كان ما يحدث في عمان بعض ما يحدث في لوس أنجلوس ، فإن المشكلة ستكون كبيرة لا سيما انه بلغ السابعة عشرة من عمره ، ولم يأخذ من خاله ، كما قيل لي إلا موهبة التمثيل ، والضخامة ، ولم يشر أحد فيما إذا كان هناك تشابه على مستوى الصوت أيضا أم لا

لم يعد زوج أخته من هناك أبداً ، حتى عندما مات والداه ، كما لو ان كل ما كان يريده من هذه البلاد قد حصل عليه ، ولا نعني هنا إلا

زواجه من أختي ، وذلك العطاء الكبير الذي منَّ الله به عليه ، أي الولد الجاهز

وقد أفرحه كثيراً ، ذلك الخبر الذي حملته الرسالة الأخيرة التي تسلَّمها قبل أشهر من حدوث ماحدث لعمّان العاصمة ، حيث كتبت له أخته ان وحيدها يفكّر بدخول عالم السينما جدياً

إلا أنني خشيت أن يتورَّطَ في واحد من تلك الأفلام التي تسيء لسكان الفضاء ، وهذه مسألة ما كان باستطاعتي التهاون فيها ، بل ويمكن أن تدفعني لإعلان براءتي منه ، بحيث يغدو خصماً لي من الآن إلى يوم القيامة

ثم كتبت له بعد يومين - على غير عادتها - أنه قد أدى دوراً صغيراً في واحد من الأفلام الكبيرة ، وانها لم تعرف بذلك إلاّ اليوم (أي تاريخ كتابتها للرسالة) ، ذلك أنه أراد مفاجأتها ، كما قال لكنها تعتقد انه لم يدقق بما فيه الكفاية في اختياره دوره - رغم أنها لم تشاهد الفيلم بعد -

لذلك بتّ أعتقد أن على أي ممثل أن يبدأ حياته مدققاً ، قبل أن :

ينتقل إلى مهنة التمثيل

ثم فجأة رنّ جهاز الهاتف في غرفة التدقيق تناول زميله السماعة كالعادة، لأن المكالمات التي تأتي، تأتي له وحده لا لسواه ـ وهذا يحدث منذ أن بدأ العمل في هذه الغرفة، حيث لم يسبق أن طلبه أحد أو طلب أحداً ـ

ـ المكالمة لك !!!

: لي !!!

ـ أجل لك !!

بوجل أمسك السماعة إنها مزحة ثقيلة لا غير

هكذا فكّرت

وكان زميله يراقبه

لم أعرف الصوت القادم من الطرف الآخر؛ مَنْ ؟؟ سألتُ مرتين، حتى لا أتحوّل إلى فريسة سهلة فالصوت صوت امرأة

ـ أنا أختك، أم سعيد، آه، آه أختك، بحكي من هون ؟ لأ، مش من عمان، من لوس أنجلوس، من أميركا، أميركا إللي راح تخرب بيتي، إللي خربته !!!

أحس بخطورة الكلام، الكلام الذي لا يقوله شخص عاقل عبر الأسلاك التي تنتهي غالباً بأجهزة تسجيل

وحّدي الله، إهدي

ـ أهدا، أهدا كيف ؟ كان لازم إتقولّي إنجني، هيك بتكون أخوي، أما إنك إتقولّي إهدي، لا لا لا

وخلال نصف ساعة، كانت قد شرحت له بعويلها، قبل كلامها، أدق تفاصيل الدّوْرِ، بحيث أحسّ ان مشاهدته للفيلم ـ الذي قالت انه سيعرض لا بدّ عندكم ـ مسألة شكلية لن تضيف الكثير إلى دقّة وصفها لكن إحساسه لم يكن صائباً هذه المرّة !!

رحم الله أياما كان فيها مسلسل بأكمله يقوم على دم قتيل واحد ، يسقط في الدقائق العشر الأولى منه أما الآن ، فإن أي فيلم لا ينهض على أقل من دماء خمسة قتلى ، قبل أن تبدأ الأسماء بالظهور على الشاشة ، أي قبل المقدمة ناهيك عمن يسّاقطون في ثناياه رحم الله أياماً كانت فيها بندقية تعود للعهد العثماني قادرة على أن تهزَّ مسار الأحداث من أوله إلى آخره برصاصة واحدة لا غير في حين أن أفلام هذه الأيام لا تقوم إلا على الرشاشات والسيارات المفخخة التي تطير في الهواء رحم الله أياماً

كان الخالق الناطق أنا ، أقصد ، كان يشبهني إلى تلك الدرجة التي يمكن لجمهور الصالة أن يظن أن الممثل الذي أدى ذلك الدور العنيف ، في بداية الفيلم ، هو أنا شخصياً ، ولم يكن فارق العمر كبيراً ، مع تلك التغذية الخاصة التي لا بدٌ انها توافرت له هناك وفعلتْ فعلها ، بحيث بدا أكثر ضخامة مني وأرفع وسامة

وهكذا ، ما أن أُشعلتْ أنوار سينما الكونكورد ، حتى أخفى وجهه وراح يتسلل محاذيا الحائط ، محاذرا ألا يراه واحد أو واحدة وما أن بلغ بهو السينما ، حيث تُعرض صورٌ من مشاهد الأفلام ، حتى لمح فتاة جميلة جداً تلكز صديقتها بكتفها ، طالبة منها أن تنظر إليه

شوفي ، شوفي!!!

ولذا ، وجد نفسه ينعطف يساراً نحو المدخل المؤدي إلى سينما كونكورد ٢ التي تُعْرَضُ فيها مسرحيةُ (مواطن حسب الطلب) ، ثم يصعد الدرجات بخفة ممثل لم يزل في السابعة عشرة من عمره ؛ لكنه حين التفت وراءه ، كانت الفتاتان هناك ، تصعدان الدرجات خلفه وتتهامسان ، مما دفعه لأن يبذل جهداً أكبر وهو يحاول الظهور بمظهر الشاب الواثق من قوته فعلاً

: رغم كل شيء ، ما كنتُ أريد لابن أختي أن يبدو فتيًّا على الشاشة

وهرماً على درجات السينما التي تعرض فيلمه
إلا انهما استطاعتا تجاوزه وسد الطريق عليه
حضرتك إللي (مسَّلت) في الفيلم ؟
كان يريد أن يصحو ، لكنه لم يستطع
هزّ رأسه ، ولم يعرف ـ كعادته ـ إن قال بذلك نعم ، أم لا
كنت بتجنن ، أحلى من البطل ، وأأوى ، بس همٌ غدروك ، لما اتخبولك في (الباركينغ) ، لكنك كنت (فري بريف) ، وما هربت ، وضربتهم ، أبل ما يتجمعوا (أُولْ أُفْ ذِمْ) عليك ، (برافو) إنتَ أردني آه ؟ من هون ، عجيب ، كيف الصحافة ما كتبت عنك ، واضح إنك ما بتحب (اللاّيتس) ، وإلا لكنا سمعنا فيك قبل ما انشوف الفيلم ، بعدين هدولا بتاعين السينما لازم يؤلوا للناس إنه في (ممسل)أردني بالفيلم ، لأنه هيك راح يكسبوا (موني) أكتر بتحب نوصلك لمحل ، إترك سيارتك هون وخلينا ناخدك (أرّاوند) ، شو رأيك؟ ما تكسفنا !! أوكي
محاطا بفتاتين جميلتين جداً ، كل واحدة منهما تشبك يداً بيده ، راح يصعد ما تبقى من الدرج ، وسط حيرة موظف الاستقبال الواقف للترحيب بزبائن مطاعم نورمندي ، الكائنة في المبنى نفسه
وما كان له بعد هذا كله أن يصحو ، إستسلم تماما لقدره ، كما لو انه نائم في النوم ، وحالم في الحلم
لكن ذلك لم يمنعني من أن أفكّر في الفرق بين القتيل هنا ، والقتيل هناك ؛ وسرني أن ابن أختي قد أحسن اختيار المكان الذي قُتِلَ فيه
وقالت أختي شوفت الفيلم ؟ شوفت كيف قتلوه ؟! شوفت دمّه كيف غطى الأرض ؟! عا القليلة إللي قتلوك كانوا أحن شوي يعني هوٌ مكتوب عليّ إللي مكتوب على إمي ؟ واللي معذبني إنه الفيلم بقولوا ناجح كثير يعني الناس إللي بشوفوه كثار ، يا فضيحتنا ، كيف وضع الفيلم عندكم ؟ آه طمنّي ، في حد بشوفه ، يافضيحتك إن شاالله ما يفكروك هوٌ

شفت قديش بشبهك ؟ الخالق الناطق يا خوي
ولأول مرة

وجدتني أتوسل إلى الله أن تغلق الهاتف ، وتتركني سعيدا أو (بهجتاً) !! بالذي أنا فيه أغلقته ، فاعترفت أمام الفتاتين أن أسوأ اختراع في الدنيا هو الهاتف فاتفقتا معي

هنالك أشياء نُجَرِّحُ جوهرها إن لم نقل انها حلم ، تأتي كالحلم وتمضي كالحلم ، وتترك آثار الحلم الساحرة فينا ، بعد عبورها

وهذا ما كان

وقد سرّته مكالمة من أخته فيما بعد ، قالت له فيها انها غيَّرت رأيها في الدور الذي لعبه وحيدها ـ على الرغم مما حمله كلامها من تجريح غير مقصود ـ ولم يكن هذا التغير إلا نتيجة جملة قاطعة واجهها وحيدها بها وأفحمها وهل تعتقدين أن مرتبة القتيل هناك ، كمرتبة القتيل هنا

ـ قال ذلك كله بالإنجليزي ، بتصدِّق ؟!!!

مما جعلها تسرُّ له

ـ صحيح إنه الولد بدا حياته قتيل ، لكنه أقنعني إنه إله مستقبل ومش بس هيك ، لإنه قلّي إنه متأكد لو إنك هان كان راح يكونلك مستقبل زيُّه

وسألته

ـ صحيح ، قلّي كيف إنجليزياتك ؟؟

عاد لمشاهدة الفيلم مرة ثانية ، لكنه خرج حزيناً

لم يتعرف عليّ أحد ، أقصد عليه وقلت إن أسوأ ما يمكن أن تبدأ به حياتك ، هو دور القتيل لماذا ؟ تسألني لماذا ؟؟ ببساطة لأن أحداً لا يحب القتلى كما لو ان الذين عاشوا هم وحدهم الذين استطاعوا هزيمة الموت للأبد

ـ كيف إمي ؟ بتزور قبرها ؟ !!

أزور قبرها وقبر الوالد أيضاً
فلقد كانا متجاورين
لن نطيل
حين ذهب مع أمه لزيارة قبر أبيه ، بعد زواج أخته بقليل ، وقد كانت تريد أن تطمئنه أن البنت (إنسترت) ، رغم انه لم يعرف إنها ترملت أصلاً
قالت لي برضاي عليك ، إدفني جنب أبوك لما أموت
وأشارت إلى قطعة من الأرض بين قبره وقبر جاره الذي لم يكن غير أمريكي
العمر لك قلت لها فأصرت
- إوعدني
فوعدتها وكنت خائفاً ألا أستطيع الوفاء بوعدي
بعد يومين قالت له
- حاسِّه إني راح أموت
فقال لها وقد اغرورقت عيناه بالدموع
الشر بعيد ، ها أنت في أتم صحة
- لا ، لا ، رايحة أموت ، لكن زي ما وصيتك ، إدفني محل ما طلبت منك
وأحسست أنها قررت أن تموت ، مع أن الأعمار دائما بيد الله سبحانه وتعالى ، فقلت لها لست مضطرة لأن تموتي الآن فقالت
- بعرف ، لكني خايفة حدا يموت قبلي ويدفنوه بينهم
وقالت يابنيي الناس بموتوا ها الأيام أكثر بكثير من ما كانوا يموتوا زمان ، إنت مش ملاحظ ؟!!!
معها حق ، قلت في نفسي
ثم طلبت منه ذلك الطلب الغريب

ـ بس نفسي قبل ما أموت تشتري لي عنب

عنب !!!!

ـ آه ، بدي لو قُطُف واحد ، أو أقولك خُصلة بتكفّي

لم يدر من أين له أن يأتي بالعنب في كانون الأول ذاك ، لكنه لم يستسلم ، وبدأ البحث

كنت أسأل أصحاب المحلات عن عنب ، فلا أجد عندهم إلا السخرية مني والشك في عقلي ، إلى أن رأيت العنب ، بأم عيني ، هناك في المحلات المقابلة لدخلة مطعم هاشم في منتصف البلد ، فحملته ، وطرت إليها ، خائفا أن تموت في غيابي كما مات المرحوم أبي

على أحر من الجمر ، كانت تنتظره

ناولتها العنب بعد أن غسلته جيداً ، وانتهزتُ فرصة انشغالها به ، فرحتُ أعدو نحو أول عيادة طبيب ، بعد أن أدركت أن الأمر أخطر مما كنت أظن ، ما دامت قد وصلت إلى طلب العنب في شهر كهذا

حين وصل الطبيب ، قالت له

ـ ما بدي اتصيبني ، لأني بدي أموت ، خلاص !!

أخذه الطبيب من يده وخرجا للحوش ، حيث طيور الفري متناثرة بين الأقدام ترتجف سأله

هل يمكن أن تشرح لي ما يدور ؟!!

فشرح للطبيب كل شيء وحين عادا إلى الداخل ، انحنى ليفحصها ، فلم تمانع

حرتُ في الأمر ، ورأيته أكثر حيرة مني ، وهو يعدل قامته إلتفت إلي ، وكان حزيناً

ـ البقية في حياتك قال له الطبيب دون مقدمات

ماتت ؟!!!!

ـ شد حيلك .

دفنا جثمانها بعد صلاة الظهر ، ولم أكن أحب أن أقول لأختي كل هذا الكلام ، كي لا أحرمها من فرحة موت وحيدها على الشاشة الكبيرة ، هي التي لم يخطر ببالها أن تسألني عن قبر أمي إلا بعد هذا الزمان الطويل

لن أطيل

تسألني عن اسم الفيلم ؟ لا ، لا تسألني الآن ، فقبل أن أتأكد من أن للولد مستقبلا حقيقياً في السينما ، لن أقول ، حتى لا يتحول الفيلم إلى فضيحة تلوث تاريخ الأسرة ، وعلى مستوى عالمي هذه المرّة

انتهيت

كان ذلك فصل

العودة إلى تفاصيل ما جرى للوالدة والبداية التي توَّجت إبن أخته قتيلا يملك المستقبل

ويليه فصل

العودة إلى محاولة إيقاعه في حب زميلة يحترمها

بوصوله إلى دوّار الداخلية ، مخلِّفاً وراءه مبنى البريد (يـمينا) وسينـما الكونكورد (يسارا) أحس بأن رحلته على وشك الإنتهاء

وما كان يعنيني شيء سوى هذا

لو لم يكن يكره المباني العالية ، بل ، ويخاف منها

لكانت نظرة واحدة إلى عمان ، من فوق برج البريد ، كافية للتأكد فيما إذا عادت عجلة الحياة الطبيعية إلى شوارع العاصمة أم لا

وما كان يفكر لحظة بالتوجه إلى مبنى بنك الإسكان

لا لشيء إلا لأنني أخشاه أكثر من أي مكان عال فهو يشبه بطريقة أو بأخرى دُشمة أو قاعدة عسكرية عملاقة ، لا تعود لسكان الأرض ، بقدر ما تعود إلى ديكورات أفلام الفضاء ـ واسمحوا لي أن أقول ـ الشريرة

بعد تفكير عميق ، وجد أن أفضل ما يمكن القيام به ، هو الإنتقال إلى الجزيرة التي خلّفها وراءه ، بحيث يصبح بإمكانه السير فوق الجسر المعلّق ،

والقاء نظرةٍ أولى على امتداد شارع المدينة الرياضية الصاعد نحو مبنى الصحيفة ، ونظرةٍ ثانية على امتداده الهابط نحو جبل الحسين ، وثالثة على امتداد الشارع المتجه إلى مبنى المخابرات القديم ، والذي يشكل امتداداً لشارع الإستقلال ، حيث يلقي على هذا الأخير ، النظرة الرابعة

الشيء العجيب أنه لم يخطر ببالي أن أنظر ورائي ، رغم أن ذلك الوراء ، بما فيه من امتدادات ، لا يستهان به ابداً

وحين فكر في الأمر جيداً ، اكتشف أنه يخلّف ذلك الوراء وراءه كل يوم ، من أجل الوصول إلى عمله في الوقت المحدد

ولم أكن أقبل بأي صورة من الصور ، أن أكسر القاعدة من أجل ظاهرة لم أستطع استيعابها حتى الآن

لا شـــيء يُرى ، سوى خمسة أنهار من الأعلام المتدفقة في خمسة شوارع كبرى

حدق في الساعة

أخشى أن أكون قد أضعت الكثير من الوقت

أرقه الأمر

أحسَّ بحاجته الذهاب إلى حمّام ، في أسرع وقت ممكن

فندق الريجنسي أمامه ، لا يبعد سوى خطوات ، وعلى يساره بمسافة أبعد ، كان (الماريوت)

فكرتُ بالمغامرة والدخول إلى حمّامات أحدهما ، تذكرت ذلك الإرباك الذي تعرضت له حين اضطررت لدخول الحمام الفسيح ، يوم الإجتماع الحزبي ذاك ثم ماذا لو عادت الحياة فجأة إلى طبيعتها ؟ كيف يمكن أن أفسّر وجودي المشبوه في حمام على هذا المستوى الرفيع؟ سيسألونني أولا ما الذي تفعله هنا ؟ وتصورت نفسي أجيب إنني أقضي حاجتي لا غير . وعندها ، سيكون تعليقهم أهذا وقته ؟!!!

قرر أن يتحامل على نفسه حتى يصل إلى مبنى الصحيفة . .

هناك سيكون الأمر طبيعياً

بتجاوزه لفندق الريجنسي ، ووصوله إلى مبنى المركز الثقافي الملكي ، ثم الحديقة العامة للمدينة الرياضية ، انشغل بأفكار كثيرة أنسته تماما ذلك الضغط المميت أسفل بطنه ، وأنسته الحلول المشينة التي راودته مثل قضاء حاجته في الحديقة ، ما دامت خالية من الأولاد والعشاق الذين يتأملون الأولاد ويتضاحكون بخجل وهم يتمنون أولادا مثلهم ، فلا تملك أيديهم إلى أن تزحف نحو بعضها لتتشابك الأصابع في غفلة من عيون الحراس

هو نفسه ، عايش عذابات هذه التجربة مع زميلة له أيام الدراسة حينما اقترحت عليه ببراءة كاملة ، لم يستطع جرحها بالإعتذار ، أن يتمشيا حول مبنى الكلية ، ليجد نفسه بعد نصف ساعة دون أن يدري ممسكا يدها على مقعد خشبي في هذه الحديقة بالذات

كيف حدث ذلك كله في غفلة من حواسي التي كانت متيقظة على الدوام ؟ لا أعرف كيف تلاشى الزمن ؟ لا أعرف كيف نسيت وصايا أمي رحمها الله ، الوصايا التي كانت تصبها كل صباح في أذني ، إلى ما لانهاية ؟ لا أعرف

ـ دير بالك يابني ، واصحى من البنات ، إياك يوكلن بعقلك حلاوة إنتبه لدروسك ، وبوعدك لما تنجح أخطبلك أحلى وحدة في الدنيا

بأسى شديد كان يغادر البيت وهو يفكر في وعود أمه الصادقة تلك ولكن أيضا ، التي لن تستطيع تحقيقها ، لا لشيء

إلا لأنني كنت أرى أنها لن تستطيع الوفاء بها ، لأن أجمل واحدة في الكون كانت بالنسبة لي تلك الأيام هي دومينيك ساندا

لكن إدراكه لإستحالة وفاء أمه بوعدها كما يفهمه هو ، لم يحل بأي شكل من أن يأخذ بوصاياها

لم يكن باستطاعته استعادة نفسه من فصل غياب نفسه ذلك اليوم ،

لولا تلك الحلقة الصغيرة من عيون الأولاد التي وجد نفسه داخلها ، ومعه زميلته التي طالما كَنَّ لها من الإحترام ، ما يفيض على خمس زميلات وأكثر

وحمدت الله أن الأولاد قد وصلوا الينا قبل الحراس :

استل يده من يد زميلته ، هبّ واقفاً ، أمام ضحكات الأولاد الفرحين بنتائج شقاواتهم ، شق الدائرة مرتبكا ، فتبعته زميلته ، التي راحت تلوّح للصغار بفرح أدهشه على مهلك !! وين . إستنى!!

استقل أول حافلة توقفت أمامه ، قبل أن تتمكن زميلته من اجتياز الشارع ، وأختفى

تلك الليلة لم أنم ، أحسست بأن أمي قد منيت بهزيمة ساحقة على جبهتي ، جبهة وحيدها التي انهارت فجأة ، وأمام مَنْ ؟ أمام أول فتاة أُكنُّ لها الإحترام ، ولا تشبه ـ حتى ـ من قريب أو بعيد دومينيك ساندا

ومع الأيام ، تحولت المعركة التي أعتبرت زميلته نفسها مهزومةً فيها إلى مواجهة عنيفة ، ولكن غير مباشرة بينها وبين أمه

وما كانت المعركة متكافئة ، لأن كثيرا من الزميلات كنَّ إلى جانبها ، قبل أن يُلقي عدد من الزملاء بثقلهم أيضاً

لا يستطيع أن يدعى الآن ، أن تلك الزميلة لم تكن جميلة

كان الجمال نقطة ضعفي ، حتى قبل أن أدرك ذلك

وقد تسبب حبها له بعدد وافر من العداوات من قبل زملاء غارقين في هواها ، ويرون فيها جمالا استثنائيا . وللحق ، فقد أدرك أن استراتيجية المواجهة لن تُقدم ، بل تؤخر

لذا استعنت ببعض الأفلام التي عالجت مواضيع الحب من طرف واحد ، أملا في الوصول إلى نتيجة تُرضي الطرفين أخيراً ، أقصد أمي والزميلة . لكنها وهي تحاول أن تُظهر لي قناعتها بمحاولاتي لإعادة العلاقة إلى فصيلة الزمالة ، باعتبار ذلك هو الأفضل لكلينا ، كنت قد بدأت

بالوقوع تدريجيا في دائرة الإعجاب بها كفتاة مثابرة ، تحسن التَّقدم إلى الأمام في الوقت الذي تؤكد فيه أنها بدأت انسحابها

لكن مؤامرة ، لا يستطيع القول انها صغيرة ، حاكها الزملاء والزميلات ، بالتواطؤ معها ، على ما بدا تلك الأيام ، أفسدت المسار الطبيعي للعلاقة بينهما

كنا نجلس في مطعم الكلية وحدنا ، كالعادة ، حين أطبقوا علينا ، كما أطبق الأولاد في الحديقة العامة ذلك اليوم ، وقد تضايقت من الأمر ، خاصة وانهم يعرفون كما تعرف هي ، أنني لا أميل للجمْعات الكبيرة لكنهم بدل أن يجلسوا ، مثلما اعتقدت ، قالوا بأنهم أحضروا لنا عصيراً ، جاء هدية لأحدهم من (فنزويلا) ، ولأننا أصدقاء فقد قسَّموه بالتساوي وضعوا أمامهما علبتين كبيرتين ، وابتعدوا

استغربت طعمه ، بل انني قلت لها ، ما يشبه ذلك الذي قالته أمي بعد سنوات حين اشتريت لها كيسا من الشبس (خوفي ليكون هااللي بوكلو بطاطة) إذ قلت لها إنه يشبه إلى حد كبير طعم العنب فهزت رأسها موافقة ، ولم أعرف لماذا راحت تبتسم ، إلا بعد نصف ساعة على الأقل ، رحت أتأملها خلالها ، كما لم أتأملها ذات يوم ، بل انني أكتشفت بعض الشبه بينها وبين نتالي وود التي كان ثمة بداية معركة بينها وبين دومينيك ساندا على احتلال قلبي ، واكتشفت أنها لا (تُليِّط) وجهها بالمساحيق كما تفعل مارلين مونرو وكثير من فتيات الكلية واكتشفت براءة جميلة فيها لا تقل عن براءة ميرفت أمين في فيلم (أبي فوق الشجرة) ، واكتشفت أن في صوتها بحة لا تقل أبداً عن بحة صوت الممثلة ماجدة ، واكتشفت أنني أتجاوز كل الحدود المرسومة بيننا وغير المرسومة لأعترف لها بهدوء عظيم وواثق أحبك

قفزت الفتاة في الهواء ، وهي تصرخ بفرح مجنون إعترف إعترف .

وراحت تعدو نحو الساحة ، حيث كان الزملاء ينتظرون النتيجة على أحر من الجمر

حين حاولتُ النهوض ، لم أجد قدمي . فأدركت عندها أن ذلك الذي اسقوني إياه ليس له علاقة بعصير العنب

لن نطيل

كانت تلك ، هي المرة الوحيدة ، التي أعترف فيها لفتاة بأنني أحبها

وانتهت

كان ذلك فصل

العودة إلى محاولة إيقاعه في حب زميلة يحترمها

ويليه فصل

المسؤوليات الجسام التي أملت عليه تطوير مهنته كمدقق ومحاولات حل اللغز بعد وصوله للجريدة

ما أن بدا واضحاً ، ذلك الإمتداد المنساب ما بين نهاية جسر المدينة الرياضية ونفق الصحافة ، حتى أدرك أن رحلته انتهت

: لكنني حاولت ما استطعتُ ألا ألتفت إلى المدينة الرياضية ، عندما حاذيتها ، لأنني بتُّ أرى في الرياضة ـ مؤخراً ـ أموراً تدعو للقلق ، فبعد الإنتصار الذي حققه منتخبنا على المنتخب السوري في بطولة كأس العرب ، لاحظت أن عدداً غير قليل من الناس باتوا يعتقدون ، أننا قادرون على إحراز إنتصارات أكبر في مواقع أخرى ، حتى أن بعضهم ـ دون أن يشعر ـ رأى في ذلك فرصة لإعادة النظر في اتفاقية السّلام ، بعد أن تبين لهم أننا أهل للنصر

غير عابىء بالنتائج التي يمكن أن يسببها ذلك العَدْو ، راح يعدو ، غير عابىء بالضغط المتصاعد في أسفل بطنه ، غير عابىء بانفجار ما ، قد يفسد المكابدة كلها ، ويطوِّحُ باللحظات المقبلة إلى المجهول

: لكنني كنت قد عقدت العزم ، على ألاّ أدخل الصحيفة ببنطال

مبتل ، ثم أن حماقة طفولية كهذه لم أكن قد أرتكبتها طفلا ، لأرتكبها الآن بعد أن غزا الشيب ربع رأسي على الأقل

فكّر بالمرحومة الوالدة التي قالت له أكثر من مرة ، بمناسبة وبلا مناسبة ، كيف أنها كانت تفاخر وتباهي به الأمهات ، لأنه منذ طفولته المبكرة جدا جدا ، كان قادرا على التحكم في نفسه ، كما لو انه ولد بالغ عاقل

ـ الله يرضى عليه ما بتذكر إنه غلّبْني وعملها على حاله ، أبدا

وقد تحولت فترة وجود ابن أخته في البيت إلى مناسبة ، لا تنقطع فيها المقارنة بين الطفل وخاله

ـ البمبرز !! هو احنا كنا بنستعمله وإلاّ بنعرفه حتى ـ تقول أمه ـ بعدين كيف كنا راح نعيش لو إنّا كنّا بنشتريه ، وحياتك وانت العزيزة إللي ما بنحلف بحياتها حيالله ، إني حاسّة إنّه رجال هالأيام بشتغلوا عشان يصرفوا ع طياز ولادهم أكثر من ما يصرفوا على ثمامهم

واثقا بسجل طفولته النظيف كان ، وبثقة أمه المطلقة به ، وقد عقد العزم على ألاّ يخيب أملها فيه بعد رحيلها وفاء لذكراها ، هو الذي لم يخيب أملها فيه طوال حياتها

بدأ مبنى الصحيفة بالظهور

كما لو انه الشمس تسطع في غروب مرفوع على أكف الرايات

أعجبه الوصف

وبدأ قلبه يعصف في صدره انفعالا ، وكلما اقترب خطوة ، سمع طبوله تقرع

ذلك ما كان يمكن أن يحدث لو جاءت الفتاة الجميلة جداً جداً ، فتاتي ، إلى موعدها يوم الجاردنز البعيد ذاك

الآن في هذه اللحظة الحاسمة ، يستطيع أن يعترف ، أن زميله كان ذكيا إلى تلك الدرجة التي التقطَ فيها موجات عشقه ، وأثبت أن العِشْرَة

بينهما لم تضع تماماً حين قال له

ـ نصيحة ، وأنا أخوك ، لا تنظر إلى الأعلى حتى لا تنقصف رقبتك هذه البنت يعشقها رجل كبير ، فوق ، ولا تستطيع منافسته

كنت أيامها أعد العدة لأنطق بأجمل وأكبر كلمة حب قيلت في هذا العالم لكنه فاجأني ، ولم يعد لي سوى أن أتابعها بعيني وهي تسعى جاهدة لعبور الشارع كل يوم ، غير قادر على العبور خلفها

لم تكن ملاحظة زميله من تلك الملاحظات التي يمكن القفز عنها وتجاوزها بسهولة ، لذا ضبط نفسه متلبِّسا بسؤال ما كان عليه أن يسأله

وهل تحب هي ذلك الشخص ؟

وأرقه أن زميله يدرك أبجديات الدنيا ، ويحفظها غيباً ، أكثر منه ، هو الذي كان يعتقد انه طاف وشاف

ـ في مسائل كهذه ، حين يكون الفرق بين المتنافسين كبيرا إلى هذا الحد ، والفرق بينه وبينها أكبر من الفرق بينك وبينها ، تكون النتيجة لصالحه ، نصيحتي ، عليك بفتاة الأرشيف

الحقيقة ، ان زميله وجَّه إليه ضربة صاعقة بتلك النصيحة ، حيث بات متأكداً من أن سيرته الغرامية كاملة ، محفوظة مع أوراق ملف رحلة الشام

يا للفضيحة!!

أحيانا ، وعلى الرغم من نباهته الواضحة المدعَّمَة بشهادة المرحومة أمه ، يحس أن بعض الأشياء تغيب عن باله ، في الوقت الذي يجب أن تكون حاضرة فيه باستمرار

مثلاً ، في مرة من المرات ، ولم يكن قد مرَّ وقت طويل على بداية عملي في الصحيفة ، قمنا باستغلال الفسحة الزمنية بين خبرين ، الأول دققناه ، والثاني ، كما يقال على النار ، فوق ، حين سألته ـ وما كان يجب أن أسأله ذلك السؤال ـ

هل سبق لك وأن غادرت البلد في رحلة أو ما شابه ؟
عندها التفت إلي وقال بالطبع لا
وحين سألته السؤال الأقل نباهة من السؤال الأول لماذا ؟
أخذ نفسا عميقا فبدا أنه يحاول أن يحتملني ، فقط ، لاعتبارات الزمالة

ـ الجنود الحقيقيون لا يغادرون مواقعهم
وصمت طويلا ، إلى أن أحسست انه تحول إلى رجل حكيم حقا وفي لحظة هدوء ، هي ذروة صمته سألني

ـ وهل سافرت أنت ؟
فرحت بسؤاله ، وقلت ها قد فتح لك الباب واسعا كي تستعرض دفتر أسفارك ،كما يقول الشعراء

نعم ، للشام أجبته باعتزاز
ـ آه تلك الرحلة التي طاردت فيها الفتاة عبر الحدود
عندها أدركت أي شخص ذاك الذي أتحدث معه ولم ينقذني إلاّ هبوط أحد السعاة حاملاً بين يديه واحداً من تقارير وكالة الأنباء الأردنية التي لم يكن اسمها قد تحول بعد إلى (بترا)

دقائق لا غير ، ويصل
رفع يده ، حدق في الساعة ، لسعته قطرات عرق دخلت عينيه منحدرة من هناك ، من أعلى جبينه

وأحس أن تأخُّراً كهذا ما كان يمكن أن يحدث ، لولا هذه الحالة غير الطبيعية

تذكّر تفاصيل يومه الأول في الصحيفة ، تذكر الليلة التي سبقته ، تذكر كيف جفا النوم عينيه ، خوفا من أن يذهب في سبات عميق يضيّع فرصة العمر التي جاءت بعد سنين الصبر ، وتذكر ذلك القرار الثلاثي الأبعاد الذي اتخذه

لا تأخر ، لا تغيُّب ، لا إجازات

وكيف تحول القرار إلى قناعة أكثر أصالة وتأصُّلاً ، ما أن شاهد لأول مرة الفتاة الجميلة جداً جداً

الآن ، بإمكانه أن يؤكد لنفسه ، أن حبه العظيم لها ، حبه الذي لا يقل عن أي حب قرأ عنه في كتب التاريخ ، وشاهده على شاشات السينما ، العربية منها والعالمية ، كان وراء نجاحه الكاسح في أداء مهماته الوظيفية ، في حياتها ، وبعد تلك الحياة

هل باستطاعتي أن أصدق أنها ماتت ، وهي لم تزل هنا في أعمق أعماق القلب ؟ هل باستطاعتي القول إن لهفتي اليومية التي كنت أبديها وأنا في طريقي للصحيفة ، كانت من أجل الصحيفة فقط ، أم من أجلها ، هل باستطاعتي القول إن عدم الرغبة في مغادرة المبنى ، كانت عائدة لشيء آخر غير أنها فيه هل باستطاعتي القول إن حرصي على قراري الثلاثي كان لشيء آخر غير الوفاء لذكراها

كم من مرة رآها تعبر الشارع بعد تلك المرة الحزينة الدامية الأخيرة

مئآت المرات ، ها أنا أقولها وفي كل مرة كنت أراها محلقة في السماء ، رافضة الوصول للأرض ، كصورة تجمّدتْ على شاشة سينما ، إلى الأبد

دقائق

ألا يستحق عاشقان عظيمان يوما هادئاً كهذا ، بعيداً عن العيون الفضولية التي تنبت فجأة على حواف النوافذ وخلف زجاجها ؟

دقائق

يصل

يعبر الممر المعتم ، غير قادر على المشي بصورة طبيعية ، شبه طفل مختون للتو ؛ يدفع باب الحمام بما تبقى له من قوة في جسده المشدود على وتر لا يرحم ؛ وللحظات ، قليلة لا غير ، بدا له ان قضاء المرء لحاجته أهم

من أمور الدنيا الزائلة كلها أوتلك التي ستزول ؛ بدا له ، أنه الحقيقة الأكثر رسوخا وأهمية في الوجود

لكن تلك الأفكار لم تصمد طويلا ، ما أن وصلت إلى الربع الأخير من

فجأة ، خطر لي أنني أمضيت فترة من الوقت طويلة ، ما كان يمكن لإنسان عاقل أن يضيعها في الحمام ، في ظرف عصيب كهذا ؛ بخلاف زميلي الذي كان يأخذ الصحيفة معه كلما مضى لقضاء حاجته ، ولكن ليست صحيفتنا ، التي كنا نكنُّ لها من الإحترام ما يمنعنا من إدخالها إلى هكذا أماكن وقد تطورت ، أو تعقدت أموره مع مرور الزمن ـ كما كان يدّعي ـ لدرجة انه بدأ بأخذ القاموس ، دون أن ينسى أخذ ورقة بيضاء معه وقلما بالطبع وحين يعود ، تكون الورقة قد اختفت ، بخلاف القاموس والقلم وكان من الأفضل لي ألاّ أفهم ما يحدث ، لأسباب كثيرة ، لكنني لم أستطع لجم خوفي في كل مرة يختفي فيها وظل ذلك يحدث إلى زمن طويل ، قبل أن يغادرني الخوف مخلِّفا وراءه الحزن خاصة أنني لم أكن أنتمي لتلك الفئة من المواطنين الذين لا يُؤْمَن جانبهم ، لأن الله وحده الذي يعلم ، ما قمت به من جهود طيلة الفترة الماضية حتى لا تمرَّ عبارة أو كلمة واحدة من تلك الكلمات والعبارات التي لم يستطع الطابق الأعلى بما فيه من رؤوس كبيرة وصغيرة التقاط معانيها الخبيثة

لم يكن التدخل في شؤون الغير صفة من صفاتي في أي يوم من الأيام ، لكن الأمور تصل إلى حد لا يحتمل في كثير من الأحيان ، يكون الساكت خلالها شيطان أخرس

سنوات طويلة عملت بإتقان قل نظيره ، واضعاً ثقتي المطلقة بكل أولئك الذين يقرأون المقالات قبلي ، فلا أقوم بعمل شيء غير تدقيقها ، فاصلة هنا ، ونقطة هناك ؛ وحاولت ما استطعت مراقبة الجمل الطويلة ،

التي يكون مبتدؤها في فقرة وخبرها في فقرة أخرى ، وغالبا ما كنت أكتشف أن لقاء المبتدأ بالخبر لو تم في سطر واحد لكان كافياً لمنع المقال بأكمله ، لكن اللؤم الذي يتمتع به الكاتب ، جعله يقوم بهذه المناورة اللغوية التكتيكية ؛ واسمحوا لي أن أقول انها لا تمر على أي شخص متوسط الذكاء

هذه الفطنة التي لم تخيِّب أملَ زميلي بي ، جعلته مطمئنا ، حد قيامه بمغادرة المكان لمدة نصف ساعة وأكثر أحيانا ، واثقا أن خلفه رجالا يُعتمد عليهم وإذا كان من كلمة حق تقال هنا ، فلا أملك إلا أن اعترف انه لم يكن يحتكر كل اكتشافاتي ، التي اعتبر بعضها غاية في الدهاء ، إذ كان يطلب مني أن أصعد إلى الطابق العلوي بنفسي لأُبلِّغَ عن جرائم الكُتّاب الغامضة التي تمكنت من حلها وقد كانت له أسبابه النبيلة ، من بينها إتاحة الفرصة لي كي أرى الفتاة الجميلة جدا جداً ولكي يستطيع القول حين يضطر لمغادرة الصحيفة لمهمة طارئة إن الأمور تحت السيطرة ، ما دام شخص فطن مثلي مع الأخبار والمقالات

بمجرد إشارة صغيرة مني لزميلي ، أو إشارة منه لي - وقد بتنا نفهم بعضنا مع الأيام - يتناول المقال أو الخبر من بين يدي ، أو أتناوله من بين يديه ، ويصعد به أو أصعد ، وما هي إلا دقائق قليلة ، حتى تنقض الأقلام عليه هناك شطباً ، بحيث يخسر أحيانا أكثر من نصفه عندها أتأمله شامتا ، وقد تحول إلى مجرد ديك منتوف

أعترف ، أنني كنت أتوقع أحيانا ثورة لا تُبقي ولا تذر ، يعلنها علينا أولئك الكتّاب أصحاب المقالات ، خاصة وأن زميلي قال لي ذات يوم

- (الجماعة) يعتقدون أننا نبالغ أحياناً ، ويطلبون منا أن ندعهم يتنفسون أسبوعاً

لكن أحدا لم يثر ، أو على الأقل لم يصلنا خبر ثورته لنقوم بتدقيقه .

هأ . . هأ . .

هكذا كان سيل المقالات والأخبار يواصل اندفاعه ، خالداً ، كأنه النيل العظيم ؛ ويواصل الكاتب الكتابة ، كما لو انه لم يحس أبداً باللكمة التي وجِّهتْ إلى رأس أنف مقاله

هذا طمأنني ، وجعلني أتخذ الخطوة التالية بثقة أكبر

أكثر ما كان يلفت انتباهي ، علامات التعجب ، وللحق ، كانت تغيظني ، تنتصب هكذا بين الكلمات وفي نهايات الجُمل بطريقة لا تخلو من قلة الذوق ، لدرجة الإحساس بأنها تقوم بإخراج لسانها لي وهذا ما لم يكن يريحني

أما ما كان يغيظني حقاً ، فهو أن من يراقبون المقالات لا يعيرون التفاتا لهذه الإشارة أو لسواها ، لأنهم ـ على ما يبدو ـ لا يعتبرونها جزءا من الكلام المفيد ، وهكذا يتركونها تُعربد بين الجُمَل ، هل أقول بلا حياء؟ نعم ، بلا حياء

لن أطيــل

قلت إن أفضل ما يمكن القيام به ، أن أبدأ بها ، فبدأت

لم أترك إشارة تعجّب في مقال ، إلا وبددتُ شملَها ، بحيث أصبح بإمكاني أن أنظر إليه(المقال) في النهاية ، فأجده بريئاً طيباً ، كما لو أن الكلام فيه قد عاد إلى جوهره الأصيل

كنت مطمئناً ، ان بداية كهذه لن تسبب لي المشاكل ، التي أنا دائما في غنى عنها ، إذ لن يجيء أحد ، فارعاً دارعاً ، للبحث عن إشارات تعجبه التي اختفت

لا أنكر ان المرة الأولى ـ رغم يقيني أن ليس ثمة أخطار ـ قد سببت لي أرقا شديداً ، إلى درجة أنني تكوبستُ تلك الليلة ، فرأيت الكاتب الذي كان طويلا وعريضاً وذا شوارب مفتولة كأنها عضلات (ستالوني) ، ينقضُّ عليَّ مطبقاً على عنقي

أعترف أنني قد خفت

استيقظت مذعوراً ، إلى حد أنني لم أستطع المسّ بإشارات تعجبه في اليوم التالي ، وبقيت الأمور تسير على ذلك النحو ، حتى رأيت نفسي في المرآة ، فوجدتني لا أقل عنه طولاً وعرضاً ، وتصنَّعتُ الغضبَ - على الرغم من أنه لا يليق بي - فبدوت أكثر هيبة منه ، وما كان ينقصني شيء سوى الشارب ، فربيته ، وحين نما إلى درجة تمكنني من الإعتماد عليه ، عدت إلى مقالاته ، وأشبعت علامات تعجبه تنكيلا وانتظرته تلك الليلة أن يأتي ، فلم يأت ، وانتظرت رئيس التحرير أو مدير التحرير أو أيٍّ واحد من رجال التحرير ، أن يستدعيني إلى مكتبه ، ليسألني بوضوح عن سرٍّ عدائي لعلامات التعجب ، فلم يفعل أحد ، عندها فهمت ، أن ثمة موافقة ضمنية ، فانتقلت واثقاً إلى كاتب آخر

لن أطيـل

بعد إتمام المرحلة الأولى ، انتقلت إلى المرحلة الثانية عدتُ للكاتب الأول ، صعودا إلى بقية الكتّاب ، وخصصت هذه المرحلة لمعالجة الكلمات ، وقد كانت كثيرة ، وبعضها أشد لؤماً من علامات التعجب

كانت المرحلة الأولى من المرحلة الثانية ، مخصصة لشطب كلمة واحدة من كل مقال أو تقرير ، والإنتظار حتى صبيحة اليوم التالي ، فيما إذا سيأتي من يطالب بدمها الأسود أم لا وحين لا يأتي أحد - كما كنت أتوقع - أنتقل إلى شطب كلمتين ، ثلاث ، أربع ، حتى تصفو المقالات وتروق

وفهمت المعادلة

الذي يحرر المادة الصحفية لا يعود لقراءتها مرة ثانية ، والذي يكتبها حريص على ألا يفقد موقعه الذي يطل منه على الناس إلى ما لا نهاية كديك أزلي

طبعاً ، هناك استثناءات للأسف ، ولكنها والحمد لله قليلة جداً لذلك كنت أتجنب الإحتكاك بها ما أمكن ، لأنني فهمت بفطنتي ،

وايحاءات زميلي شبه الواضحة ، أن الإبتعاد عنها أفضل

بعد مدة من الزمن ، لاحظت أن كثيراً من الكلمات راحت تختفي تدريجيا من المقالات التي كانت تمر علي ، على الأقل ؛ فقلت لقد بدأ الكتّاب بمعرفة حدودهم ، لكن علامات التعجب ظلت تطلُّ برؤوسها اللئيمة المنكسة ؛ وحمدتُ الله ، لأن رأس علامة التعجب تحت قدميها وإلا لما كان باستطاعة أي إنسان التنبؤ بما يمكن أن تفعله لو كان فوق كتفيها

الطابق العلوي كان مسروراً من الدقة البالغة التي نبديها في عملنا ، بحيث لم يجد نفسه مضطراً للإعتذار للطابق الذي فوقه ، وقد سهَّلَ علي ذلك الصعودَ أكثر من مرة في اليوم ، حينما كانت الفتاة الجميلة جدا جدا على قيد الحياة

طبعاً ، لست مضطرا هنا لذِكْرِ الأسباب التي تقف وراء دقة عملي تلك ، حيث يمكن الرجوع اليها ، في ذلك الجزء المتعلق بدور الحكومة المتعلق بسفر المواطنين وقيامها بوضع حد لأولئك الذين استخدموا صهاريج النضح لنقل السمنة ، واكتشافها التلاعبَ الخبيث بقوت المواطنين والحيوانات أيضا وقد كانوا يغيظونني أولئك الذين يتناسون هذه الإنجازات وكأنها لم تتحقق على يدي الحكومة التي ما ينفكون يغمزون في قناتها ، والله يعلم من أين تأتي المياه إلى قنواتهم!!!!!

نعم ، كان لا بد من وضع بضع علامات تعجب حميدة في نهاية الجملة السابقة ، حتى يستقيم المعنى

لن أطيـل

اسمحوا لي أن أكون صريحا ما دمت أتحدث مع نفسي لقد طال قلمي في أحيان كثيرة ، مقالات وعلامات تعجب ليس لها علاقة بالحكومة ، بل لها علاقة ببعض المقالات المكتوبة عن أفلام الفضاء ، منطلقاً من حسي العميق بأن هذا الكوكب الجميل جداً أمانة في أعناقنا ،

ولذلك لم يكن بإمكاني التهاون أمام تلك النزعة العدائية التي تنضح بها تلك المقالات ، حين تقوم ـ بلا خجل ـ بمناصرة صانعي الأفلام على حساب سكان الكواكب الأخرى وقد كان معظم هذه المقالات يهب علينا عبر وكالات الأنباء ، بأقلام أؤكد أن أصحابها ينتمون إلى فئات الجواسيس ومروجي الإشاعات والأكاذيب ومرتزقة المخرجين وفنيي الخدع السينمائية وعتاة المنتجين والمندسين

انفعلتُ

لقد مضى زمن طويل ، لم أر خلاله (E.T) يطل مرة ثانية ، إنهم يزدادون وحشية يوما بعد يوم ، ناسين أن هذه الأرض الجميلة جدا ليست أكبر من رأس دبوس مقارنة بالفضاء الرحيب

نعم ، وبراحة ضمير أعلن الآن ، أنني أفضلُ صورةٍ يمكن أن يكون عليها إنسان نهايات القرن العشرين ، ليس في هذا البلد فحسب ، بل في كل بقاع هذه المعمورة التي لم تعد أوضاعها تُسِرُّ القلب

صعد إلى الطابق العلوي

لا أحد

أبصر كرسيَّها ، خفق قلبه ، كما لو انها لم تزل جالسة عليه

لقد أتوا بفتاة جميلة ، لكنها لم تستطع أن تملأ مكان الراحلة بحيث اقتصر صعود الدرج ـ فيما بعد ـ على زميله الذي تفهَّم حجم العذاب الذي يعانيه زميله كلما رأى الكرسي فارغاً ، أو رأى الفتاة الجديدة تحتله

سار بإتجاه الأرشيف

خاويا كان ، ليس فيه سوى الماضي استعاد وجه الفتاة العاملة فيه فأيقن أنه ما كان يمكن أن يحبها

لأنها لا تشبه المستقبل الذي أنا منه ، ولا الحاضر الذي أنا فيه

لكنه كان يعرف ، رغم أن أخبارها لم تكن تعنيه ليقوم بتدقيقها أنها لم تكن محرومة أبداً ، وكان بإمكانها أن تشير إلى أي شاب صغير ،

ليغيب بضعة أيام ، وحين يعود يكون شاحباً كالماضي
لقد كنت على الدوام دهشاً أمام تفنّنها في تحويل الحاضر إلى ماض ، بكل تلك البراعة
ولا ينكر انه كان مرشحا ، نظراً لمؤهلاته الفائقة التي كانت تراها فيه للتحول إلى ماض
لا ، لا يمكن أن أنسى ذلك اليوم الذي أسقطتْ فيه ـ وأجزم عامدة متعمدة ـ دبوسا بين ساقيّ وراحت يدها بلهفة تبحث عنه ، إلى درجة أنني لم أعد أجرؤ على الجلوس بجوارها ثانية
فتشَ عن عدد (اليوم) في الأرشيف لم يجده
هبط الدرجات ، إلى حيث المطابع ، وجده مكدساً هناك
أعداد قليلة منه ، استطاعت الوصول إلى المكتبات فيما يبدو
حدق في الصفحة الأولى ، لاحظ أن العناوين التي أمامه ، تتحدث عن أشياء لا يعرفها ، أو يسمع بها
أي أنني لم أُدققها
بحثَ في الصفحات الداخلية ، لم يجد خبراً واحداً يعرفه ، الزوايا لا شيء من تلك التي يفترض أنه دققها
عندها تأكدتُ ، أن عدد الجريدة الذي قرأته هناك ، في كشك (أبو علي) لم تكن أخباره تنتمي إلى اليوم السابق أبدا
وهكذا وجد نفسه يسأل نفسه
هل جئت للعمل يوم أمس أم أنني لم أجىء
بعد تفكير عميق أجاب
لقد أتيت
ولكي يقطع الشك باليقين ، صعد الدرجات على عجل ، وراح يبحث عن بطاقة الدوام ، وجدها
الحضور في الوقت المحدد كالعادة

المغادرة في الوقت المحدد كالعادة
كيف يعقل أن أكون هنا ولا أكون

ولكي يعيد دورة الحياة إلى ذاكرته ، استعاد ما رآه الليلة الفائتة على شاشة التلفزيون

دماء في نشرة الأخبار ، صيحات ، وتصريحات ، وإعلان بعد ذلك عن نية التلفزيون في إعادة عرض مسلسلات قديمة أنتجها في بداياته

وتذكر انه انزعج

فلا يعقل أن أبعث قتيلا بعد ربع قرن من الزمان

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يعلن فيها التلفزيون عن نيته عرض المسلسلات القديمة التي أنتجها ، مما جعل الأمر يبدو له

كمحاولة ابتزاز

وقد جاء إعلانه في إحدى المرات في أوج محاولاته لأقامة علاقة مع الفتاة الجميلة جدا جدا

ولكم أن تتصوروا النتائج التي كان يمكن أن تحدث

لكن المسائل كانت مختلفة هذه المرة

فلقد كبرت إلى درجة لن يعرفني فيها أحد ، وها أنا أختبيء خلف شارب قادر على إخفاء جَمَل ، ثم أن الفتاة الجميلة جدا جدا ماتت وكذلك المرحومة الوالدة التي لن تتزلزل حجارة قبرها كما تزلزلت حجارة دنياها يوم أن رأت المسلسل ، أما المرحوم والدي ، فهو لا يعرف أصلاً أنني اتجهت للتمثيل ، ولم يعد أمريكي هنا ، أمريكي صديق العمر وزوج الأخت ووالد سميي الذي خفف دمه خصيصا من أجلي وجاء لتعزيتي بعد مشاهدته للمسلسل ، بل وأشار عليّ أن يذهب ليأخذ بثأري من المتوحشين الغادرين

صعد الدرجات ثانية ، تأمل الكراسي الفارغة ، تجرأ ، دخل غرفة رئيس التحرير ، حدق في مجموعة الأوراق الموجودة فوق مكتبه ، تلمسها

بطرف إصبعه ، لكنه لم يفكر بالدوران للجلوس مكانه
في ذلك تطاول غير مُسْتَحَب
فاجأته أجهزة الهاتفُ الخمسة المرتبة بإتقان ، امتدت يده إلى سماعة التلفون الأحمر
تذكر فيلم (اللعب مع الكبار)
تجمَّدتْ يده في منتصف المسافة
غادر المكتب
سأُجرب الإتصال من مكان آخر
وخلال نزوله الدرج ، لم يقفز إلى ذهنه إسم أي شخص يمكن أن يتصل به ، سوى أخته في لوس أنجلوس ، ولم يكن من أولئك الذين يحفظون أرقام الهواتف ، ولو كان منهم لما اتصل أيضاً ، لأن في ذلك استغلال واضح لوظيفته وللموقف الذي هو فيه
وصل مكتبه ، وقبل أن يجلس ، رفع السماعة ، وبحذر قرَّبَها من أذنه ، محاذراً أن يقفز مخلوق غريب منها ، ويدخل رأسه
لا حرارة
ألقى بجسده على كرسيه ؛ مُتعَباً كان ، لكنه لم يعترف بذلك
لا يعقل أن أنهار قبل خط النهاية بقليل
وتلاحقت أمواج الصمت ، تجمَّعتْ حوله ، راحت تشده بخيوط حريرها ، فأخذته غفوة إلى عالم آخر
استيقظ
انتفض فَزِعَاً
معتمة كانت الغرفة ، نظر الى ساعته ، لم يستطع تحديد الوقت
أشعل الضوء
الثامنة مساء
راح يوبخ ذاته

أهذا وقت النوم ؟

تذكر غرفة أجهزة استقبال أخبار وكالات الأنباء الأجنبية والعربية راح يعدو في الممر الطويل نحوها متعثراً ، متلمساً الجدران ، ضاغطاً مفاتيح الإضاءة في طريقه

راح يبحث عما يضيء له الحكاية من أولها إلى آخرها ، فلم يجد خبرا غريبا غير ذلك المتعلق برؤية عدد من سكان الإمارات العربية لطبق طائر فوق سواحلهم

ما داموا ظهروا هناك ، فلا شك أنهم وصلوا هنا

رتَّبَ الأخبار الرياضية مع الرياضية ، الإقتصادية مع الإقتصادية ، الفنية مع الفنية ، والسياسية مع السياسية

ولفت انتباهه ذلك الخبر المتعلق ببدء عروض فيلم سبيلبيرغ الجديد في الصالات العالمية (العالم المفقود)

تمنى أن تعود الحياة إلى مجراها بأسرع وقت ممكن لتتسنى له فرصة مشاهدة الفيلم

التفت إلى ساعته

الثامنة والنصف

صعد الدرجات القليلة المفضية إلى الباب الرئيسي للجريدة ، كانت إحدى قدميه قد أصبحت خارج العتبة ، حين تذكر أنه لم يختم بطاقة الدوام

كيف أوشكت أن أنسى أمراً بالغ الأهمية كهذا ؟ وهو الدليل الأكبر على أنني كنت هنا في هذا العالم حين اختفى الآخرون

تناول البطاقة ، وضعها في الآلة ، سمع ذلك الصوت الذي طالما سمعه (ترِكْ) حدق في الرقم

الثامنة والنصف وأربع دقائق

نظر إلى ساعته .

الثامنة والنصف وأربع دقائق
سار نحو الباب ، وقبل أن يغلقه خلفه ، فكّر ، فيما إذا كان قد نسي شيئاً ما
: لم أنس
أقفل الباب ، ألقى نظرة على واجهة المبنى ، شبابيكه
كل شيء على ما يرام
سار باتجاه الشارع العام
هدوء كامل
وبدأ رحلة العودة إلى (وادي الرمم)
وادعة امتدت عمّان
:كلما أظلمت تصبح أكثر جمالاً هذه المدينة
همس لنفسه
كيف لم ألاحظ هذا في النهار اللـــــــه !!!
ثمة إحساس ساحر بالقدرة على التحليق سكن جسده ؛ فوجيء بأنه قـد خلّف المدينةَ الرياضيـةَ والمركـزَ الثـقـافي الملكـي وراءه دون أن يدري وصل دوّارَ الداخلية
فكر بالطريق الذي عليه أن يسلكها ولم يدم الأمر طويلا
ليس ثمة ما هو أحق اليوم من شارع الإستقلال
انعطف باتجاهه رائعا كان إلى درجة لا تُصدق وعنّف نفسه ، لأنه منذ زمن طويل لم يتجول ليلاً فانطلق صوته هادراً يدوي ، كما لم يُـدَوِّ في أي يوم من الأيام
كيف يمكن لسكان مدينة رائعة كهذه الإبتعاد عنها؟ كيف؟!!!!
ولكنه ما أن وصل (جسر النشا) ، حتى عاد له هدووه المعهود
مدينة على هذا المستوى الرفيع من الجمال ، لا يمكن أن يتخلى عنها سكانها إلى الأبد . أما إذا كان الأمر متعلقاً بسكان الفضاء ، فإنني على

ثقة من أن احترامهم لي ، سيجعلهم يعيدونهم

وعاوده الأمل ، في أن يُطلّ طيف الفتاة الجميلة جداً جداً ، من بين الجموع ، ليسترقلبه

ها هو بيته أمامه أخيراً

ما أجمل البيوت

أخرج المفتاح من جيبه ، فتح الباب ، حاول أن يرى طيور الفري لم يستطع ظلام

أكانت في الصباح هنا ؟

لم يستطع الإجابة على السؤال

أشعل ضوء الساحة ، كانت الأقفاص موجودة ، أبوابها مشرعة كالعادة ، وحولها تنام وادعة طيور الفري

ألقى رأسه على المخدة مطمئناً وراح يفكر قبل أن يغفو

ما الذي يلزمني الآن ؟

وأجاب واثقاً

يلزمني أن أكون مقداماً أكثر مما كنت قليلا ، بعد أن ثبت بالدليل القاطع أنني ابن هذي الحياة فعلاً ، بكل ما تعنيه الكلمة ، فلا المصائب استطاعت النيل مني ، ولا ذلك الإختبار الرهيب الذي تعرضت له اليوم . لقد وضِعَتْ عمان في عنقي أمانة وصنتها ، وكنت المواطن الصالح الذي يعبأ بما يدور حوله ، في الأرض والسماء

ونام

واثقاً

أن غداً ي .و .م ، ج .د .ي .د

كان ذلك فصل

المسؤوليات الجسام التي أملت عليه تطوير مهنته كمدقق

ومحاولات حل اللغز بعد وصوله للجريدة

ويليه فصل

النهايه التي سبقت البداية

فجراً صحوت ، قبل صراصير الليل ، كانت تفاصيل الأمس محفورة في ذاكرتي كالعلْمِ في الصِّغَرِ أشرعت باب الغرفة المفضي إلى الحوش مباشرة ، ولم يخبْ ظني ، رأيت طيور الفري هناك ، غافية حول أقفاصها مفتوحة الأبواب ؛ تأملتها ، بريئة كانت

قلت ها أولى علائم الحياة تبزغ من جديد

تفاءلتُ

اغتسلت ، حلقت ذقني ، حاولت الإصغاء ، تناهت إلى سمعي أصوات بعيدة لم أستطع إعادتها إلى أصولها ، لكنني بتُّ متأكداً من أن كل شيء في الخارج يسير على ما يرام

ارتديت قميصا جديدا ، حذاء جديدا ، وربطة عنق جديدة كانت أختي قد أهدتني إياها قبل أيام في حلم سابق !!

للأحلام علاقة متينة ببعضها

لا أقصد على صعيد الشخص نفسه ونفسيته

لا
أقصد على مستوى تبادل الهدايا فيما بينها
حلم يظن أن أخاه الحلم القادم بحاجة إلى شيء ما ليكتمل ، فيجهز له كل ما يلزمه لهذا الإكتمال
هذه المسألة يمكن أن أتحدث فيها طويلا ، لأنها تعتبر ظاهرة بالنسبة للتآخي والتعاضد والتآلف والتسامح والحنان الذي تبديه أحلامي تجاه بعضها
أذكر مثلا ، انني حلمت ذات ليلة بأنني أصبحت أبا ، إذ صحوت - في الحلم طبعا - فإذا بطفل جميل جدا إلى جانبي وبالطبع كنت سأحتار طويلا أمام أمر كهذا لولا حلم الليلة السابقة لهذا الحلم
واسمحوا لي أن أكون صريحا ما دمت أتحدث مع نفسي
لقد صحوت مبللا . ليس من العيب الإعتراف بذلك ، لأن هذا الأمر علمي تماما ، وأعرفه من خلال مواظبتي على قراءة مجلة (طبيبك) قديما وقد عدتُ إليها حديثا لأتأكد من معلوماتي القديمة ، وأطمئن على بعض المسائل الأخرى ، بعد أن قرأت ، أقصد دققت موضوعا يتعلق بعضلات أذرع الصيادين التي تنمو وتكبر لأنهم يستخدمونها كثيرا في التجذيف بعكس أرجلهم التي يصيبها الضمور لأنهم لا يستعملونها!!
لم أجد جوابا شافياً فيها
لكن حلما آخر كان قد مر بي ، أو مررت خلاله قبل ذلك بأيام ، حلَّ اللغز المحير ، إذ رأيت فيه الفتاة الجميلة جدا جداً حية ترزق ، فقلت لها كنت أعتقد أنك مت
فقالت عاتبة متَّ ؟!! كيف تفكر بهذه الطريقة ؟
فقلت لها كان يمكن أن أريك الدليل ، ولكنهم انتزعوه من بين يدي
فسألتني مستغربة الدليل ؟!!!

فقلت   نعم الدليل ، فردة حذائك التي طارت في الهواء
فقالت   إصح
فقلت لها   لا أستطيع ، لقد انتظرتُ طويلاً هذه الفرصة كي أراكِ ، ومنذ أن   ، لا أستطيع إعادة الكلمة ، أصبحت أنام مبكراً لأتيح لكَ المجال كي تأتي على أقل من مهلك ، كما حدث في شارع الغاردنز يوم لم تأتِ

ومن نهايات الحلم جاءت تلك الأغنية التي لا أتوقف عن ترديدها
بستنى الليل لأشوفه فيه
ويحلم بيَّ وأحلم بيــه
فقالت   لا أقصد أن تصحو ، بل أن تدقق في كلامك
فقلت   أنا لا أفعل شيئا غير التدقيق في كلامي ، وكأنني لم أكتف بهذا فها أنا أُدقق كلام الآخرين
الشُّغل ليس عيباً   قالت لي
فوافقتها لأكثر من سبب
ثم سألتني عن شارع الغاردنز ، والكلام الذي قلته حول الموعد ، وعدم قدومها
فشرحت لها ذلك بسرعة ، لأنني لم أكن أريد أن أُضيِّعَ الوقت في العتاب
فأنكرتْ أنها تذكرُ شيئاً من ذلك ، بل أكدت   لو كنتُ وعدتكَ حقاً لكنت أتيت
وقالت   قد يكون ذلك حلماً لا أكثر
فشككتُ في نفسي ، وفي باقة الورد التي ذبلت بين يدي وماتت كطفلة خرساء
أمسكتني من يدي وسارت بي
لم أكن أعرف أين كنا ، لكننا حين غادرنا البوابة ولاح الأوتستراد ،

تبين أننا كنا في الجريدة ، لكنها ليست الجريدة نفسها ، أعني كان اسمها واضحا على المبنى ، أما المبنى نفسه فقد كان مبنى آخر

فقلت ـ مستعيراً جملة يرددها الكتاب ، بعد تعديلها لتكون ملائمة للموقف المهم المعنى لا المبنى وهذا ما كان

قادتني من يدي إلى شارع الغاردنز ، فتمشينا هناك ، لكنه لم يكن مثلما عرفته ، كان شارعاً مختلفا تماما ، فأدركت صدق كلامها

لا بدَّ أنني انتظرتها في الشارع الغلط ، أو كان الأمر كله حلماً

وقلت لو لم تكن صادقة لما زارتني هذه الليلة ـ وحتى ـ بلا موعد

إختلينا بحديقة الأطفال الجانبية

ولم يكن هناك أطفال أو مارّة

ونزل الليل علينا من السماء ، وخرج من تحت أرجلنا أيضا ، فما عدتُ أراها ، وحدثت أشياء كثيرة ، لم أعرف ما هي تماما ، وصحوت مبللاً فعرفت

وجاء الحلم التالي حاملا الطفل الجميل

هكذا هي الأمور دائما

لن أطيل

أعود إلى حيث بدأت

لبستُ وتلبّستُ ، وخرجت مبتهجاً ، كما لو ان الحياة على الأرض تعلن انطلاقتها ؛ لكنني ما أن وصلت إلى الشارع ، حتى فوجئت بصف طويل من البشر

قلت لن أتأخر ثانية مهما حدث

أفزعني الأمر ، أنا الذي أعددت نفسي كي أخصص اليوم لإحتضان الناس ، والإطمئنان عليهم ، وسؤالهم عن سر اختفائهم وعودتهم ، وأدركت أنني إذا ما أخذت مكاني الطبيعي في الصف ، فسأكون الأخير واحترت ، هل أتجاوز النظام الدقيق الصارم والجدية البادية على وجوه

الرجال الكبار والنساء العجائز وتلك الضحكات الساحرة على شفاه الأطفال ، أم ؟

وحيرني اختفاء الأعلام

تذكرت القرار القاطع الذي اتخذته ليلة الأمس ، بأن أكون مقداماً بصورة أكبر مما مضى وساعدتني عدم معرفتي بالأسباب التي تدفع كل هؤلاء الناس للوقوف بانتظام لم أره من قبل في حياتي ، على تطبيق قراري

قلت ربما يريدون شراء الخبز ، أو أخذ الدعم الذي قررت الحكومة دفعه للمواطنين بعد ارتفاع سعره ، وليس الوقت ملائما الآن بالنسبة لي

وقلت ربما يريدون شراء حليب ، وأنا لا أريد ، بعد أن تبين لي أن الطفل كان حلماً في حلمي

وقلت قد يكونون قادمين لإستلام كوبونات التموين ، ليتمكنوا من شراء الأرز بعد أن تبين لهم أن الوزارة قد طرحت كميات من الأرز الأمريكي ، إثرَ هزيمة الأرز الفيتنامي القاسية على أرضنا وما كنت أتمنى أن أشاهد هذا المشهد أو أن أكون فيه ، حتى لا يحس الأمريكان أنهم هزموا الجميع على الأرض ، مثلما هزموا الجميع في الفضاء ، وقد كانت مخالب (يوم الإستهتار) تمزق قلبي دون توقف

وقلت قد تكون أمانة عمان ألغت خطوط السرفيس والباصات ، وبنت سككا حديدية لنقل البشر بعد أن أصبح عددهم في العاصمة أكثر من مليون ونصف المليون

وقلت ، حتى بدأت أحسُّ بأن أقوالي تثبتني في مكاني ، إلى درجة أن أناسا آخرين أخذوا دوري

عندها بدّلتُ القولَ بالعمل

عدّلْتُ ربطةَ عنقي ، حركتُ رأسي الحركة إياها التي ترافق تعديل

ربطة العنق ، وقــررت تــجاوز كـل العـقبات التي يمكن أن تقف حجر عثرة أمام وصولي في الوقت المحدد إلى عملي

في البـداية صدرت صيـحات استنكار خفيضـة ، اختفت تماما حين ألقيت على أصحابها نظرة قاسية من طرفي عيني

لا بد أنهم فكروا أنني أحـد المسـؤولين ، وكنت في الحلم ، كـمـا في الواقع ، على درجة من الضخامة تؤهلني أن أصفع أي واحد منهم دون أن يجرؤ على النظر إلي

وحقيقة الأمر أنني لا أحب صفع أحد

لكن ذلك ، لم يمنع بعض الشجعان منهم أن يلتفتوا إلي ويتأففوا بل أن أحدهم قال عمرنا ما راح إنصير بشر !!!

وفهمتُ من كلامه ، أن عدم قدرتنا على أن نكون بشراً عائدة لتجاوزي الدَّوْر وهذه جملة ـ كما تعرفون ـ منتشرة في مواقف السرفيس والباصات ومحلات بيع الفول والفلافل والحمص والمسبَّحة وما إلى ذلك

عندها فقدت أعصابي ، وسألته ، ولكن بلطف

ماذا تقصد ؟

فقال لاشيء !!

وقالت فتاة لم تكن جميلة

ـ يا أخ ، أفسدتَ لنا يومنا بما تقوم به

لكنني لم ألتفت اليها

وكنت سـألتـفت ، بل وأصفٌ وراءها لو كـانت جمـيلة ، وكان الزمان غير هذا الزمان

وقال طفل صغير لطفل أصغر أمامه

ـ سيضربنا المعلم اليوم لأننا تأخرنا

وقد حنن ذلك قلبي ، إلى درجــة التفــكير بأن أمســك بيـديهما وآخذهما معي إلى مقدمة الصف إلاّ أن نظرة أرسلتها إلى الأمام

بعيدا ، جعلتني أرتعب
كان الصف بلا نهاية ، أقصد بلا بداية
فقلت عليهما أن يتعلّما دروس الحياة بنفسيهما
لن أطيـــل
مشيت
كانت الشمس قد أصبحت حارقة ، فرأيت فتاة تُخرج مرآتها وتتأمل زينتـها خائفة أن تكون قـد فسـدت ، وفي يدها لاح أحمـر شفاهها فتشاءمت
ـ وين يا أخ ، شو ما في قدامك ناس ؟!
كان الصوت صوتها ، عرفت ذلك قبل أن ألتفت إليها ، استدرتُ ، وبهدوء قلت لها لأ ما في !!
فقالت هازئة يامَّه خوفتني
مشيت
أدركت أنني سأتأخر عن عملي إن لم أضاعف سرعتي أسرعت ، كما كان أمريكي ـ رحمه الله ـ يزيد من سرعة سيارته ، وكلما ألقمها غياراً أعلى التفت خارج النافذة ، كما لو انه يتحدى المارة والسائقين الآخرين
وهذا ما فعلته ، رغم عدم وجود نافذة
لن أطيـــل
في البعيد لمحت مبنى ضخماً لم أره من قبل ، ببوابة واسعة يختفي داخلها أولُ الصف
فقلت فُرِجَتْ يا سعيد
نظر إلي رجل خلت أنني أعرفه ، ربما وكيل وزارة لمحت صورته ذات يوم في الجريدة ، ونظر إلي رجل آخر خلته مدير مؤسسة كبيرة ، وصحفي معروف لم تتح لي فرصة تدقيق مقالاته ، وكاتب وكاتبة ، ومغن لم

أستطع تذكُّرَ أي من أغانيه وقرب البوابة الكبيرة عرفت المخرج الذي قتلني من قفاه ، وتأكد لي أنه هو بعينه ، حين رأيت وجهه

لم يستطع نسيان دوره التاريخي كمخرج فصرخ بي

- إلى أين ؟!!

فالتفتُّ إليه وسألته مش عاجبك ؟

فقال لا

فقلت له (إن كنت تقصد قتلي قتلتني مرتينِ) !!

اجتزت عتبة البوابة الواسعة ، فتأكد لي أن عينيّ لم تخدعاني

كان المبنى كبيراً وجديداً جداً ، وفي باحته أشجار صغيرة مزروعة في أصص وأحواض ، ليس الواحد منها أكبر من حوض بقدونس المرحومة الوالدة (ميني) أشجار برتقال وليمون وصنوبر وسرو ، وفوجئت أنهم نجحوا إلى هذا الحد في تجاربهم على أشجار الزيتون أيضاً ، وخيِّل لي أنني رأيت أشجار حَوْر وأشجار صفصاف وأشجار بلوط وأشجار سنديان (ميني) أيضاً

وأثار دهشي شيء غريب ، إذ كلما حاولت قراءة اسم المبنى الممتد على عرض واجهته ، كانت الحروف تتداخل على نحو غير مفهوم وتزوغ عيناي

عندها فهمت ، أن ليس من المسموح معرفة الإسم المكتوب وأُعجبت أيما إعجاب بهذه التقنية الجديدة

تقدمت أكثر ، دون أن يجرؤ أحد على وقف تقدمي ، صعدتُ الدرجات الرخامية ، سمعت صوتاً خيّل إلي انه مألوف ، صوت ارتطام شيء بشيء

دخلت البهو واثقاً ، فلم يجرؤ حارس الباب أن يوقفني

قلت لا بدَّ أنه خشيَ أن أصفعه

وفجأة اتضح كل شيء

كان ثمة رجل يقف خلف طاولة ، صغيرة ، ولكنها أنيقة أيضاً

- تفضل

يقترب رجل يحمل حقيبة سامسونايت سوداء ، يتلقى صفعة قوية ويخرج مبتسماً من بابٍ خلف الطاولة مباشرة

راقبته ، فإذا به يتوجه إلى سيارة سوداء ، فهمت أنها كانت تنتظره قفز منها السائق ، فتح له الباب الخلفي ، اختفى في جوفها ، فانطلقت مسرعة

قلت لعله تأخر عن عمله

وخلف الشارع الذي كانت تقف فيه السيارة ، لاحت لي الحافلات وسيارات السرفيس ، وانبسط المشهد المألوف ، فعرفت دون أن يقول لي أحد أنه (الساحة الهاشمية)

حدقتُ في ساعتي ، ابتسمتُ ، لم يزل أمامي الكثير من الوقت ، وانبسطت أساريري

تقدمت من الرجل الواقف خلف الطاولة ، عرفته ، عرفته تماما ، إلى درجة أنني ارتبكت ، وقبل أن يقول لي تفضل ، وجدت نفسي منقاداً نحوه بفرح عظيم

- تفضل

قالها برقة بالغة ، لا تشبه الطريقة التي قالها بها لرجل السيارة السوداء

تأملني ، وسألني بلطف كأنني أراك هنا للمرة الأولى ، أم أنني غلطان؟

فلم أعرف بماذا أجيبه فصمتُّ

فقال لي شخص مثالي ، وذكي لقد رأيناك مذ غادرت البيت ، وأدركنا حجم لهفتك للوصول قبل الجميع ، ممتاز

ثم راح يخلع قفازه بهدوء ، دون أن يوقف تأمله لي بإعجاب

أحرجني

- إقترب قليلا

اقتربت مع انحناءة مناسبة

تلقيتُ الصفعة

وقبل أن أعدل قامتي ، ربّتَ على كتفي

- قلة هم أولئك الذين أصفعهم مباشرة دون استخدام القفاز ، هل تدرك معنى ذلك ؟

هززت رأسي بانفعال

- ممتاز قال لي

وخرجت

قبل أن أصل الصحيفة فكرتُ بكل ذلك الذي حدث أمس وتوصلت في النهاية إلى حل

إذا قاموا بفتح الموضوع ، فسأروي لهم تفاصيل ما حدث ، أما إذا لم يتحدثوا فيه ، فلن أتحدث

ولم يتحدثوا

قلت لعلهم لا يزالون تحت وقع الصدمة

وقلت أمامهم من الأيام ما يكفي لكي يتذكروا ، وعلى أقل من مهلهم

في المساء ، حين عدت من العمل ، توقعت أن أمر في المراحل نفسها التي مررت بها صباحاً ، لكن توقعي ذهب أدراج الرياح ، لأن المبنى كله اختفى

وصلت إلى البيت بسهولة غريبة ، بل غير معهودة أبداً

شاهدت بانشراح شديد نشرة الأخبار ، ثم المسلسل العربي ، ونمت مبكراً في محاولة لترتيب لقاء مع الفتاة الجميلة جداً جداً

صحوت . .

فتحت الباب
تأملت طيور الفري ، فأحسست بأنها تملأ عليّ البيت حبورا
خرجت
كان الطابور مكتملاً
وكما حدث في اليوم السابق
تجاوزت الجميع ، ووصلت إلى الطاولة قبل أن يبدأ الرجل خلف الطاولة عمله
تلقيت الصفعة ، بالطريقة نفسها ، أمام حسد الطابور
قلت لقد صبرت ونلت ياسعيــــد
ومن يومها ، لا أحد يصل إلى مكان عمله قبلي
انتهيت
لا
إبتدأت

كان ذلك فصل
النهاية التي سبقت البداية
ويليه فصل
العودة إلى البداية التي سبقتها النهاية

فصول الرواية

إبراهيم نصرالله

من مواليد عمّان عام ١٩٥٤ من أبوين فلسطينيين اقتُلعا من أرضهما عام ١٩٤٨ ، درس في مدارس وكالة الغوث (مخيم الوحدات) ، وأكمل دراسته في معهد المعلمين التابع للوكالة

عمل مدرّسا لمدة عامين في المملكة العربية السعودية ٧٦ - ٧٨

عمل في الصحافة الأردنية من عام ٧٨ - ٩٦

يعمل الآن مسؤولا عن النشاطات الثقافية ـ دارة الفنون ـ مؤسسة عبد الحميد شومان ومستشارا ثقافيا للمؤسسة

صدر له

شعراً

الخيول على مشارف المدينة ـ دار الشروق ـ عمان ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت .المطر في الداخل ـ الشروق ، المؤسسة العربية. الحوار الأخير قبل مقتل العصفور بدقائق ـ الشروق .نعمان يسترد لونه ـ المؤسسة العربية .الفتى النهر والجنرال ـ الشروق .عواصف القلب ـ الشروق .حطب أخضر ـ الشروق .فضيحة الثعلب ـ الشروق .الأعمال الشعرية ـ مجلد ، المؤسسة العربية .شرفات الخريف ـ المؤسسة العربية .كتاب الموت والموتى ـ المؤسسة العربية

روايةً

براري الحمى ـ الشروق .عَو ـ الشروق .مجرد ٢ فقط ـ الشروق .طيور الحذر ـ دار الآداب .حارس المدينة الضائعة ـ المؤسسة العربية .كتاب الأمواج البرية ـ الشروق

كتب للأطفال   صباح الخير يا أطفال   أشياء طيبة نسميها الوطن

شارك في المعرض التشكيلي (كتّاب يرسمون) وأقام معرضا فوتوغرافيا في دارة الفنون ـ مؤسسة شومان عام ١٩٩٥ بعنوان (مشاهد من سيرة عين)

ترجمت براري الحمى إلى الإنجليزية ، والحوار الأخير إلى الألمانية ، ونشرت مختارات من قصائده بالإنجليزية ، الروسية ، البولندية ، التركية ، الفرنسية

نال سبع جوائز عن أعماله الشعرية والروائية ، من بينها

جائزة عرار الأدبية عن أعماله الشعرية   ١٩٩١

جائزة تيسير سبول عن أعماله الروائية   ١٩٩٤

جائزة سلطان العويس للشعر العربي   ١٩٩٧